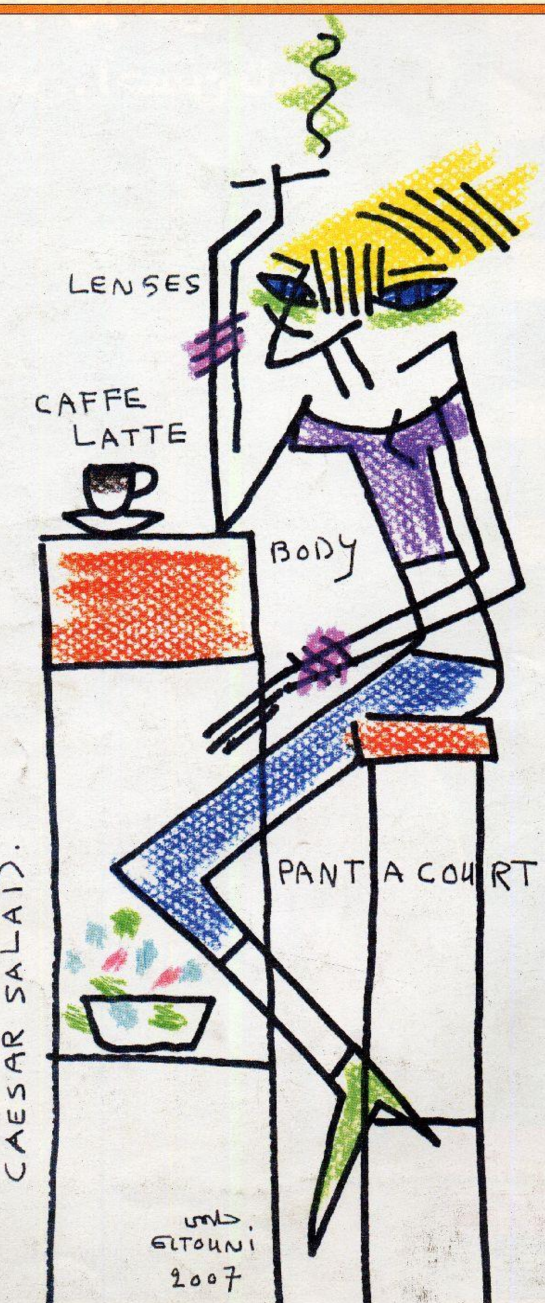
الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 9 - Issue 98 - March 2007

مجلة شهرية . العدد الثامن والتسعون . السنة التاسعة . مارس ٢٠٠٧ . الثمن عشرة جنيهات

الانتماء و "الكوزموبوليتانى" فى القاهرة



عودة الشعر الضال
خيرى منصور

الأدب الفلسطينى إلى العبرية
رحيلة مزراحى

مايكل مور.. الحكمة والجنون
محمد يوسف عدس

إشكالية الردة والمرتدين
عبد الله بن الشيخ المحفوظ بن بيّه

فى العقل والعقلانية
محمد عمارة

صحافة الصوت والصدى
سلامة أحمد سلامة

السنة التاسعة
العدد الثامن والتسعون
مارس ٢٠٠٧

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة
رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى
مدير التحرير
أيمن الصياد

محتويات العدد:

• سلامة أحمد سلامة ٤
«صحافة الصوت والصدى..»
• خيرى منصور ٦
«عودة الشعر الضال»
Terrorist، تأليف: جون أبدايك
• راحيلا مزراحى ١٠
«الأدب الفلسطينى إلى العبرية.. أيديولوجيا الترجمة»
• محمد يوسف عدس ١٦
«مايكل مور.. الحكمة والجنون»
Dude, Where is my Country?، تأليف: مايكل مور
• كرستيان كاريل ٢٢
«ماذا عن العراقيين؟»
1 - Baghdad Burning: Girl Blog from Iraq
تأليف: ريفربند
2 - Night Draws Near: Iraq's People in the Shadow of America's War
تأليف: انطونى شديد
3 - In the Belly of the Green Bird: The Triumph of the Martyrs in Iraq، تأليف: نير روزن
• أميمة عبداللطيف ٢٨
«لبنان.. الطائفية والطائفيون»
1 - Civil and Uncivil Violence in Lebanon, A history of the internationalisation of communal conflict، تأليف: سمير خلف
2. عن أمل لا شفاء منه، تأليف: فواز طرابلسى
• عبد الله بن الشيخ المحفوظ بن بيه ٣٢
«لا إكراه فى الدين»
لا إكراه فى الدين.. إشكالية الردة والمرتدين من صدر الإسلام إلى اليوم
تأليف: د. طه جابر العلوانى
• محمد عمارة ٣٦
«فى العقل والعقلانية الإسلامية»
• محمد المهدى ٤٤
«سارة برنار فى أمريكا»
• فكرى أندراوس ٥٠
«الكوربوريشن»
The Corporation، تأليف: جول باكان Joel Bakan
• أنوك دى كوننج ٥٦
Caffe Latte & Caesar Salad: مقاهى القاهرة «الكوزموبوليتانية»
Cairo Cosmopolitan.. Politics, Culture, and Urban Space in the New Globalized Middle East، تأليف: ديانا سنجرمان وباول عمار
• أحمد عبدالسلام سليم ٦٠
«الفساد: الغش، التجارة، وثقافة التعليم فى مصر»
• مينا بديع عبدالملك ٦٦
«مدينة من رخام»
Die Menasstadt und das Nationalheiligtum der Altchristlichen Aegypter in der Westalexandrinischen، تأليف: كارل ماريا كاوفمان
• عز الدين محمود ٧٠
تقارير «قناة جونجلى».. حقائق ومؤامرات»
• إصدارات جديدة ٧٤

كتاب العدد:

- أحمد عبدالسلام سليم.. أستاذ بكلية التجارة، جامعة الإسكندرية
- أميمة عبداللطيف.. صحفية مصرية مقيمة فى لبنان.
- أنوك دى كوننج.. باحثة بالمعهد الملكى الهولندى لدراسات الكاريبى وجنوب شرق آسيا وتنها دراسات عن القاهرة.
- خيرى منصور.. كاتب عربى.
- راحيلا مزراحى.. تدرس علوم الكمبيوتر وتعد رسالتها فى الأدب العربى فى جامعة تل أبيب.
- سلامة أحمد سلامة.. صحفى.
- عبدالله بن الشيخ المحفوظ بن بيه.. وزير العدل الموريتانى الأسبق وعضو المجمع الفقهى الدولى فى جدة وأستاذ الفقه جامعة الملك عبدالعزيز، وعضو المجمع الفقهى الأوروبى.
- عز الدين محمود.. باحث سودانى.
- فكرى أندراوس.. كاتب مصرى مقيم بالولايات المتحدة.
- كرستيان كاريل.. صحفى بمجلة نيوزويك الأمريكى.
- محمد عمارة.. كاتب ومفكر إسلامى.
- محمد المهدى.. مستشار دار الآثار الإسلامية بالكويت.
- محمد يوسف عدس.. باحث فى التاريخ والشئون السياسية مقيم فى إنجلترا.
- مينا بديع عبد الملك.. أستاذ الرياضيات بالجامعة الأمريكية فى القاهرة.

رسوم العدد للفنان
محمد حجى

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٣/ ٣٩٢٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد - داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولاراً أمريكيا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولاراً امريكيا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولاراً أمريكيا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الاشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى، ص. ب: ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩، فاكس: ٤٠٢٨٥٦٦، subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ١٥ درهماً - مملكة البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالاً - سلطنة عُمان ١.٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٢٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهماً - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

نون

سلامة أحمد سلامة

صحافة الصوت والصدى..

أجزني إذا أنشدت شعراً فإنما
بشعري أتاك المادحون مُردداً
ودع كل صوت غير صوتي فإنني
أنا الصائح المحكي والآخر الصدى

بهذه الأبيات من القصيدة الشهيرة التي مدح بها أعظم شعراء العربية أبو الطيب المتنبي أميره سيف الدولة الحمداني. وضع الأساس قبل عدة مئات من السنين لطبيعة العلاقة الملتبسة بين المثقف والحاكم، عندما كان الشاعر يقوم بوظائف متعددة.. فهو وزير الإعلام، والمتحدث الرسمي، والمثقف التابع، والمستشار الأمين، والصحيفة الرسمية، وجهاز الإعلام الحكومي..

وقد حاول الشاعر في قصيدة تعد من أصدق قصائد المديح التي عرفها الشعر العربي، أن يقنع الأمير بمؤهلاته حتى يكون الجزاء بقدر العمل.. فهو وحده الذي يملك طلاقة اللسان، ونصاعة البيان، وقوة الحجة.. حتى ليصدقه كل الناس فيسيرون وراءه، ويقتنعون بآرائه. أما الآخرون فهم مجرد أصداء تتردد، وأصوات تأتي وتذهب، فلا أحد يصدقها أو يحاكيها. بل هم على الأرجح مرتزقة لا يعرفون غير فنون الابتزاز والتشهير، يروجون الأكاذيب والشائعات. وما أسهل ما تسقط الأقنعة من على وجوههم بمجرد أن يحصلوا على الثمن، ومن ثم فلا يصدقهم أحد وليس لهم وزن ولا تأثير، وليس لكلماتهم قيمة ولا قدرة على الإقناع.

في العصر الحديث. وفي العقود الأخيرة من القرن العشرين، اختفت الحاجة إلى مناصب وزير الإعلام في الدول الديمقراطية، التي يقوم النظام فيها على أساس حرية التعبير وحرية تداول المعلومات والحصول عليها، حيث أصبحت وسائل الإعلام تعبر عن ضمير المجتمع، وتنوب عنه في رقابة الشأن العام، وتقوم بمهمة الإعلام والتثقيف والتنوير، ومن ثم لم يعد من حق الدولة أو السلطة التنفيذية أن تتحكم في نشر المعلومات أو حجبها، اللهم إلا في حالات الضرورة القصوى التي تتعرض فيها الأمة لأخطار فادحة مثل حالة الحرب أو التعرض لهجوم خارجي عدواني.

وما إن سقطت القيود، واختفت الرقابة، وانطلقت الحريات بغير حدود، حتى اشتدت حمى المنافسة بين وسائل الإعلام على اختلافها، ولا سيما بعد دخول الفضائيات والشبكة الإلكترونية حلبة السباق. فتماهت الحدود بين العام والخاص، وأصبحت الشخصية العامة جزءاً من الاهتمام العام، من حق الرأي العام أن يعرف كل شيء عنها وعن مصادر ثرواتها، ويكيل لها المديح بقدر ما يوجه إليها اللوم. لا فرق في ذلك بين السياسي ونجم السينما ولاعب الكرة وكل من دخل عالم الأضواء، كما أصبح من حق الرأي العام أن يحصل على المعلومات التي تمكنه من الإحاطة بحقائق الأمور، مهما اتسمت بالسرية والخصوصية، وبالأخص إذا تعلقت بمشكلة أو قضية عامة، إذ بناء على ما يصدره الجمهور من حكم، تمنح الثقة لنائب أو حزب أو مرشح لمنصب عام تحسم نتائجها في الانتخابات البرلمانية أو النقابية أو غيرها من أشكال التمثيل الديمقراطي.

غير أن هذا التطور الذي زاد من إيقاعه سهولة الانتقال وثورة الاتصالات والتفاعل بين الوسائط الإعلامية المتعددة، لم يجعل الحصول على المعلومات ونشرها أقل خطراً أو أيسر في التناول والتداول. بل أدى إلى أن تسعى مصادر المعلومات التي يهمها إبقاء القرارات الحساسة والأسرار المحرجة والاتصالات الخفية تحت السيطرة في خزائنها، فلا تذاع إلا في الوقت المناسب.. ربما بعد عشرات السنين، أو بعد أن تفقد أهميتها، أو بعد أن يخرج المسؤول من منصبه ويفلت من الحساب والعقاب، أو يتدخل القدر لإنقاذه بالموت.

وفي السنوات الأخيرة، وخاصة بعد حربي أفغانستان والعراق، وما سمي بالحرب على الإرهاب، ظهرت أساليب جديدة في إخفاء المعلومات أو تلوينها وتشويهها، بحيث تؤدي إلى تحقيق أهداف بعينها. وهو ما عرف باسم التضليل الإعلامي misinformation أي إذاعة معلومات كاذبة غير دقيقة، في ثوب معلومات صحيحة بحيث يسهل خداع المتلقي وتضليله. وقد استخدمت واشنطن هذه الوسيلة على نطاق واسع وبأكثر الأساليب إقناعاً وخداعاً في حرب العراق، حين أقنعت أجهزة الحرب النفسية في البنتاجون قطاعات واسعة من الرأي العام الأمريكي والرأي العام العالمي بامتلاك العراق لأنواع من أسلحة الدمار الشامل تهدد الأمن العالمي. وقدم كولن باول وزير الخارجية الأمريكية أمام أعضاء مجلس الأمن عرضاً مثيراً لمعلومات موثقة عن هذه الأسلحة، ثبت كذبها باعترافه فيما بعد.

هذه الطريقة الأمريكية لم تكن ملائمة للعقلية الأوروبية، التي ابتدعت أسلوباً آخر، قد يختلف في الشكل، ولكنه لا يختلف في المضمون والهدف. وهو ما يعرف بفريق «الملفقين» Spin Doctors. وهم عبارة عن مجموعة من المستشارين الذين يحيطون برئيس الوزراء، مهمتهم تبرير السياسات وتلفيق الأخبار والحقائق، وتسريبها إلى الصحافة والرأي العام بما يساعد على تجميل الصورة العامة للحكومة وبرامجها وسياساتها الخارجية أو الداخلية، وينطوي عمل «الملفقين» الذين يعتمدون على دراسة نفسية الجماهير ومشاعرهم وتطلعاتهم، على النفاق وتزوير المعلومات.. وعلى مدى السنوات الأخيرة برز هذا الدور بصورة واضحة في تلفيق الوقائع والأحداث التي اعتمد عليها توني بلير رئيس وزراء بريطانيا في تبرير الحروب والمجازر والجرائم التي شهدتها منطقة الشرق الأوسط، سواء في العراق أو في لبنان وفلسطين باعتبارها مخاضاً لولادة عالم جديد في هذه المنطقة، جرياً وراء الأوهام والمزاعم التي روجها أمراء الظلام من المحافظين الجدد في واشنطن والسياسات الفاشلة التي انتهجتها إدارة الرئيس بوش.

وما بين «التضليل الإعلامي» على الطريقة الأمريكية وخداع «الملفقين» على الطريقة البريطانية، يظل حجم الخداع الإعلامي وإخفاء الحقائق وأساليب الابتزاز، محصورة في نطاق زمني محدود لا يستمر طويلاً. وداخل الدوائر الإعلامية الوثيقة الصلة والمتعاونة مع مراكز صنع القرار والتي تتحمل مهمة الترويج والنشر في وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمطبوعة، بهدف تخدير الرأي العام وحمله على تصديق ما يلقى إليه من أخبار ومعلومات، بحيث يسهل بعد ذلك تصوير الهزيمة انتصاراً والفشل نجاحاً والشر خيراً.

وفي وسائل الإعلام التي تعيش وتعمل في ظل مناخ ديمقراطي حقيقي، يصعب مهما اشتدت أساليب التضليل الحكومي أو التلفيق الإعلامي، إخفاء الحقائق لفترات طويلة أو شراء ذمم الصحفيين المحترفين دون فضحهم واستبعادهم، إذ سرعان ما ينجح الصحفيون المحترفون والمحترمون في اختراق أستار التزييف والتضليل، ليصلوا إلى جوهر الحقيقة أو الجانب الأكبر منها. يساعد على ذلك أن تداول السلطة في النظم الديمقراطية، لا يترك للحكومات أو الأحزاب الحاكمة فرصة المواربة أو المداراة على الأسرار أو إخفاء الوثائق، فضلاً عن تفعيل عنصري الشفافية والمحاسبة أمام المجالس النيابية.

ومن هنا نمت وترعرعت في صحافة الغرب أساليب الاستقصاء والتنقيب والغوص في العمق لكشف الأسرار والخبايا، وجمع الأدلة والبراهين والوثائق المؤيدة، وعدم الاقتصار في رواية القصة الصحفية أو الخبرية على طرف واحد، بل الجري وراء كل سؤال والاستماع إلى كافة التفاصيل دون اكتراث بأصحاب النفوذ بحثاً عن الحقيقة. وهو ما ضاعف من مصداقية الصحافة الغربية، وجعل ما ينشر فيها ميزاناً يستشهد به في وسائل الإعلام العربية.. مهما كانت ميولها السياسية وانحيازاتها الثقافية والعقائدية.

ولهذا ظهرت في أفق الإعلام العالمي نجوم زاهرة لامعة من أمثال بوب وودوارد وسيمور هيرش وروبرت فيسك وعشرات غيرهم، لكل منهم طريقته ومنهجه في جمع الحقائق وفرزها واختبارها اعتماداً على قدراته الخاصة ورؤيته المستقلة والالتزام بالموضوعية. كما أصبح للبرامج التليفزيونية نجومها المرموقون، وبالأخص أولئك الذين يصلون بالصورة والصوت إلى أدق الأسرار في أشد الظروف خطورة وحرجاً، ويعرضون حياتهم

الصحافة في مصر، تسير الآن على وتر مشدود بين الانطلاق إلى آفاق رحبة من الحرية والمؤسسية والحداثة التي تستجيب لشروط العصر من ناحية، وبين الارتداد إلى أحضان الدولة، أو الوقوع تحت سيطرة رجال الأعمال، أو الغرق في مستنقع النميمة والابتزاز من الناحية الأخرى

لأخطار جسيمة في سبيل نقل صورة حية واقعية يصعب تزويرها.

والسؤال الذي ينبغي أن نسأله لأنفسنا: أين نحن من ذلك كله؟ وهل استطاع الإعلام العربي أن يقطع الحبل السري بينه وبين السلطة.. أيا كانت، ممثلة في الحاكم أو النظام أو الحزب أو صاحب رأس المال؟ أم أن القوة تظل لها في حياتنا اليد العليا في صنع الحقيقة وإخفائها أو الكشف عنها؟

لابد من الاعتراف بأن الصحافة ووسائل الإعلام في العالم العربي عموماً مازالت تشق طريقها بصعوبة بالغة وسط صخور ومعوقات كثيرة، بسبب غياب الديمقراطية، وامتهان الحريات، ومازالت تخضع لضغوط التقاليد السلطوية أو الطائفية أو الاثنية التي لم تبرأ منها حتى اليوم، وهو ما انعكس على أدائها المهني وتخلفها عن مجاراة أساليب الإعلام المتطورة التي استخدمت التقنيات الحديثة في وسائل الاتصال لتحقيق أكبر قدر من التفوق والقدرة على المنافسة. وسوف نلاحظ أنه حتى في بعض الصحف العربية والفضائيات التي اخترقت حاجز المنافسة العالمية، وأصبح لها تواجد معترف به في الساحة الدولية، إلا أن أي واحدة منها لا تخلو من خطوط حمراء تحرص على عدم الاقتراب منها. ويرجع السبب في ذلك إلى شكل الملكية وغياب الضوابط والتقاليد التي تحكم العلاقة بينها وبين السياسة التحريرية. فضلاً عن أن صناعة الإعلام تطورت وتعقدت ودخلت فيها عناصر كثيرة، أسقطت الفواصل بين النشر الطباعي الورقي والنشر الفضائي التليفزيوني والنشر الإلكتروني.. وأصبحت تقوم عليها مؤسسات تخضع لنظم الإدارة الحديثة.. صغيرة كانت أو كبيرة.

يضاف إلى ذلك أن مشكلة التمويل مازالت تمثل إحدى العقبات الرئيسية التي لم يتم التغلب عليها، فأكثر قناتين ناجحتين مملوكتان للدولة، أو الأمير أو الحكومة مهما كانت مظاهر استقلالهما. وينطبق نفس القول على صحيفتين أو ثلاث في العالم العربي.

غير أن أضعف حلقة في الإعلام العربي هم الصحفيون والإعلاميون بصفة عامة. فمع انتشار وسائل الإعلام انتشاراً هائلاً، تعددت معه الصحف وتضاعف عددها، وزادت القنوات التليفزيونية إلى أكثر من مائتين. لم تستطع الكوادر الصحفية والإعلامية أن تواكب التطورات العالمية، وترتقي بأدائها المهني لتكتسب المصداقية لدى الرأي العام، وتكتسب الاستقلالية والموضوعية وإتقان الصنعة.

لقد نشأت في ظل هذه الأوضاع حالة من السيولة الإعلامية في الوطن العربي، تنتقل عدواها من المطبوع إلى المرئي، ومن الصحافة إلى التليفزيون وبالعكس، مما فتح الطريق أمام كثيرين من قليلي الموهبة، محدودي الخبرة للصعود إلى مراكز الصدارة في ظل ظروف سياسية بالغة التعقيد تلم بالعالم العربي، وتعكس حالة التدهور والانهيار فيه على صعيد سياسية واجتماعية وفكرية. وظهر ذلك بشكل واضح في كل من مصر ولبنان اللتين كانتا في طليعة الدول العربية التي قادت نشأة الصحافة أولاً ثم التليفزيون ثانياً.

ففي لبنان الذي تعرض لمحنة الطائفية والحرب الأهلية طوال العقود الثلاثة الأخيرة، بحيث لم يكن يلتقط أنفاسه من أزمة حتى يغوص في أخرى، توارت رموز وأقلام لامعة وانطفأت شعلة صحافة يومية وأسبوعية حافظت على حيويتها واستقلاليتها بين المعسكرات العربية المتصارعة، فلم يبق فيها غير قليلين يعدون على الأصابع. أما الباقون فقد انصرفوا إلى الصحف المهاجرة والفضائيات الخليجية الثرية بأموال النفط وطفرة النمو الاقتصادي. أفضت إلى ظهور أخلاقيات وممارسات مهنية تخضع لمنطق المادة وتتوارى معها كثير من القيم الصحفية.

أما الصحافة في مصر، فهي تسير الآن على وتر مشدود بين الانطلاق إلى آفاق رحبة من الحرية والمؤسسية والحداثة التي تستجيب لشروط العصر من ناحية، وبين الارتداد إلى أحضان الدولة، أو الوقوع تحت سيطرة رجال الأعمال، أو الغرق في مستنقع النميمة والابتزاز من الناحية الأخرى.

وبين هذين الطرفين تشهد الصحافة في مصر الآن معارك وحروباً إعلامية، ليس على التفوق المهني والسبق الصحفي واحترام ذهنية القارئ، ولكن على تحقيق فرقعات إعلامية مثيرة، تحاول اختراق السقف الواطئ لصحافة اعتادت الخضوع والتملق، أو للاستئثار برضا الحاكم ومسايرته وإثبات الولاء له، مستفيدة من اتساع مجال الحريات والانطلاق السعي نحو إقامة نظام ديمقراطي تتوافر في ظله ضمانات العدل والحرية والحكم الرشيد.

وعلى الرغم من أن الصحافة في مصر شهدت في حقب سابقة سادت خلالها سيطرة المركزية السياسية وغياب التعددية والديمقراطية.. مدارس صحفية اتسمت بقدر عال من المهنية والكفاءة وسمو لغة التخاطب والنقاش، وأنجبت أقلاماً لصالة أبحروا بسفينة الصحافة وسط الأنواء السياسية والاجتماعية داخلياً وخارجياً، إلا أن الصحافة القديمة لم تستطع أن تطور أداءها بطريقة إيجابية في مواجهة الأشكال الجديدة من الصحافة، مستفيدة من هامش الحرية الواسع الذي انفتح أمامها، ومن أساليب الإعلام الحديث الذي تفجرت تقنياته لترتفع بمستوى الوعي العام للقارئ، وتستجيب لاحتياجاته السياسية والثقافية، وتنير الطريق أمام عملية التطور السياسي والنظم التي تعمل في خدمتها.

وفي مصر الآن ثلاثة أنواع من الصحافة:

●● صحافة تؤثر السلامة: سلامة القائمين عليها بزعم الحفاظ على سلامة القارئ نفسه، فهي كالقاطرة التي تسير على قضبان لا يملك معها سائقها أن يتجه يميناً أو يساراً. وهو نوع من السلامة البلهاء.. التي تخشى الجديد، وتعادي التغيير، وتقلق من الحرية بغير نص رسمي، لأنها تنطوي على مفارقة ومخاطرة غير مأمونة العواقب في رأيهم. وهي صحافة مثقلة بالديون، غارقة في الفساد وسوء الإدارة، تيسر الحكومة رؤساءها لأنها هي التي تعينهم وتقيلهم وتملي عليهم ما يعن لها، فهم عيالها ورجالها في آن. وهم كتبتها ومروجو سياساتها. تقوم المنافسة بينهم ليس على اجتذاب القارئ وإرضائه، ولكن على الفوز برضاء الرؤساء والمسئولين في ترويج الأفكار وتسويق القيادات وضرب الخصوم.. تعتمد أسلوب النفاق والرياء، ولا ترى من العالم المحيط بها غير قضبان القفص الذي تجلس فيه، والحارس الذي يملك مفتاحه.

●● وعلى الضفة الأخرى من النهر، تظهر الصحافة الشعبوية بألوانها الزاعقة، وعناوينها المارقة، ولغتها البسيطة الدارجة.. تحاول اختراق السدود والوصول إلى الأسرار والخفايا، واجتذاب الشباب والأجيال الصاعدة التي سئمت صحافة الآباء والأجداد، وباتت تبحث عن خطاب آخر أكثر صدقاً ومصارحة، وانشغالاً بمشاكلهم واهتماماتهم، بما في ذلك الإنترنت وما يتبادلونه فيما بينهم على صفحات البلوجرز (المدونات).

●● ويأتي بين هذا وذاك فريق ثالث من الصحافة الجديدة المستقلة، أو الصحافة الخاصة، التي تهتم بالخبر أو القصة الخبرية وتفرد لها مساحات كبيرة، تقدمها على صفحات الرأي، ولكنها لا تهمل تنوع الآراء والاتجاهات. ولا تلقي بالاً لإرضاء السلطة أو تملقها على حساب القارئ إلا بقدر ما يحافظ على سلامتها واستمراريتها بدرجة ما من المواءمات الضرورية. وما زال هذا اللون من الصحافة محدود التأثير ولكنه يحتل يوماً بعد يوم مكانة متقدمة، اعتماداً على ما تقدمه من أخبار موثوق بها، ودفاع عن مصالح الناس، وسعي حثيث لاكتساب ثقة القارئ.

في قلب هذه التيارات المتلاطمة، وما تعكسه من فوضى، هل مازال الإعلام العربي يردد الأصوات الحقيقية أم الأصداء الزائفة؟ وهل آن الأوان لكسر قيود الثقافية ووضع الإعلام المطبوع والمرئي في مكانه الصحيح، متحرراً من الطغيان السياسي والثقافي والاجتماعي الذي يكبل الإنسان العربي في عالمه المعاصر؟■

■■ منذ بواكيره، تنفس فيه النائر الشاعر وكان توأمه، وإذا كان لكل فنان نبع يغذيه على امتداد العمر كما قال البير كامو وهو يمتدح تكرارات تشتسوف الأصيلة، فإن نبع محمود درويش لم يكن كما أحب النقد

في حضرة الغياب
محمود درويش
بيروت - دار رياض الريس للكتب والنشر - ٢٠٠٦

بقسوة بالغة أن يختزله، مجرد موضوعة وطنية بالمعنى النشيدي الكلاسيكي، فهو لم يشاطر الفلسطينيين المنفيين في صباد حنينهم إلى الماضي وإلى العودة، لأنه عائد منذ الولادة، ومقيم في لحم الأرض كما قال في قصيدة مهداة إلى الراحلة فدوى طوقان: إنه يانفعل في حل من التذكار، فالكرمل فيه وعلى أهدابه عشب الجليل.....

نعرف أن صدور كتاب لشاعر مثل محمود درويش هو بحد ذاته مناسبة، وغالبا ما تستثمرها الصحافة الأدبية في مقاربات أفقية، تمسد ريش الطائر لكنها تكسر البيض في العش، لأنها مسبوقة بطوية ينقصها الفضول المعرفي، وإن كان حبرها يسيل كاللعاب على التغطية الفورية.

وعندما قرأت الكتاب للمرة الأولى، أحسست بأن الشاعر قرر منذ السطر الأول بل منذ القنديل الذي علقه على مدخل الكتاب، وهو قول لمالك بن الريب سليل القطا الضال في سماء محتقنة بالزفير، وأصداء الاستغاثات الرسولية، أن يحتشد بكامل طاقته في نص تلتبس هويته على هواة النمذجة والتنميط الذين فضلوا أن يصبوا البحر في زجاجات كي يسهل تدجينه ونزع تياره الراعف، الموت، في الصميم من هذا النص، لكن القيامة هاجس مناوئ للموت، بل هي الدرع السحري الذي اتقى به الشاعر الغياب، وللعنوان الذي اصطفاه دلالة تتجاوز المفارقة، فالغياب يتلاشى تحت سطوة الحضور الساطع، والذاكرة المسلحة بسيرة فذة من الشعر

عـــــودة الشـــــعر



لا تشكم الخيال بقدر ما ترضعه وتغذيه وتحرضه على المزيد من الجموح...........

وكتاب درويش هذا، من عائلة لم تبلغ القبيلة لقلة أفرادها، يغري قارئه حتى لو قرر الاستقراء بالانتشاء، وبالتالي بمستوى من التصادي هو أقرب إلى المشاركة في الشهيق.

ولا أدري كم سأخسر من انتشائي بهذا النص إذا جهرت بما تغلغل منه في داخلي، لأنني عندئذ سأبحث عن معادل موضوعي قد لا أعثر عليه بيسر لما هو ذاتي وانطباعي ومعايشة عن كثب. والسؤال الذي يتشكل منه مبتدأ هذه القراءة أو الاستقراء هو: هل ضاق الشعر فاتسع النثر أم العكس؟ وهل تجلت ثنائية النفري التي أساء الكثيرون فهمها في صيغة أكثر إشكالية، وأكثر عصيانا على الفهم!

هذه المرة... هذا النص انبثق الشعر من فائض النثر.. إذا صح لنا مثل هذا التقسيم الإجرائي لتضاريس الكتابة، بحيث تغدو كالخرائط ذات خطوط طول شعرية وخطوط عرض نثرية...

وهنا سأعترف ولو على حساب أنانية شخصية بأن نص محمود درويش في حضرة الغياب قدم لي مناسبة طالما بحثت عن مثيلاتها، للبوح بهاجس مزمن.. هو ما أسميه الشعرية الضالة..

الشعرية الضالة هي باختصار عقوق الشعر، إزاء الوالدين الصارمين، وهما الوزن والقافية، إذا نحينا نية النظم، وهي الأقنوم الثالث في ديوان العرب، فهي مبثوثة في نصوص قد لا يجازف الناقد المدرسي بتصنيفها شعرا...

وبقيت هذه المساحة مهملة ومسكوتا عنها إلى أن اقترب من تخومها كولومبوس قصيدة النثر، وهو الباحث عن جذر تراثي لشرعية الشعر غير الموزون والمتحرر من القافية.

وأتاح لنا البحث عن جذور لشرعية شعر قصيدة النثر قراءة نصوص هي من صميم الشعر رغم أنها لا تقع ضمن ملكوته الرسمي الذي وضع له الحدود النقاد الاتباعيون.

وقد تعلق هذا بنصوص محمود

الضـــــــلال!

خـيـــري مـنـصـــور

الشعرية الضالة هي باختصار عقوق الشعر إزاء الوالدين الصارمين، وهما الوزن والقافية. إذا نحينا نية النظم، وهي الاقنوم الثالث في ديوان العرب، فهي مبثوثة في نصوص قد لا يجازف الناقد المدرسي بتصنيفها شعرا...

درويش التي تتحدى الكسل النقدي والنحل الشغوف بالرحيق الداجن في حدائق البيوت، فإن شعريته تسربت بقوة إلى نثره منذ يوميات الحزن العادي لكنها مكثت بقوة في ذاكرة للنسيان، وهو عنوان يتجاوز المفارقة أيضا لصالح جدلية آسرة، تقطع المتواليات الرتيبة، وتفسد على الحاسوب النقدي الأصم جداوله وخاناته...

فالذاكرة مضادة للنسيان وفق منطق مألوف، لكنها تنقض على وظيفتها وتتحول إلى خيال يتغذى من مساحة النسيان، فما من خيال عديم الجذور في الذاكرة وترابها، إنه يعيد إنتاجها بعناصرها، وبالمرئي والمحسوس والمشموم والمسموع فيها.

مزيد من النسيان يعني مزيداً من التخييل. والنسيان في هذا السياق هو نقيض التناسي، لأنه يتم عفويا واستجابة لنزوع عنيف نحو إعادة الخلق. أو ما يسمى في المعاجم الجمالية تصحيح الخلق.

إن المخاطب في هذا النص هو المؤلف ذاته، والمونولوج الطويل لا يتقطع إلا عند منعطفات ينبثق فيها الواقع بكل صلابته ويضغط على الأصابع. وقد تكون الصفحات التي ينبثق فيها الواقع في بعده الحدثي وأحيانا بملامحه الجغرافية كما في الطريق إلى غزة، مونولوج يفلت من المخيلة عائدا نحو الذاكرة، فالأمكنة، والمنتج السياسي الذي يلقي ظلاله على المشهد البشري هي بالتحديد معرفة وبالتالي فهي استدعاء قصدي لما يتطلب من الشاعر موقفا أخلاقيا... وهذا ما يتكثف بعبارة واحدة... هي أنه سيلقي بضميره إلى القطط إذا لم يعبأ بما يرى، وبما يشهد عليه من شروط باهظة تحاصر الناس الذين هو من صلبهم!

العلامات الفارقة في النص بين موت وموت وأب وابن، وشعر ونثر تصاعدت وغلت حتى بلغت ذروة الاعتراف بالطلاق بين الشاعر والإنسان العادي الذي لا يصدق بأن واحدا زائد واحد... قد يساوي مليونا...

أب الشاعر مات بضربة شمس في رحلة الحج، والابن ليس لديه كل هذا التعلق الفطري بالحياة... لهذا فهو يموت بضربة قمر... وأنا أعلم جيدا أن هنالك بشرا يتصبب العرق على أصداغهم تحت شعاع القمر، لكنه عرق آخر لا يرشحه الجسد، بل ترشحه مسامات الروح لفرط الشفافية...

إن الموت بضربة شمس لا قيامة عاجلة تعقبه، أما الموت بضربة قمر، فهو القيامة العاجلة ذاتها لأنه مجرد وعكة عابرة، ومحمود درويش عاد من الموت مرتين... أعرف إحداهما خارج الكتابة، وأعرف الثانية من خلال الجدارية التي خرج فيها الشاعر ليواجه موته موتا لموت... ويندر أن تجد شاعرا ظل يطارد الموت كي يدجنه ويحوله إلى يوم ثامن في أسبوع الحياة كدرويش، فقد رأى البياض البكر ذات موت عابر، لكن منابع السواد تحتاج إلى رحلة أخرى، لا يتقنها إلا من امتطوا موتهم كما لو كان دابة... ولكزوه بالقدم كي يعدو بهم عائدا إلى المهد! أو جلدوه بالسوط كما كان يفعل محيي الدين بن عربي عندما تنوء دابة الجسد بحمولة الروح!

إن جموح هذا النص نحو قطع المتواليات الأليفة والرتيبة، يصل أقصاه عندما تحل الذاكرة في الرائحة وليس العكس، فمن المعروف أن الروائح هي قرائن الماضي، وهي التي تستدعيه مثلما استدعت الكعكة المغموسة في الشاي لدى مارسيل بروست مليون كلمة.

وامتياز ما أسميه قطع المتواليات الأليفة في هذا النص ولدى محمود بشكل خاص هو ليس ما شاع في معاجم الحداثويين العرب الذين افتتنوا بالثلج الأسود، وما يماثل هذه المفارقة لأن المسألة انتهت إلى رتابة أخرى مضادة، وأصبح الثلج بحاجة إلى العودة نحو بياضه كي يصبح استخدامه شعريا، ولافتا وقاطعا للمتواليات...

يكتب محمود درويش ص٩٩:

في طفولتك أنك تخطيت العتبة الفاصلة بين الأفق والهاوية، وتدربت على فتح الاستعارة لغياب يحضر وحضور يغيب بتلقائية تبدو مطيعة وتعرف أن المعنى في الشعر يتكون من حركة المعنى، في إيقاع يتطلع فيه النثر إلى رعوية الشعر ويتطلع فيه الشعر إلى أرستقراطية النثر...

في هذه الجملة الأخيرة يتجلى النصد، وبضاء المونولوج الذي يتخلله الغموض بشكل سخي. أرستقراطية النثر... مقابل رعوية الشعر، إنه فهم جمالي يذكرنا بتعريف جورج لوكاتش للرواية باعتبارها ملحمة البرجوازية لكن في أوروبا وحدها... ولأنني أعرف شغف محمود درويش بالنثر، الذي يصفه أحيانا بأنه رحلة برية بالجينز وعلى جواد بلا لجام، فإن ما يسميه أرستقراطية النثر هو تاريخ هذا النوع، الذي لا يزدهر إلا في أزمنة يصبح فيها الإنسان أقرب إلى نفسه، بل يصبح هو نفسه كما يقول الوجوديون الذين شكلت فلسفتهم مظاهرة صاخبة ضد الاستلاب، وضد أن يكون الإنسان سوادا

يضيق الشعر أيضا فيصبح ملاذا وليس منفيا، وقد شعرت بهذا لأول مرة عند محمود درويش عندما قرأت قصيدة أحمد الزعتر قبل ثلاثين عاما، فقد اتسع الشعر في ذلك النص للقادمين من الصناعات الخفيفة، وللحصان الذي ضاع في طريق المطار، ولعبارات ما كان لها أن تندمج في نص شعري لولا فائض الشعرية القادرة على هذه الحمولة. وقد تبدو بعض قصائد محمود درويش بالنسبة لقارئ لا يعرف أوزان الشعر وموسيقاه قصائد نثر، لا بسبب غياب الإيقاع بل بسبب القدرة على إخفائه. وقد يكون هذا هو ما أبقى محمود درويش في نطاق قصيدة التفعيلة، لأنه قال فيها ما هو مرشح كمضمون لقصيدة النثر حسب التعريفات العربية الحديثة، والشاعر الذي يسوس أحصنة قصيدته وأحيانا كلابه ولاقته التي تزيد على الأربعين قد لا يحتاج إلى الكتابة باليد الأخرى.

بعكس الشاعر الذي تسوسه الإيقاعات وتستدرجه نحو افتضاح الغنائية الصوتية المطلقة، لهذا تبدو أدلجة شكل شعري واقتراحه نموذجا بمثابة نذير بالنهاية وليس بشيرا كما يتوهم البعض بالبداية. ونحن في غنى عن التذكير بأمثولات في تاريخ أدلجة الشعر، والغلو المفرط في تطريز أكفانه وتوابيته، ويكفي أن نتذكر بأن أشد غلاة المستقبلية في الشعر التي ظهرت في بدايات القرن الماضي في إيطاليا وروسيا كان بيريلوك الذي انتهى إلى تأليف وصفات في فن الطبخ بخلاف زملائه الأقل تطرفا وغلوا مثل مارتيني الإيطالي ومايكوفسكي الروسي!

ميدوزا الشعر وميداسه!

لأن الأساطير، خصوصا الإغريقية فاضت عن أزمنتها فهي تبدو أحيانا مفاتيح سحرية تدار في أقفال الواقع.

ميدوزا كانت تحول كل ما تنظر إليه إلى حجر، ولو كانت شاعرة لأدرجها النقد العربي الكسول في قائمة شعراء المقاومة، عندما تحول الحجر إلى وثن شعري في الانتفاضة، وكأنه مكتف بذاته كسلاح وليس مجرد رمز.

وثمة سلالة شعرية تفعل ما كانت تفعله ميدوزا بحيث تنظر إلى العشبة فتحولها إلى حجر وإلى الجسد البشري الراعف بالحياة فتحوله إلى تمثال، فالبعض ممن أدركتهم هذه الحرفة، وربما هم الذين أدركوها، يفقرون العالم بدلا من إثرائه، ويتوهمون بأن الشعرية هي تعبير مباشر عن الذات وليست محاولة للهرب منها. كما أجمع على ذلك اثنان متباعدان في كل شيء، هما كيتس الرومانسي و ت. س. إليوت.

إن تحجير الكائنات ليس من صلب هذا النشاط البشري، ولا هو من عوالمه التي تؤبد العابر وتجوهره.. لكن على نحو مضاد لفقه التحجير والتوثين.

إن حجر محمود درويش حتى في نصوصه الشعرية ذات العناوين المكرسة للمقاومة سرعان ما ينبت له جناحان ويتحول إلى حجل. والشاعر لا يبهظ الآخرين بشروط لا يقوون على احتمالها لأنه يبشر بالعادي بديلا للبطل، فالعادي من لحم وعظم. والبطل تجريد لا يقبل اللمس، ولا يترجل من النص أو المعجم إلى التراب.

وفي هذا النص، يصبح المجرد ملموسا بالأصابع، فالعشب عشب ولا شيء آخر، والغزالة غزالة ولا شيء آخر، أما الحب فهو محرر من رومانسيته التي أنتجها فائض المكبوت الجسدي، فلا تضيع حتى حصة النعش على صدر امرأة من نصر يتصبب منه العرق.

نقيض ميدوزا الشعر هو من يحول الحجر إلى كائن حي ينبض، فيضيف إلى الحياة بدلا من أن يفقرها، وهذا كله يعيدنا إلى مفارقة الحضور والغياب، حيث يتجلى الحضور في أقاصي الغياب.

وحين جعل محمود درويش من الزمان مكانا هو بيروت

ومن المكان زمانا هو يوم من أيام آب ١٩٨٢. لم تكن هذه التبادلية مجانية أو تلبية لهوى شعرى يضيق بالمنطق وثنائياته.

ثمة تجربة أعادت الى التفوضى نسقها السرى لكن عبر أداء شعرى يتجاوز بلاغة الأذن ويتعمد كسر القافية خشية أن تتحول إلى فخ يستدرج بطعمه الشهى الأذن الأمية وغير المدربة.

ميداس الشعر من طراز آخر، فهو يلامس الحجر فيحوله إلى ذهب، وكذلك القصدير والتراب، لكنه يموت جوعا فى النهاية غير السعيدة لهذه الأسطورة الباذخة، فالخبز يتمعدن وكذلك الطعام... وحتى الماء..

ميداس الشعر الصافى، على الأقل بالمعنى الذى أراده بول فاليرى، لم يحول محمود درويش النثر شعرا بلمسة ميداسية ساحرة، بل خلق تبادلية موازية لتبادلية الزمان والمكان والحضور والغياب، واخترق الحاجز الوهمى بين أرستقراطية النثر ورعوية الشعر، ما دامت اللغة بكل جمالياتها والوعى بتوظيف مفرداتها تستطيع أحيانا اجتراح تعبير عصى على التصنيف النقدى.



أدرك أن الحلم يبقى أهم من المحلوم به، وأن الإنسان هو الكائن الذى علمه امتياز الضجر أن يبتكر ما هو أبعد دائما.

يقول فى هذا النص ص ٩٢:

ضع قمرا على كل صفصافة، وفتاة على كل نافذة، وغزالا على كل نبع، ودع القصيدة تبنى الجهة الجنوبية من العدم... إن أوجعك المنفى ولم يقتلك.

هنا، يتبدى الهاجس الوجودى لكن عبر غلالة من لغة برية، تليق بحنين وحشى إلى ما يحول العدم إلى شبه جزيرة، بحيث تبقى جهة ما مفتوحة على الأبدية، أو على أى معنى يجعل الحياة جديرة بأن تعاش بدلاً من أن تتحول إلى أحجية.

إن شجرة الصفصاف والنافذة والنبع هى عينات من واقع لا يكتفى بذاته، وإضافة القمر الى الصفصافة والفتاة الى النافذة والغزال إلى النبع ليست مجرد استكمال لشرط شعرى، بل هى الحياة ذاتها وقد أكسبت هذه الأشياء معنى إنسانيا، ولو شئنا المجازفة أكثر لقلنا إن الفن بعامة وليس الشعر فقط هو ما يضيف إلى الشجرة قمرا والنافذة فتاة والنبع غزالا.

وبالعودة إلى موضوعة المنفى، فإن محمود درويش يفهمه على نحو مغاير للشائع الشعرى تماما كما فهم الوطن ذاته على نحو أقل رومانسية وتجريدا من معظم الشعراء الذين تناولوه.

وطنه بسيط، وإنسانى، تتدلى من سقوف بيوته جدائل الثوم، والناس فيه عاديون يحلمون بنهار حر، وظهيرة غير محتلة، وهذا ما عبر عنه فى إحدى قصائده حين قال:

لنصاب بالوطن البسيط وباحتمال الياسمين

والشرط لتحقيق هذه الإصابة هو الذهاب بعيدا وعميقا فى الدم والضحين

وهما العنصران الخالدان اللذان يمثلان طرفى معادلة الوجود: الحرية والضرورة، وكان درويش قد قال فى نص آخر:

إنا نحب الورد، لكنا نحب القمح أكثر.

وحين اقترب أكثر فأكثر من تعريف للوطن يحرره من التجريد، جعل لأحد دواوينه عنوانا بالغ الدلالة هو: ورد أقل...

المنفى إذن هو أيضا مضياف الاختلاف والائتلاف، لكن شكر المنفى، ومديحه بشهامة يشترط عودة المنفى إلى الملكوت، وهو ملكوت مزدوج لأن مثل هذا المديح للمنفى لا يكون إلا تحت الشجرة فى مسقط الرأس، فالوطن زمان أيضا، وهو الصبا المهدور الذى لا يستعاد إلا بالإبداع، تماما كما أن النهر لا يقطع مرتين إلا بسباحة أخرى لا علاقة لها بالجسد ومهاراته فى قطع الأنهار...

إن القراءة البروكوستية المتعسفة لمحمود درويش غالبا ما انتهت إلى بتر ساقى الغزال والإبقاء على صورته خارج الغابة، كنقش على إناء كما قال كيتس.

والتأويل الذى يركن إلى معجم مقرر وسائد يعوق القراءة الحرة، فالمنفى ليس واحدا للجميع... وكذلك الوطن.

إن ما سميته الشعرية الضالة يتجلى فى تعريفات أسرة لثمار وأشجار اختزلها العروضيون والنحاة إلى نشارة خشب، ولنقرأ على التوالى هذه التعريفات التى تعيد الحدائق الداجنة إلى الغابة الأم:

- التفاحة عض الشكل بلا عقوبة المعرفة.
- الأجاصة تهد مثالى التكوين لا يزيد عن راحة اليد ولا ينقص.
- العنب نداء التكثر أن اعتصرنى فى فمك أو فى الجرار.
- التين انفراج الشفتين بإصبعين لتلقى المغنى الايروسى دفعة واحدة.
- التين الشوكى.. دفاع العذراء عن كنزها.
- الكرز اختصار المسافة بين شهوة العينين وصورة الشفتين.
- السفرجل مشاكسة الأنثى للذكر تترك غصة فى حلق الخائب.
- الرمان اختباء الياقوت فى التورية.

إن هذه ليست فواكه الجنة، ولا هى قائمة يسيل لها لعاب الصحراء... إنها أنسنة لما هو معزول قسريا عن الإنسان، وفى حذف الفاصل الوهمى بين وجود ووجود، تكون الشعرية الضالة قد أمسكت طرف الطريق، لكن ليس من أجل السير عليه بل لأداء رقصتها بجلال صلاة وثنية وشبقية ربيع ينبض فيه حتى الرخام!

القصيدة الناقصة

ما من نص مكتمل، وما من خبر يشبع المبتدأ تماما ويحوى الجملة إلى الأبد، يقول درويش فى هذا النص (وتبقى القصيدة ناقصة)، ألهذا يتدفق النثر من الجهة الأخرى، وقد استدعى كاحتياطى تعبيرى؟ أيهما يستجير بتوأمه: الشعر أم النثر؟

تذكرت عندما قرأت جملة (وتبقى القصيدة ناقصة) ما قاله اليوت فى قصيدة أغنية حب للعاشق بروفروك... فقد انتهى إلى رأى حاسم فى الشعر عندما قال: إنه لمن المستحيل أن أعبر عما أريد.

نعرف أن الشعر ليس فى النهاية تعبيرا عما يراد وقد يكون بعكس ذلك تماما، لأنه ينشأ أثناء الكتابة لا قبلها، لكن الضيق الذى يشعر به بعض الشعراء ممن ضاعف التاريخ والوعى حمولاتهم هو ما يدفعهم إلى القفز عن الحدود، وهى حدود وهمية على أية حال، ما دام التظلم قد يكون نقيض الشعر وليس صفته الخالدة.

إن الذبابة الوهمية التى تلمحها العين الكليلة فى النعاس، هى من ابتكار هذه العين، وكذلك الفأر الوهمى الذى يلوح ويختفى فى النص، وقد يكون للقصة جذر واقعى، لكن الفأر يتحول إلى شىء آخر تماما، لعله الترميز اللاواعى لوجود صدوع فى سور البيت أو سياج الذاكرة، انه لمن عانوا مثل هذا الهاجس حالة من تسرب العدم عبر ثقوب الحياة لهذا تتصاعد وتيرة الأسئلة التى لا إجابة عنها على الإطلاق إلى أن تصل ذروة الميتافيزيقا كأن يسأل المؤلف نفسه قبل قارئه لماذا خلق الله الذباب؟ وكان الشاعر كروزانسوم قد أوشك أن يتوقف عن الكتابة عندما سأله عامل فى مزرعته سؤالا مماثلا لهذا!!

إن الاحتراز الذى غالبا ما يدفعنى إلى تغليب الانتشاء على النقد والتحويل وأنا أقرأ كتبا من هذه العائلة قد يكون سببا فى البحث عما يختبئ وراء الكلمات، خصوصا إذا كان مؤلف النص شاعرا شغوفا بالإيحاء، ونازعا على الدوام لإتاحة الفرصة أمام قارئه أن يكون شريكا فى رقصة أو قبلة لا يمكن للفرد أن ينفذها بمفرده إلا إذا أطبق شفتيه على المرايا...

ان نص محمود درويش فى حضرة الغياب دفاع لا تنقصه البسالة عن نثر مفترى عليه، وإعادة اعتبار لشعرية عصية على التدجين فى أسرة أو توابيت، فالشجرة الحالمة بالريح والثلج والأعشاش لا تعيش فى قارورة

والحصان لا يعدو فى غرفة..

إن هذا النص مناسبة تغرى بفتح ملف تقمى طواه الكسل، وحولته الأنباعية إلى مقدس متحفى، وهو آفاق الشعرية وتجلياتها فى الكتابة، فالشكل المقترح للقصيدة سواء كانت عمودية أو تفعيلة أو قصيدة نثر هو أشبه بالتكنات

التي ينتهي عند مداخلها الشعر ليدخل طورا آخر، وكأنه شعر لمجرد أنه نقيض التعريف المدرسي السكولائي للنثر.

يقول درويش ص٣٨ من النص:

وتسأل ما معنى لاجئ: سيقولون هو من اقتلع من أرض الوطن، وتسأل ما معنى كلمة وطن؟ سيقولون هو البيت وشجرة التوت وقن الدجاج وقفير النحل ورائحة الخبز والسماء الأولى... وتسأل: هل تتسع كلمة واحدة من ثلاثة أحرف لكل هذه المحتويات... وتضيق بنا؟

تعيدنا هذه التساؤلات، بل المساءلات المعرفية لهواة الاختزال، إلى زنزانة الشكل، وضيق اللغة، وبدورنا نتساءل: هل تكفي كلمة شعر وأحرفها الثلاثة لكل هذا.. ولنا أيضا؟

وبالقياس ذاته هل تتسع كلمتا حب وحرب لهذا التاريخ المفعم بالتراجيديا حتى أظافره؟

إن للصمت بلاغته أيضا: فهو يتقطر كالكلام من خبرة عميقة: لكنه أيضا له صفة الثرثرة إن كان مجرد موت أو متاخمة للموت، لقد قال حمزاتوف في كتاب ينتمي إلى هذه العائلة التي أنجبت في حضرة الغياب: إنه تعلم الكلام والنطق به في سن الثالثة، لكنه لم يتعلم الصمت ويتقنه إلا بعد الستين من العمر...

الوطن إذن، فائض عن حاصل أي جمع للعناصر سواء كانت التراب والماء.. ورائحة الخبز وقن الدجاج، أو المعابد والمدارس والبيوت والذكريات، تماما كما أن رائحة الوردة ليست جزءا عضويا من نسيجها في التشريح.

وهذا الوعي لدى درويش بمفهوم الوطن مفارق بامتياز لمفهوم يأسر التاريخ كله في ثلاثة أحرف، فالوطن ليس ذكريات أو نوستالجيا تخص الفردوس المفقود: إنه أيضا حنين إلى المستقبل، وأحيانا استذكار لهذا المستقبل فهو فردوس قادم لكن عبر تجليات إنسانية وأرضية، وقد يتبدد العجب إذا قرأنا آلاف النصوص المدججة بكلمات كالحجارة الكريمة تعزل الوطن عن الناس والزنبقة عن الدودة، والحمامة عن الغراب ثم انتهينا إلى أنها تفقر الوطن وتقترض منه بدلا من أن تسلفه وتثريه وتضاعف كائناته ومحتوياته فنيا!

إن الوعي بمختلف أبعاده، حتى الاقتصادي منها ينقذ النص من الرخاوة والهلامية، ويحرره من الأفقية، لهذا لا يمكن لوعي مطابق للسائد أن يجترح نصا مفارقا له.

ما الذي يستطيع الشاعر أن يفعله أمام جرافة التاريخ غير أن يحرس شجر الطرقات القديمة؟ ونبع الماء المرئي وغير المرئي وأن يحمي اللغة من ركاكة التراجع عن خصوصيتها المجازية!

هذه الكلمات التي يقدمها درويش كجملة معترضة في كتاب تضع النقاط الضالة أو المحذوفة على الحروف، فهو يذكرنا بعبارة أثيرة لدى مالارميه، وهي (إن مقاومة الشاعر تبدأ من خندق اللغة حين يقاوم الصدأ الذي يتراكم عليها، وكانت وصية مالارميه هي على الشاعر أن يمحص لغة القبيلة.

يوحي درويش للمرسل إليه بأن الركاكة التي تسوغها أطروحات النقد المداجي والداجن الذي ينافق الواقع بدلا من الاشتباك معه هي في النهاية انحياز لجرافة التاريخ، وليس لمحراثه ومعونه. فالنص الرديء يسيء إلى القضية التي يحتج لها، فيصبح كما لو أنه يحتج عليها، لكن هذا لا بد له من معيار آخر غير الذي رسخه المدرسيون، والذين صدقوا أن الطبشورة بيضاء لأن اللوح أسود!

وثمة على ما يبدو مقتربان لفهم ظاهرة مزمنة في الشعرية العربية، أحدهما يتعهد التضييق والاختزال والقضم، والآخر يتولى التوسيع والتعميق والعافية.

إن وطنا صغيرا يتشكل من حانوت وزقاق وذكريات شاحبة قد لا يصلح وطنا شعريا إلا إذا مهرته الأصابع النازفة بما يجعله بسعة كوكب أو مجرة.

وقد يبدو هذا تعويما لتعريف الأوطان كما حددتها أدبيات المنفى الكلاسيكية، لكنه في حقيقة الأمر إعتاق للوطن من النشيد الضيق، ومن طابور الصباح المدرسي ليصبح مرادفا للحرية، إن لم يكن الحرية ذاتها...

ومن يدري لعل المفاهيم القاصرة للوطن، هي ما أدت إلى تحويله إلى منفى على الأقل في هذه المنطقة العربية التي تسقط فيها العواصم العريقة خلال أيام فقط!

إن محمود درويش ينكأ جرحا غير قابل للاندمال في ثقافتنا: ولديه من الشكوك ما يكفي لتحصينه من اليقين الببغاوي، فالإجابات عن أسئلته قد تقع في جهة خامسة.

لو صدق الشاعر ما قاله الدبلوماسي العربي في السيارة التي هربته من بيروت إلى دمشق عام الاجتياح لكفر باللغة العربية... لكنه كما قال شرق بحروف العلة وكانت المرة التي لم يستطع فيها البكاء، رغم جدارة الواقعة بالنواح ذلك لأن النار والدمع لم يجتمعا في عيني محمود درويش، وهو الخارج للتو من بيروت ليعلن للملأ أن صبرا وشاتيلا هما فضيحة عصرنا حتى الأبد.

إن الذاكرة في هذا النص ليست للنسيان، بقدر ما هي لتقطير أحداث لم يشأ الشاعر سردها على نحو روائي مألوف. فالجراحة الجسدية ومراوغة القلب بين سرير معقمط بطاقة هائلة من الإقبال على الحياة... وطبيب يوشك أن يسدل الستار، والبياض البكر الذي ينبدف في الذاكرة، وصورة الأم وهي تلوح وتختفي، وحوار المطارات في زمن تساقطت فيه الأجنحة كلها وتسلحف حتى صقر الأعالي، لفرط ما فاض عن جاذبية الأرض.. كل هذه الوقائع تتخلى عن برودة السرد والنثرية الوظيفية، كي تلتئم في نسق هو شعري بامتياز، بالمعنى الذي أشرت إليه من قبل وهو عودة الشعرية الضالة إلى الغابة الأم وإلى براري ما قبل رسم التضاريس وخطوط الطول والعرض.

في الطريق إلى رام الله... يتوثب القلب كما يقول صاحبه ككلب الصيد. وتسري قشعريرة الشاعر في أنساغ قارئه غير المحايد، الذي يستشعر نباحا جريحا في صدره..

هنالك، على الجسر الذي لا نهر تحته كما يقول لأن مياهه تعرضت للنهب.

لا يكون الفلسطيني في هذه اللحظة هو نفسه، وقد لا يكون المرء على الإطلاق ما كانه قبل قليل... لأن غزاة الماء واليابسة والهواء يفتشون حتى المسامات بحثا عن عرق مهرب.

اخلع حذاءك، واخلع ساعتك، فك حزامك، وانزع نظارتك، وادخل في الجهاز..

لكأن درويش يوحي للمرسل إليه، بأن خلع الحذاء هو خلع القدمين، ونزع الساعة هو نزع التاريخ، وفك الحزام هو استباحة الجسد ونزع النظارة هو خلع عيني أزرق اليمامة لا زرقاءها هذه المرة....

أما الدخول في الجهاز فهو الدخول إلى كوكب ضاق مثل زنزانة.

ولا يرن في الجهاز غير القلم الفاخر، لهذا يقرر صاحبه الذي كتب به تراجيديا الإغريق الجدد أن لا يحمله... وحقيقة الأمر أن رنينا آخر كان سيدفع الضابط الإسرائيلي لإعادة تفتيش جسد محمود درويش، وهو رنين القلب الذي شهد أربعة عقود على الأقل... ونبض بأضعاف طاقته. وحين غضب منه صاحبه ناداه ذات منفى ساحلي قائلا: أيها القلب الكلب فكف عن الدلال واستجابه لأن الرحلة طالت وقد تطول.. في زمن ندر فيه الشهود والشعراء، يقول درويش ص١٤٢ من هذا النص:

وإن سألوك عن قوة الشعر قل ليس العشب هشا كما نرى، ولا ينكسر منذ آخفى قلبه المتواضع في سر الأرض. وفي العشب على الصخر إعجاز الكلام النازل من غيب، بلا ضجيج وأجراس. العشب نبوءة عضوية لا نبي لها إلا لونها المضاد لليباب، والعشب نجاة المسافر من بشاعة المنظر، ومن جيش يطوق الطريق إلى المكان، والعشب شعر البديهة السلس الممتنع السهل والسهل الممتنع، ودنو اللغة من المعنى واقتران المعنى بضيافة الأمل...

هذه عينة من حبر مصفى، ومن رهان الفراشة على البقاء على قيد اللهب رغم انقراض سادة الغاب حيث ما من قفص للفراشات في حدائق الحيوان رغم أن الضواري تعض القضبان حنينا إلى براريها.

إن رهان محمود درويش الشعري، لا يعتريه ندم، رغم القبح واللزوجة اللذين يتسللان إلى الشعر كما تطن البعوضة على كفل الحصان...

لهذا قطع درويش العمر شعرا، وسيقطع الباقي منه وهو لا يقاس بالتقاويم الصماء شعرا أيضا، غير عابئ بالحد الفاصل بين غزال أبيض وغزالة بلون الحناء...

أيهما فاض عن الآخر؟ شعر رعى سرجه وقطع اللجام وصهل حتى أيقظ الجبل من سباته الكرملي، أم نثر يحاول التحرر من التسمية التي حاولت نزع شعريته من محارات ظنها البحارة المبتدئون حصى؟

الإجابة عن هذا السؤال ممتدة من الفاتحة حتى الختام في نص ضاق عليه قميص النوع الأدبي، فخلعه، وحين قرر أن يعدو خلع الحذاء المدرسي الذي قرره النقد الداجن صفة للصبي المهذب الذي لا يقترب من الخط المرسوم بغبار الطباشير بين شعر وشجر.. كي لا تقول بين شعر ونثر، وبين غزالة درويشية بيضاء وأخرى بلون الحناء!!

قطع درويش
العمر شعرا، وسيقطع
الباقي منه
وهو لا يقاس بالتقاويم
الصماء شعرا
أيضا، غير عابئ بالحد
الفاصل بين
غزال أبيض وغزالة
بلون الحناء



الأدب الفلسطينى إلى العبرية

أيديولوجيا الترجمة!

راحيلا مزراحى

■ تقول راحيلا مزراحى إنها ابنة لعائلة يهودية - عربية، وأنها معادية للصهيونية، وتتمنى عودة المهجرين الفلسطينيين إلى بلادهم التى طردوا منها، كما عادت هى إلى اللغة العربية التى طردت منها والمهجر واحد.

وعما إذا كانت تعد نفسها فلسطينية، قالت: أتمنى ذلك. ولكن تمتعى بكل الامتيازات العنصرية المخصصة لليهود لا يسمح لى. ■

المحرر

■ رفض سمير نقاش، الكاتب العراقى اليهودى، طوال حياته، الكتابة باللغة العبرية. وهو يقول فى مقابلة مع عاميئل ألكالاى (عاميئل إلكالاى، ص ١١٦): «بسبب الأواصر المبالغ فيها بين اللغة والإيديولوجية، يبدو أن شيئا ما فى الغالب منقود فى كثير من النثر العبرى المعاصر: شيئا يجعل من الصعب على الكتاب التعبير عن أنفسهم بطريقة ذاتية بحتة. لا تخاطب أعمالهم الوضع البشرى، بل تنتهى إلى كونها برنامجية (programmatic). أفكر هنا فى أشياء كالألم، والتى لا يتم التعبير عنها بشكل ذاتى بحت ضمن إطار ما يعتبر إجماعا. أعتقد أن العديد من الإسرائيليين نشأوا، وبشكل يكاد يكون حكرا، على ما يسمى «الأدب الصهيونى»، بمعنى الأدب العبرى المعاصر فى مرحلته المبكرة... لهذا السبب أردت أن أتحدث عن كتابتى كنقيض للأدب الإسرائيلى».

يعبر هذا الكلام عن وجهة نظر «نقاش» حيال القصة العبرية المعاصرة، وكونها مقيدة بالإيديولوجية الصهيونية. ولكن هل يمكن استخلاص نتائج أوسع لهذا الكلام حول توجه الكتابة العبرية المعاصرة بشكل عام، بما فى ذلك ترجمة أدب اللغات المختلفة إلى اللغة العبرية؟.

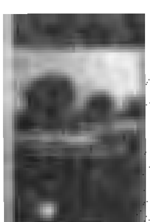
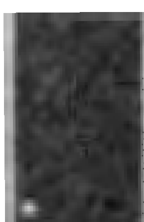
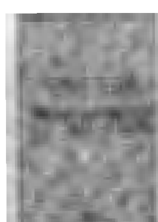
يتناول هذا البحث ترجمة الأدب الفلسطينى إلى العبرية، ويحاول أن يطرح أسئلة عما إذا كان هناك، على حد زعم نقاش، استخدام للغة ذات دلالات صهيونية فى الكلمات والمصطلحات، أو لغة لها ظلال معان ذات دلالات صهيونية فى ترجمات الأدب الفلسطينى إلى اللغة العبرية؟ وإذا صح وجود علامات للمعجم الصهيونى فى تلك الترجمات، فهل هناك اصطدامات دلالية بين اللغتين؟ وما هو تأثير هذه الاصطدامات فى النتاج الأدبى من جهة، أو فى لغة الترجمة للعبرية المعاصرة من جهة أخرى؟.

يشترك فى عمل الترجمة، إضافة إلى الأدباء الأصليين، عاملان على الأقل: المترجم ودار النشر. ومع أن هذا البحث لا يتناول هذين العاملين، وإنما يركز على تحليل لغة النص ذاته ودلالاتها، فإنه تجدر الإشارة إلى هوية المترجمين وهم: الفلسطينيان أنطون شماس[1]، مترجم أدب إميل حبيبى، ومحمد حمزة غنايم[2]، مترجم شعر محمود درويش، والعراقى موشيه حاخام[3]، مترجم رواية باب الشمس لإلياس خورى (تحرير الترجمة: أنطون شماس). نرى هنا حضورا بارزا للمترجمين الفلسطينيين، مقارنة بسنوات سابقة سيطر فيها مترجمون يهود من أصل عربى.

قبل أن أتوجه إلى التحليل أود التنويه إلى أربع قضايا عامة من خارج النص، وتتعلق بالترجمة كمنظومة قوة.

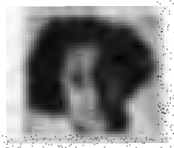
١) قضية الترجمة كوسيلة لمعرفة العدو. الترجمة وسيلة للسيطرة، إذ يوضع النص الأدبى فى مكان معروف سلفا، مكان لا خوف فيه ولا خطر، مكان لا يمكن العبث به. يقول إدون جنتسلر فى هذا الصدد: «كانت الكولونيالية والإمبريالية، ولا زالتا، ممكنتين لا عن طريق القوة العسكرية أو المصلحة الاقتصادية وحدهما، وإنما أيضا عن طريق المعرفة». ولكنه يقول أيضا: «... يمكن أن نستخدم (الترجمة) على يد الخصوم كتجسس مضاد، بهدف التآمر والتمرد».

٢) قضية الترجمة بوصفها عملية تملك للإنتاج الفلسطينى من طرف الثقافة العبرية. فلو أخذنا مثلا «جائزة إسرائيل» التى نالها إميل حبيبى، فيلفت نظرنا قول الناقد السورى صبحى حديدى مناقشا قبول حبيبى إياها عام (١٩٩٢): «إنها تمنح فى إطار الاحتفالات بما تسميه الدولة العبرية عيد الاستقلال، تشديدا على موضوعى البطولة والدفاع فى الجانب العسكرى والقتالى المحض عموما». ثم يقتبس من كلام وزير التربية والثقافة عام (١٩٥٦) ما يلى: «إن ثقافة إسرائيل كانت هادية لنا فى حرب التحرير، والتوراة والشعر العبرى جزءان لا يتجزءان من الأسلحة الفردية لمقاتلينا». وعليه، فإن منح جائزة إسرائيل، أو



أيديولوجيا الترجمة!



أىّ تمويل آخر لإنتاج فني فلسطيني (يدعى أراضي (١٩٤٨)، يسمح لإسرائيل بالقول إن المنتوج إنتاج إسرائيلي.

٣) هل الترجمة عملية تنوير إنسانية متعددة الثقافات، أم ثوب يغطي أفكاراً عكسية؟.

٤) قضية دور النشر: فمثلاً تنتسب دار نشر «سيفريات بوعاليم» (مكتبة العمال) إلى حركة الاستيطان اليسارية الصهيونية «ها-شومير ها-تسائير» (الاستيطان داخل حدود ١٩٤٨)، ودار النشر «عام عوفيد» (شعب عامل) كانت منتسبة إلى تنظيم العمال الصهيوني (الهستدروت)، وصدرت عنهما أعمال إميل حبيبي. «يابل» و«أندلس» داراً نشر خاصتان، وصدرت عنهما أعمال محمود درويش. كما صدرت باب الشمس عن «أندلس» أيضاً. على أي حال، يمنح تمويل الترجمة للممول قاعدة اقتصادية من خلال الامتيازات الاقتصادية التي تأتيه دائماً على خلفية حجبها عن الإنسان الفلسطيني. وعليه، فإن كل ترجمة على يد إسرائيلي لإنتاج فلسطيني، أو كل بحث إسرائيلي في الإنتاج الفلسطيني، يستبطن ضمنه عملية تملك... بما في ذلك البحث الذي بين أيديكم!.

ينتمي هذا البحث إلى المنهج الأدبي، محاولاً فحص العلامات اللغوية ودلالاتها الثقافية في اللغة العبرية. ولا أتناول هنا عجز اللغة العبرية عن ترجمة مصطلحات من اللغة العربية، ولا كيفية الترجمة، وإنما أتناول عجز المعجم العبري المعاصر عن التخلص مما حددته له الإطار الإيديولوجي الصهيوني من المعاني وظلال المعاني.

في الجزء الأول سأبحث عن هذه العلامات في ترجمات الأدب الفلسطيني، مركّزة على ترجمات أعمال محمود درويش الشعرية الجديدة، ورواية (باب الشمس) للكاتب اللبناني إلياس خوري[4] وروايات إميل حبيبي الثلاث. وسأصنف هذه العلامات إلى أربعة مستويات أو نماذج:

١) علامات ذات صراع مكشوف ومعلن

٢) مصطلحات مقيدة بالخطاب الصهيوني بشكل غير مباشر

٣) علامات ما وراء النص (subtext).

٤) مبان نموذجية للعبرية الأوروبية الأشكنازية الصهيونية التي تكتب من الشمال إلى اليمين»[5] كما يقول أنطون شماس، بدل العبرية الشرقية المستقاة من العربية.

في الجزء الثاني من هذا البحث سأتطرق إلى تحليل النتائج، وسأبحث تأثير اصطدام نتاجات درويش وحبيبي وخوري في النتاج الأدبي أو اللغة العبرية.

العلامات

أ) مصطلحات عليها صراع مكشوف ومعلن

فلنأخذ مصطلحاً أساسياً في الفكر الصهيوني، وله أيضاً أهمية سياسية بالغة، خاصة على المستوى الدولي، وهو مصطلح «الضحية». يكتب درويش في المجموعة الشعرية (حالة حصار):

«(إلى قاتل): لو تأملت
وجه الضحية
وفكرت، كنت تذكرت أمك
في غرفة
الغاز، كنت تحررت من
حكمة البندقية
وغيرت رأيك: ما هكذا
تستعاد الهوية!».



هنا يحاول المتكلم محاورة القاتل الإسرائيلي، طالباً منه تأمل وجه الضحية («هكوربان» بالعبرية) الفلسطيني، فيتوقف القاتل - نتيجة لذكرى ضحايا «المحرقة» - عن استعمال العنف والقمع ضد الضحية الفلسطينية. ولكنني أعتقد أن الإسرائيلي، عندما يتأمل وجه الضحية الفلسطيني، لا يستطيع إلا أن يلجأ إلى الخطاب الذي يقول العكس تماماً وهو: إذا لم أستعمل القوة فسيصبح مصيري مصير الضحية. فالحال أن ربط «المحرقة» بالمأساة الفلسطينية داخل المجتمع الإسرائيلي قد يؤكد الحاجة إلى القوة ضد العدو، سواء أكان هذا العدو ألمانياً أم أوروبياً، أم عربياً، أم فلسطينياً بالتحديد.

فالحق أن مصطلح «الضحية» في الإطار الصهيوني «محجوز» لليهودي، وتنبع منه امتيازات سياسية كثيرة، خاصة من جانب أوروبا ما بعد «المحرقة». وحتى إذا وافق القارئ الإسرائيلي على مصطلح «الضحية الفلسطيني» فإن اليهودي دائم الشعور بأنه هو الأكثر ضحية، ودائم الشعور بأن تهجير الفلسطيني والاحتلال الإسرائيلي بكل ما يتضمناه من عنف وقتل لا يساويان إطلاقاً إبادة ستة ملايين يهودي. من هنا أعتقد أن هذا التصادم المباشر عند القارئ الإسرائيلي يؤدي إلى تأكيد خطاب المحرقة الصهيوني. وحتى لو وافق القارئ الإسرائيلي على منطق درويش، فسيشعر دوماً بأن المحرقة أكبر من النكبة، وأنه إن لم يكن قوياً فسيتحول إلى ضحية.

وعلى الجانب الثاني من الضحية، هناك «المقاتل». تستعمل الترجمة العبرية لكتاب إلياس خوري، باب الشمس، كلمة «لوخيم/ لوخاميم»، وهي المفردة التي كانت سابقاً مخصصة للجندي الإسرائيلي. ونجد هذا المصطلح كثيراً في الكتاب، وخاصة في وصف شخصية البطل الجذاب يونس. ومع أن في المعجم الإسرائيلي مصطلحات سلبية تستعملها الصحافة الإسرائيلية مثل «فدائيون» و«مخابيل» (إرهابي)، فإن كلمة «لوخيم» طبيعية ومقبولة لدى القارئ الإسرائيلي في كل سياقاتها في الرواية. وربما يعود ذلك، من جهة، إلى تضامن القارئ مع البطل الجذاب يونس، ويعود من جهة أخرى إلى تراجع موقع المقاتل الإسرائيلي في المجتمع الإسرائيلي في الثمانينيات مقارنة بموقعه بعد عام (١٩٦٧) بسبب عدم الإجماع داخل المجتمع الإسرائيلي على مسألة الأراضي التي احتلتها وكذلك إزاء حرب لبنان. ويعلق خوري مباشرة على قضية الاستخدام الإسرائيلي لمصطلح إرهابي «مخابيل» («المخربون») مع الاقتراب من نهاية الرواية، ولكنه استطاع تفكيك هذا المصطلح وتبديله بمصطلح «لوخيم» للقارئ الإسرائيلي خلال الرواية.

في ترجمة المتشائل لإميل حبيبي نرى في كلمة «الدولة» تصادماً «جاحظياً» ذا وجهين: جد وهزل. فحين يدخل سعيد مدينة حيفا، يقول سائق سيارة الجيش: «أهلاً وسهلاً في مدينة إسرائيل»، فيعتقد سعيد أن مدينته الحبيبة حيفا قد أصبحت إسرائيل، ولكن كلمة «مدينة» العبرية تعني «دولة» بالعربية! ويكتشف سعيد ذلك في ما بعد، وهذا اكتشاف مضحك بسبب سوء التفاهم، ولكنه كئيب لأن فلسطين كلها (لا حيفا وحدها) قد ضاعت. وأعتقد أن الجد والهزل كليهما يخلق لدى القارئ العبري شعوراً بالتضامن مع البطل. فكلاهما يكتشف هنا الهوة أو الثغرة المؤلمة بين اللغتين (بالنسبة لبطل الرواية شعبه، وأيضاً للقارئ الذي يتضامن مع البطل).

ب) مصطلحات مقيدة بالخطاب الصهيوني بشكل غير مباشر

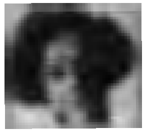
يكتب درويش في حالة حصار:

«(إلى شاعر): كلما غاب عنك الغياب
تورطت في عزلة الآلهة
فكن «ذات» موضعك التائهة
و«موضوع» ذاتك،
كن حاضراً في الغياب».

ترجمت كلمة «غياب» إلى «نيعكادوت». غير أن لهذه الكلمة علاقة بتركيب هام عند «عرب ٤٨» هو «نوخاحيم-نيفكاديم»، أي الحاضرون-الغائبون. والمقصود بهؤلاء هم الفلسطينيون الذين هجروا خلال حرب (١٩٤٨) وعادوا ولكن السلطات الإسرائيلية لم تعترف بوجودهم. وكان محمود درويش في طفولته «حاضراً-غائباً» وفق السلطات الإسرائيلية. وأعتقد أن غنايم اختار هذا العنوان لأنه يشعر أيضاً كالحاضر-الغائب في الثقافة الأخرى، أي الثقافة العبرية التي نجهله (الحاضر-الغائب في الثقافات الأخرى. الكرمل ٦٠/ ٢١١، ٢٢٦).

وإضافة إلى أن كلمة «نفكادوت» تعني «الغياب» على نحو عام، فإنها تعني شيئاً محدداً أيضاً في الواقع الإسرائيلي: وهو غياب جندي بشكل غير متوقع من الجيش بسبب تهربه من «الواجب الوطني». والواقع أن تلك الكلمة تنطبق بشكل نموذجي على حالة الجنود الفقراء اليهود من أصل عربي الذين لا ينجحون في الوجود في إطار عسكري لأسباب اجتماعية وثقافية وشخصية. ويبدو أن هذا المعنى قوي عند القارئ الإسرائيلي الذي يعيش في مجتمع يشكل الجيش فيه جزءاً من حياة كل فرد. هكذا تدخل هنا، بسبب كلمة «نفكادوت»، مسألتان خارجيتان لا علاقة لهما بالقصيدة - العسكر وقضية اليهود الشرقيين - فتحرفان التجربة الشعرية.

في (باب الشمس) يروي إلياس خوري قصة ولادة «ناجي»، الذي قابلته أم حسن في «الرحلة الأخيرة» وأسمته كذلك. ويأتي خوري بنقطة لإنهاء الجملة. أما في الترجمة فيأتي المترجم بفاصلة ويضيف ترجمة عبرية للاسم: «وأسمته ناجي، يعني ها-نيتسول». غير أن كلمة «نيتسول» مركزية في خطاب المحرقة اليهودية! وليس هناك فرق أن تأتي الكلمة وحدها أو كجزء من الإضافة



«فيتسول-شواه» (ناجي (من) كارثة). حتى يمكن القول إنّ كلمة «نيتسول» وخاصةً عندما تأتي مع «ها» التعريف أو بصيغة الجمع «ها-نيتسوليم»، أصبحت وافرةَ الوجود. وإذا قيل عن شخص إنه «نيتسول»، فلا شك أنّه ناجٍ (من المحرقة)، وعلى هذا النحو تأتي هذه الكلمة (ناجي = «نيتسول») في ذهن القارئ الإسرائيلي. المشكلة هي أنّه إذا لم يُضِف المترجم التفسير، فلن يَعلَم القارئُ معنى الكلمة. ولكنّ الفخ هو أنّ إضافة التفسير الأصحّ للكلمة تثير فوراً مسألةَ المحرقة. فهل يمكن هنا استعمالُ ما يسمّى في نظرية الترجمة بدرجة صفر في الترجمة، (zero-translation)، أي عدم الترجمة؟ ربما!.

ج) علامات ما وراء النص (subtext).

سنبحث الآن إحدى العلامات المثيرة في ترجمة لماذا تركت الحصان وحيداً إلى العبرية، وهي في نظري ترجمةٌ استطاعت نقل التجربة الشعرية ومثالٌ جيد على إشكالية قضية هذا البحث. يقول درويش:

أمي تعدُّ أصابعي العشرين عن بُعدٍ

تمشطني بخصلةِ شعرها الذهبي.

تَبْحث

في ثيابي الداخلية عن نساءٍ

أجنبياتٍ

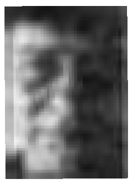
وترفو جوربي المقطوع . . .

فكيف تُرجم تركيب «ثياب داخلية»؟ هناك التعبير العبري الشائع «تاختونيم فيفوفييا»، الموجود في سياق كوميدي وفي التشاتل، ولكنّه تعبيرٌ خشنٌ ومضحكٌ لا يناسب هذه القصيدة. وأما كلمة «ليفانيم»، وتعني «بيض»، فبدت ملائمةً لأنها نظيفةٌ ورقيعة.

ولكنّ في قراءة مجدّدة، ظهرت ظلالُ معانٍ لهذه الكلمة، فأنا أعتقد أنّ كلمة «ليفانيم» استُعملتْ خاصةً في «بيوت الأولاد» في «الكيبوتسات»، بل يمكن إرجاعُ أصلها إلى هناك. وكان «بيت الأولاد» هو البيت الذي نشأ فيه الولدُ منذ ولادته وسط عشرين إلى ثلاثين ولداً وبنتاً آخرين. وهكذا أخذتْ تجربةُ الشاعر الفلسطيني ظلالَ لغةِ الكيبوتس، الذي هو مشروعُ الاستيطان الصهيوني. وهذا اصطدام قد يخرّب التجربة الشعرية الفلسطينية.

في باب الشمس يقول خليل ليونس: «قلتَ إنني أردتُ جثتك... كأنّه لسان آخر يعيش معي، يقفز من داخلي، ويجعلني قادراً على القتل وتدمير كل شيء». في النسخة العبرية تُرجمتْ عبارةُ «القتل وتدمير كل شيء» بتعبيرٍ جاهزٍ يُستخدم عاماً بعد عام في خطابات «يوم المحرقة»، وهو: «ليرتزواخ ليأبيد أوليهاشميد». بيدَ أنّ ثمة تغييراً بسيطاً في هذا التعبير الجاهز لم يُلحظ تقريباً «ليرتزواخ ليأبيد أولاهاروس»، مع أنّ هذا التغيير في التعبير يثير فوراً عند القارئ الإسرائيلي السياقَ المقتصرَ على «المحرقة». وهنا يُطرح السؤال: لماذا استعمل المترجمُ هذا التعبيرَ المحصور بخطابات يوم المحرقة بشكلٍ خاص، مع أنّه لم تكن ثمة حاجةٌ ملحّة إلى ذلك الاستعمال؟!

في سرايا بنت الغول يذكر إميل حبيبي «...الصنوبر الأبكم الأصمّ». ويقول إن «تكلّم صنوبر الكرمل . . نواح كلب سائب على قمر...». المعلوم أنّ أشجار الصنوبر في الخطاب الفلسطيني هي التي تُحجب القرى المهجّرةَ عن العيون. وأما «أشجار الصنوبر» عند الإسرائيلي العادي والجاهل لظلال المعاني فتذكّره بغابات مؤسّسة «كيرين كايميت ليسرائيل». ولكنْ إذا كان القارئ الإسرائيلي واعياً فقد يَعلم أنّ «كيرين كايميت ليسرائيل» هي «المؤسسة الصهيونية لغرس الغابات في البلاد غير المأهولة». وقد يعرف قصة غابات الصنوبر التي تغطّي القرى المهجَّرة بفضل القصة المشهورة للكاتب الإسرائيلي المعروف أ ب يهوشوع بعنوان (أمام الغابات) (صدرت عام ١٩٦٣ وتناقش هذا الموضوع)(٦).



إذن، القارئ الإسرائيلي العادي لن يحسّ بأيّ اصطدام في المعاني. وأما القارئ الواعي العالم بقضية غابات الصنوبر فقد يجد اصطداماً يَنْتج عنه اعتراضُه على النص أو قبوله به.

استعمال مبانٍ نموذجية للعبرية الأوروبية

سيكون هذا الجزء تجريبياً إلى حدٍّ ما، وسأحاول أن أطرح فيه عاملاً أعتقد أن له أهمية بالغة عندما نبحث العلاقات بين اللغتين: العربية والعبرية، وهو التمييز بين اللغة العبرية الرسمية المعاصرة ذات السمات الأوروبية التي نشأت مع الحركة الصهيونية ومن أجلها، والعبرية التي تستقي من اللغة العربية والتي يستعملها اليهود الشرقيون وهي قريبة من العربية بالمبنى النحوي وبالمعجم. أعتقد أن العبرية الأوروبية الأشكينازية الصهيونية تصطدم بقوة مع كل ما هو عربي حين تنسجم العبرية العربية، أو الشرقية أن مع العربية. لطرح هذه القضية في مجال الشعر سأستعين بمجموعة للشعر الديني المعاصر ليهود الشرق تحتوي على حوالي (٧٠٠) نشيد معاصر نُظمت بالعبرية الشرقية لألحان عربية خلال النصف الثاني للقرن العشرين. لطرح هذه القضية في مجال القصة سأستعين بترجمة كتاب سمير نقاش (يوم حبلت وأجهضت الدنيا). ترجمت هذا الكتاب أخت الكاتب روت نقاش، التي تتكلم العبرية الأوروبية ولكن هذه أساساً ترجمة الكاتب ذاته. لقد ترجمه سمير نقاش شفوياً وكتبت ترجمته أخته بسبب عدم معرفتها قراءة اللغة العربية ويمكن لأسباب أخرى. مع أنه في الكتاب أجزاء في اللغة العبرية الأوروبية واضح أن اللغة المسيطرة هي اللغة العبرية الشرقية المستقاة من اللغة العربية بالمعجم بالنحو وبالأسلوب.

يستخدم المترجمون الثلاثة، أساساً، مباني نموذجية للعبرية الأوروبية الأشكينازية الصهيونية التي «تُكتب من الشمال إلى اليمين» كما يقول أنطون شمّاس، وليس العبرية الشرقية.

سأستعين بمثال من ترجمة جديدة لتفسير هذه القضية في الشعر. يكتب طه محمد علي في القصيدة (نبيذ أمسيات الأحزان المعتقة. ترجمة: أنطون شماس):

في المساء يكبر الحزنْ

يترعرع مع كلِّ نفَس

ينشط مع كل ذكرى

ومع كل نوبة حنين

يربو ويزدهر.

تمت ترجمة «يربو ويزدهر» إلى (يلافليف لو فيفراح) «يربو له ويزدهر»، «لو» هي كلمة حشو.

نلقي الآن نظرة على أغنية مأخوذة من مجموعة للشعر الديني المعاصر ليهود الشرق أغنية «يفراح ويربى» يعني (يزدهر ويربو) للحن أغنية إفرح يا قلبي لمحمد عبد الوهاب:

يزدهر ويربو شعب كريم

كسمك البحر يربو حبيب

رب اشفِ قلبي اسمح لي

اغدق علي بحسناتك

جمّع شعبك داخل حدودي

كسمك البحر يربو حبيب

ساعد أيها الرحمن شعباً وحيداً

لأنه بدونك ليس له صديق

ابعث له ملك بن داود

كسمك البحر يربو حبيب

نرى أن اللغة مختلفة تماماً. «لو» (= له) التي استُعملت في ترجمة قصيدة طه محمد علي كلمة حشو وكانت كناية تعود إلى (الحزن)، وهو الفاعل تكون هنا كناية تعود إلى المفعول به. استعمال كلمة (لو) ككلمة حشو تعود إلى الفاعل نموذجي لأغان إسرائيلية صهيونية التي تستعمل العبرية الأوروبية(٧). التركيب يزدهر ويربو ترجم هناك تتركيب مأخوذ من أسلوب الأغنية الوطنية الإسرائيلية: «يلافليف لو فيفراح». وهنا في القصيدة الدينية مترجم إلى التركيب «يفراح ويربى». لا توجد كلمة «يربى» في هذه الدلالة في العبرية المعاصرة، ولكنها متوافرة جداً في مجموعة للشعر الديني المعاصر ليهود الشرق. كذلك تتوافر كلمات ليست موجودة في معجم الشعر العبري المعاصر: «يا» و«قلبي» و«حبيب» و«حسين»، كلمات غريبة عن اللغة العبرية المعاصرة وحتى محتقرة في الشعر العبري المعاصر، ولكنها مشتركة بين اللغتين. مع أن المضامين لهذا النشيد دينية وحتى شبه قومية، تكون اللغة ذات أسلوب نحوي ومعجمي بعيد عن اللغة العبرية المعاصرة الأوروبية الصهيونية.

نجد في ترجمة شعر محمود درويش (سرير الغريبة: تدبير منزلي) التعبيرات التالية:

هل نحن ننجو نجاة الغبار من

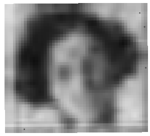
النهر. مَن كان فينا الضحية فليحلم

الآن أكثرَ من غيره. بيننا.

فليحلم الآن ترجم إلى «شياخلوم لو اخشاف» (فليحلم له الآن) «لو» هي كلمة حشو.

نرى أن كلمة «لو» كما في ترجمة قصيدة طه محمد علي هي كلمة حشو وكناية عائدة إلى الفاعل كما هي في الأغاني الوطنية الصهيونية.

أيديولوجيا الترجمة!



سأستعين بأمثال من ترجمة كتاب سمير نقاش (يوم حبلت وأجهضت الدنيا) لتفسير القضية في مجال القصة. نجد في ترجمة نقاش ميلاً لاستخدام الضمائر المتصلة أو المستترة كما نجد في اللغة العربية ومحاولة بارزة لعدم استخدام الضمائر المنفصلة:

ترجم نقاش: «لم يتحقق وعندما يتحقق»، وليس كما هو مألوف في العبرية الأوروبية: «لم يتحقق وعندما هو يتحقق: (لوء هتغشيم قودم لخن وكاءشير (هو) هتغشيم).

ترجم نقاش: «ذكرني»، وليس كما هو مألوف في العبرية الأوروبية: «هو ذكرني» ((هو) هيزكير لي).

ترجم نقاش: «كانوا يقولون عنهم (متواضعون)»، وليس كما هو مألوف في العبرية الأوروبية: «كانوا يقولون عنهم أنهم متواضعون» (ناهاغو لومار عليهم (شهم) صنوعيم).

على حين نجد في ترجمة خوري استخداماً مبالغاً في الضمائر المنفصلة كما تجد في اللغة الإنجليزية:

تُرجم: «ولكن أنا أردت ألا تموت» (but I wanted)، بدلاً من: «ولكن أردت ألا تموت» (باب الشمس) (أفال أني راتسيتي شلو تاموت).

تُرجم: «هو قال أنه سعيد» (He told that he is happy)، بدلاً من: «قال إنه سعيد» (باب الشمس) (هو أمار شيهو ميؤوشار).

في باب الشمس، تُرجم: «أنا لا أعلم متى» (I do not know when)، بدلاً من: «لا أعلم متى» (أني لوء يوديا ماتاي).

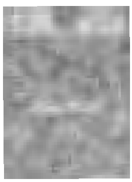
لم يستخدم نقاش بتاتاً التركيب «أنا لا» = «أني لوء» (أنا لا، وأيضاً: هي لا، هو لا، هم لا، هن لا) وإنما كلمة لست «إيتني، إيتي» (لست، وأيضاً: ليس، ليست)، على حين تجد في ترجمة خوري استخداماً مبالغاً لـ(أنا لا) وهي ترجمة مباشرة للتركيب الإنجليزي (I am not) وهو شائع أيضاً في اللغة اليومية المعاصرة. مثلاً:

في (باب الشمس): «البيوت لا مهدمة» (بدلاً: البيوت ليست مهدمة) (ها-باتيم لوء هاروسيم) بدلاً من: (ها-باتيم أينام هاروسيم).

في (باب الشمس): «أنت لا من عين زيتون» (بدلاً من: لست من عين زيتون): (أتا لوء ميعين زيتون) بدلاً من: (أينخا ميعين زيتون).

ومن ناحية الأسلوب، إذا استخدمت ترجمة نقاش التركيب «شرب القهوة» فتستخدم ترجمة خوري التركيب «(شرب) كأس القهوة» (كوس كافيه)، وهو تركيب شائع في اللغة العبرية المعاصرة وترجمة مباشرة للتركيب الإنجليزي (drink a cup of coffee). يبدو أسلوب الترجمة نموذجياً للغة العبرية الأشكينازية.

نجد في ترجمات أدب إميل حبيبي سيطرة نفس الميل إلى استخدام اللغة الأشكينازية ولكن هناك أمثلة لاستخدام تعابير من اللغة العبرية الشرقية. مثلاً (اخطية): في وصف أسلوب كلام امرأة يهودية من سكان طبريا الأصليين: قالت الطبرية: «كانوا يلبسون الأولاد لهم . . .» بدلاً «هم كانوا يلبسوا».



أدعي أن ترجمات الأدب العربي بما في ذلك الأدب الفلسطيني، بل الأدب الفلسطيني تحديداً، تحاول أن تبتعد عن العبرية الشرقية، اللغة العبرية التي تستقي من اللغة العربية وما في ذلك من السمات العربية داخل هذه العبرية. هناك جهود كبيرة في ترجمة النص إلى اللغة العبرية الأشكنازية اللا-شرقية إلى الحد الأقصى محاولة جذب القارئ الأشكينازي. وإذا استعرنا مصطلحاً معاصراً: هناك بناء جدار فصل رفيع بين اللغتين، وقطع تام للخيوط بين اللغتين التي عبرت من خلال اللغة العبرية الشرقية. وهذا الابتعاد يبرز خاصة في ترجمة (باب الشمس) أو في ترجمات داري الشعر (بابل) و(أندلس). أو في الترجمات المتأخرة، ولا أدري إذا كان ذلك بسبب المادة (الأبنية الأصلية أو بسبب دور النشر أو بسبب اختفاء هذه اللغة مع السنين عند المثقفين، أو بسبب الفترة وما فيها من التطورات السياسية. ولربما السبب هو أن جمهور الهدف هو (أشكينازي) أساساً يحتقر هذه اللغة، ودور النشر تحاوره فقط. وأعتقد أن هناك أيضاً ميلاً واضحاً للابتعاد عن العبرية الشرقية في ترجمة الشعر بشكل عام، واتجاهاً إلى اللغة العبرية اللا-شرقية. وها هي اللغة العبرية الشرقية التي يحاول العودة إليها في السنوات الأخيرة شعراء من أبناء اليهود العرب (الميزراحيم شعراء مثل ألمز بيتون، جيبية بداليا، ساسي شالوم شطريت وآخرون) كعملية احتجاج سياسية.

تأثير الاصطدام الدلالي في النتاج الأدبي في اللغة العبرية

١) محمود درويش

ترى أن ترجمة شعر محمود درويش إلى اللغة العبرية تسبب تصادماً عنيفاً يفتت التجربة والمتعة الشعرية ويفكك الخطاب الفلسطيني. يمكن القول إنه نادرة هي المرات التي تنجح فيها الترجمة في تفكيك المصطلح الصهيوني أو حتى التعايش معه. في أغلب الأحيان تفتت اللغة العبرية المتعة الشعرية وتفكك الخطاب الفلسطيني ويبدو ألا مفر من هذه الاصطدامات، وحتى إمكانية الحصر ترجمة، التي يمكن استعمالها في ترجمة النثر، يصعب استعمالها في ترجمة الشعر.

٢) إلياس خوري

يمكن تقسيم قضية تأثير الاصطدام الدلالي في النتاج الأدبي في (باب الشمس) إلى قسمين: عندما يتناول الكاتب مصطلحات متعلقة بالمحرقة يمكن القول إنها نادرة المرات التي تنجح فيها الترجمة في تفكيك المصطلح الصهيوني، في أغلب الأحيان يتكئ المحرقة الخطاب الفلسطيني.

عندما يتناول إلياس خوري مصطلحات غير متعلقة بالمحرقة، وإنما بالنضال الفلسطيني يمكن القول إنها نادرة المرات التي ينجح فيها المصطلح الصهيوني في تفكيك الخطاب الفلسطيني. ويبدو أن قبول القارئ العبري للمصطلحات المتعلقة بالنضال الفلسطيني ينبع أساساً من تضامن القارئ مع البطل يونس ونضاله.

٣) إميل حبيبي

لم تنجح ترجمة كتب إميل حبيبي في التخلص من التأثير الصهيوني للعلامات فقط وإنما يتغلب عليها بسهولة. ويفكك نتاج حبيبي المعجم الصهيوني.

وحتى هناك حالات تفكك الترجمة الخطاب الصهيوني للمحرقة.

من أين ينبع نجاح ترجمة نتاج إميل حبيبي؟ من الأسلوب الساخر؟ من الجهود المباشرة لتفكيك هذه المصطلحات؟ من كون هذه الاصطدامات جزءاً «طبيعياً» من الحياة اليومية لحبيبي وللمترجم؟

علامات المعجم الصهيوني

إذا حاولت الإجابة عن السؤال الأول من هذا البحث فهناك استخدام واضح للغة ذات دلالة صهيونية في الكلمات والمصطلحات وفي المعاني وظلال المعاني وحتى في المبنى. وهناك علامات كثيفة للمعجم الصهيوني في ترجمات الأدب الفلسطيني إلى العبرية. ربما هذه نتيجة كون اللغة العبرية المعاصرة مقيدة بالخطاب الصهيوني بشكل عام، وربما كثافة وجود هذه العلامات تشبه كثافتها في أدب آخر باللغة العبرية وإن كان عبرياً أو مترجماً، ولكن العلامات في الترجمة من الأدب الفلسطيني بارزة جداً. إن اللغة العبرية في ترجمات الأدب الفلسطيني إلى العبرية مقيدة بالمعجم الإسرائيلي الصهيوني.

هذه العلامات في الترجمة من الأدب الفلسطيني يمكن أن تبرز بسبب الاصطدامات الدلالية، وحتى اصطدامات دلالية عنيفة في حالات، بين الكلمات والمصطلحات والمعاني وظلال المعاني كما تظهر في ترجمة الأدب الفلسطيني، وكما توجد في مفاهيم القارئ الإسرائيلي الذي نشأ من خلال جهاز التربية ووسائل الإعلام الإسرائيلية.

يبدو من الجزء الثاني لهذا البحث أن تأثير الاصطدامات الدلالية في كثير من الحالات تصيب المعنى الأصلي الفلسطيني من خلال التجربة الأدبية ومن خلال المضامين. وإذا رجعنا إلى كلام سمير نقاش الذي يفكر في أشياء كالألم، فيبدو لنا أن خطاب المحرقة هو الأصعب للتفكيك، ويفكك تقريباً كل محاولة لطرح الفلسطيني كضحية وعرض النكبة الفلسطينية وعرض الإسرائيلي كمحتلها.

نجاح ترجمات أدب إميل حبيبي في تفكيك المعجم الصهيوني يبرز ربما لأسباب متعلقة بماهية النص: الأسلوب الساخر، الجهود المباشرة لتفكيك المصطلحات، وربما لكون هذه الاصطدامات ومواجهتها جزءاً طبيعياً من حياة إميل حبيبي اليومية.

أيديولوجيا الترجمة!



يبرز التفكيك التام تقريباً الذي تسببه قيود المعجم الصهيوني لشعر محمود درويش. هل يكون التفكيك بسبب ترجمة فاشلة؟. لا أعتقد. عندما حاولت استبدال كلمات مصطدمة وجدت أنه ليس هناك كلمة أكثر ملاءمة إن كان ذلك في ترجمة كلمات مثل (شهيد) أو (ضحية) أو حتى في كلمات «عادية» كما في الترجمة المتميزة لقصيدة (تعاليم حرية) ترجمت فيها كلمة ثياب داخلية إلى «ليغاتيم»، أو حتى في ترجمة الاقتباس من سفر (الجامعة) في التوراة: «كل نهر سيشربه البحر» إلى القول العبري الأصلي من التوراة. ومن هنا أعتقد أن أسباب التفكيك متعلقة هنا أيضاً بماهية النص: كونه شعراً، يطرح الخطاب الفلسطيني من خلال التجربة الفلسطينية، ويستهدف أساساً تكوين التجربة الفلسطينية.

نجد في رواية (باب الشمس) حالة معقدة فيها نجاح انتقال خطاب النضال الفلسطيني وفيها نجاح تفكيك المصطلحات الصهيونية المتعلقة بالمناضل الفلسطيني وحتى نجاح تفكيك المصطلحات الصهيونية المتعلقة بالمقاتل الإسرائيلي. ولكن الترجمة فشلت عندما حاولت استخدام مصطلحات متعلقة بالمحرقة استخداماً مبالغاً فيه. ولكن إلياس خوري نجح في طرح الفلسطيني الضحية في سياق مجزرة صبرا وشاتيلا أساساً، ربما لصداها الواسع في أوساط الجمهور الإسرائيلي، ولأن كثيرين من الإسرائيليين يعتبرون أن المجزرة ليس بالضبط من أعمال الإسرائيليين وأسباب أخرى طرحتها آنفاً. توجد هنا حالة غريبة، يكون فيها الفلسطيني مضطهد ولكن لم يكن دائماً من الواضح تماماً من المضطهِد؟.

أستطيع القول إن انطباعي العام من خلال هذا البحث هو أن الأدب الفلسطيني خاسر كثيراً في الترجمة للعبرية من حيث التجربة الأدبية ومن حيث المضامين ومن هنا من حيث إمكانية التعبير السياسي، فإن القيود الصهيونية للغة في أغلب الأحيان تسبب تفكيك التجربة الأدبية والمضامين والتعبير السياسي الفلسطيني.

يقول دوغلاس روبنسون في مقاله (Dis) Abusing Translation, P. ١٣٢) مقتبساً فيليبا لويس محاولة تفسير المصطلح استغلال في سياق الترجمة، خارجاً في ذلك الخيوط النظرية: «(...) الاستغلال هو بشكل نمطي تأثير الضرر الجسدي أو النفسي في شيء آخر حي/ abuse is typically the (...) influencing of physically or psychological damage on another living thing».

ويتساءل دوغلاس روبنسون في ما يلي من المستغل؟: «(...) من المستغل؟ المؤلف صاحب لغة الأصل، النص، الثقافة؟ المؤلف صاحب اللغة المستهدفة، النص، الثقافة؟ كلاهما. أم بعض الدمج للجوانب المختلفة من الاثنين».

يبدو أنه كان لدى المترجمين شماس وغنايم (وربما موشيه حاخام أيضاً) حافزاً قوياً لتعبير الخطاب الفلسطيني سياسياً وتقديم نتاج أدبي رفيع، ولكن آلية القوة التي تقيد اللغة العبرية المعاصرة بالمعجم الصهيوني قد انحرفت أو حتى قلبت نوايا المترجمين في حالات كثيرة، ولأسباب تتعلق أساساً بلقاء بين ماهية النص ذاته واللغة العبرية المعاصرة، المختزلة في إطار إيديولوجي ضيق.



ربما يجب أن يكون هذا السؤال أوسع، في سياق ترجمة أدب فلسطيني إلى اللغة العبرية:

من المستغل؟ المؤلف صاحب لغة الأصل، النص، الثقافة، المترجم؟.

ربما سؤال استغلال المترجم هو جزء من سؤال استغلال ثقافة المصدر.

يقول شمعون بلاص في مقابلة أجراها معه محمد حمزة غنايم: «النقد الأكاديمي العبري يتعامل مع الترجمات الأدبية العربية كوسيلة لمعرفة المجتمع العربي وثقافته وأفكاره. لا أكثر. وهو لم يهتم بمعرفة النص الإبداعي، قدر اهتمامه بمعرفة الشخصيات التي يقدمها، والمجتمع الذي يقف وراءها. حاول النقد الأكاديمي تسخير الإبداع لمعرفة العدو، لا أكثر. يبحث عن كل شيء في النص، عدا النص نفسه» (الكرمل، ٦/ ٢٢٩). هل يمكن قول نفس الكلام عن القارئ العبري؟.

وإذا أضفنا إلى ذلك عاملي الترجمة من أجل معرفة العدو والتعليق اللذين طرحتهما في المقدمة وعدد القراء الهامشي لهذا الأدب، فستطرح علامة استفهام كبيرة حول إمكانية ترجمة أدب فلسطيني إلى اللغة العبرية المعاصرة في هذه اللحظة التاريخية. ■

الهوامش

١) أنطون شماس، شاعر كاتب وصحفي، ولد عام (١٩٥٠) في قرية فسوطة، محاضر للثقافات الشرقية في جامعة ميشيغين (حانا عاميت كوخافي، ص ٣٥٩).

٢) محمد حمزه غنايم، شاعر، (٢٠٠٤ - ١٩٥٣) ولد في قرية باقة (حانا عاميت كوخافي، ص ٣٥٦).

٣) موشيه حاخام، ولد عام (١٩٥٠) في العراق، هاجر إلى إسرائيل/فلسطين عام (١٩٥١) (حانا عاميت كوخافي، ص ٣٥٢).

٤) وهنا يمكن السؤال: ما الأدب فلسطيني؟ هل هو أدب كتبه فلسطيني، أم وجهة نظره فلسطينية، أم موضوعه فلسطيني؟.

٥) (أنطون شماس، ص ١٩) (دلني كل من د. محمود غنايم ود. محمود كيال على هذا الاقتباس).

٦) أصبحت القصة فيلماً عام (١٩٩٩ م) أخرجه داني فاكسمان.

٧) (Chatman, Seymour, p ١٤٦).

المصادر

١) درويش، محمود، الأعمال الجديدة، رياض الريس، لبنان، ٢٠٠٤ (١٩٩٥-٢٠٠٤).

٢) حبيبي، إميل، الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل، دار الجليل، دمشق، ٢٠٠٠ (١٩٧٤).

٣) حبيبي، إميل، إخطية، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، ٢٠٠١ (١٩٨٥).

٤) حبيبي، إميل، سرايا بنت الغول، دار عربسك، حيفا، ١٩٩١ (١٩٩٠).

٥) خوري، إلياس، باب الشمس، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٨.

المراجع العربية

١) بكار، يوسف حسين، الترجمة الأدبية إشكاليات ومزالق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠١.

٢) حديدي، صبحي، في ذكرى إميل حبيبي، القدس العربي، ٢٩/٠٥/٢٠٠٦.

٣) زقطان، غسان (محرر)، شاعر ممتاز وأحد يكفي، (محمد حمزة غنايم)، محمود درويش، المتلف الحقيقي، دراسات وشهادات، دار الشروق، تونس، ١٩٩٩.

٤) غنايم محمد حمزة، الحاضر-الغائب في الثقافة الأخرى، (مقابلة مع شمعون بلاص)، الكرمل، رام الله، ٦٠/١٩٩٦.

٥) نقاش، سمير، يوم حبلت وأجهضت الدنيا، القدس، ١٩٨٧.

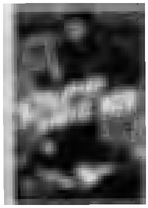
المراجع الإنجليزية

- Alcalay Ammiel (ed). "Signs in the Great Disorder: An Interview with Samir Naqqash". Keys to Garden, New Israeli Writing, City Lights Books, San Francisco, 1996, (pp ١٠٠-١٣٢).
- Amram, Uri (ed) . Shira Hadasha, Zamrat Ha'Aretz Institute, Brooklyn NY, ٢٠٠١ Second edition.
- Chatman, Seymour. "Story and Discourse". Ithaca, New York: Cornell University Press, ١٩٧٨.
- Robinson, Douglas. What is translation?. Kent: Kent State University Press, ١٩٩٧.
- Tymoczko, Maria. Gentzler. Edwin. Translation and Power, University of Massachosettes Press. ٢٠٠٢.

المراجع العبرية

- درويش، محمود، سرير الغريبة، بابل، ٢٠٠٠، ترجمه للعبرية: محمد حمزة غنايم.
- درويش، محمود، لماذا تركت الحصان وحيداً، أندلس، ٢٠٠٠، ترجمه للعبرية: محمد حمزة غنايم.
- درويش، محمود، حالة حصار، أندلس، ٢٠٠٣، ترجمه للعبرية: محمد حمزة غنايم.
- درويش، محمود، جدارية، أندلس، ٢٠٠٦، ترجمه للعبرية: محمد حمزة غنايم.
- حبيبي، إميل، الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل، ها-كيبوتس ها-ميؤوحاد، ١٩٩٥، ترجمه للعبرية: أنطون شماس (ترجم لأول مرة في دار النشر ميفراس عام ١٩٨٤ وصدر مرة أخرى بعد اتفاقيات أوسلو لدار النشر ها-كيبوص ها-ميؤوحد).
- حبيبي، إميل، إخطية، عام عوفيد، ١٩٨٨، ترجمه للعبرية: أنطون شماس.
- حبيبي، اميل، سرايا بنت الغول، ها-كيبوتس ها-ميؤوحاد، ١٩٩٣، ترجمه للعبرية: أنطون شماس.
- خوري، إلياس، باب الشمس، أندلس، ٢٠٠٢، ترجمه للعبرية: موشيه حاخام، تحرير الترجمة: أنطون شماس.
- نقاش، سمير، يوم حبلت وأجهضت الدنيا، سيفريات بوعاليم، ها-كيبوتس هـ-أرتسي ها-شومير ها-تساعير، ١٩٨٥، ترجمته للعبرية: روت نقاش.
- علي، طه محمد، قصائد، أندلس، ٢٠٠٦، ترجمه للعبرية: أنطون شماس.
- عاميت-كوخافي، حانا، ترجمات أدب عربي إلى اللغة العبرية: خلفيتها التاريخية-الثقافية ومبرراتها، بحث لنيل لقب الدكتوراه في مجال الفلسفة.
- شماس، أنطون، «بين يمين وشمال في الترجمة»، أوتوت (جريدة) ٧٧، ٦٥-٦٦ (١٩٨٥)، ص ١٨-١٩.



كان على «مور» أن يسلك طريقًا آخر: أن يثابر على إطلاق صيحات مدوية شديدة الإخلاص لعلها تصل إلى الجماهير التى غيب عقلها الإدمان على إعلام مضلل استنزف وعيها بسيل من الأكاذيب والأخبار والصور المفبركة

محمد يوسف عدس

مايكل مور.. الحكمة

مايكل مور مؤلف وممثل ومخرج أفلام حازت شهرة عالمية وحظيت بجوائز عالمية أيضًا، عرفناه نحن من خلال فيلمه الوثائقى الذى أثارت شهرته ضجة فى كل مدن العالم غربًا وشرقًا.. ذلك هو فيلم «فهرنهايت ١١ ٩» رسم عنوانه بهذه الطريقة ليوحى إلينا بفكرة الفيلم كأنه يريد أن يقول عند هذه الدرجة من الحرارة تذوب الحقائق الخفية وراء حادثة برج التجارة العالمى فى ٢٠٠١/٩/١١. ولكن مور فى هذا الفيلم يكتشف لنا عن حقائق مثيرة، وعلاقات مالية وصداقة استمرت ربع قرن من الزمان بين أسرتى بوش وبن لادن.

ولم تكن كتب مايكل مور أقل حظًا فى الشهرة والانتشار من أفلامه.. ففى خضم الحرب الإعلامية التى شنها «جورج دبليو بوش» على «الإرهاب» وقد تمكن من حشد تأييد شعبى ودولى وراءه صدر كتاب مزلزل لمور بعنوان «رجال بيض أغبياء» يسخر فيه سخرية لاذعة من الرئيس بوش، ويتهكم على شخصيته ويفضح أكاذيبه. فإذا بالكتاب يثير اهتمامًا جماهيريًا واسعًا ويباع منه ملايين النسخ فى العالم، خصوصًا فى أمريكا وبريطانيا وكندا واستراليا.

أما كتابه الأخير الذى سنتعرض له بشىء من التفصيل فعنوانه «ديود.. أين بلادي؟!» عندما نشر فى بريطانيا سنة ٢٠٠٤م حقق مبيعات هائلة، بلغت مليون نسخة فى ثلاثة أسابيع فقط، وبذلك ارتفع إلى قمة أكثر الكتب مبيعًا.. وقد حظى بتعليقات واسعة من الكتاب والصحفيين البريطانيين الذين أذهلتهم جرأته وعفويته حتى إن الجارديان قالت عنه: «لو لم يوجد مايكل مور هنا لكان من الواجب على العالم إيجاده».

من المعروف تقليديًا أن الإنجليز يعتبرون الإنجليزية الأمريكية لغة ركيكة مقارنة بلغتهم الإنجليزية الأصلية الرصينة.. ولكن يبدو أنهم أخذوا بجرأة مور وسخريته اللاذعة وخروجه عن المألوف فى التعبير اللغوى العنيف، حتى فى استخدامه للحروف الكبيرة أحيانًا للتأكيد على أفكار بعينها وتنبيه القارئ لأهميتها.. استوعب القراء الإنجليز كل هذا وسامحوا مايكل مور فى كثير من تجاوزاته اللغوية والتعبيرية.

مور فى كتاباته وفى أفلامه ليس كاتب قصص خيالية.. حتى إنه اتخذ من الفيلم الوثائقى أداته الرئيسية فى التعبير الفنى.. إنه يغترف من الواقع ويغوص وراء الحقائق المستورة، ويعتمد فى أحيان كثيرة على الأرقام والإحصاءات، ولكنه يمزج هذا كله بنبرة واضحة من السخرية اللاذعة والتهكم.. وتنتشر فى ثنايا كتاباته دفقات من العاطفة والانفعال ولكنه يصيب كبد الحقيقة ولا ينحرف عنها.

يصف بعض النقاد مور فى أفلامه بالجنون، أليس هو الصحفى الذى أقام جنازة ساخرة كتب على صندوق النعش فيها اسم رجل مريض كان قد تقدم إلى مركز للعناية الصحية بطلب لإجراء عملية نقل كلية لإنقاذ حياته لأنه فقير فرفض طلبه.. وضع مور النعش أمام المركز وشرع يتلقى العزاء، وجاءت الصحافة والإعلام تسجل الواقعة مما اضطر المركز، منعًا للفضيحة، أن يوافق على العملية.. وهو مخرج فيلم Bowling for Columline الذى ذهب فيه إلى محلات «كى مارت» ومعه طفلان لا تزال فى جسميهما رصاصات أطلقت عليهما عشوائيًا. فالأسلحة النارية متوفرة لدى الأمريكيين حتى الصبيان منهم. ذهب مور ومعه الطفلان ليطلب من «كى مارت» إرجاع هذه الرصاصات واسترجاع ثمنها.. وكانت النتيجة أن محلات كى مارت توقفت نهائيًا عن بيع المقذوفات النارية.

أما كونه سياسيًا نشطًا ومجادلاً قوى الشكيمة وصحفيًا جسورًا فإن مايكل مور يشغل حيزًا متميزًا فى الإعلام الأمريكى، ليس لأنه معارض فقط، ففى أمريكا أصوات معارضين كثر وإن كنا لا نسمع عنهم كثيرًا.. ولكن حاز على هذه المكانة المتميزة لأنه يقول ما يفعل ويفعل ما يقول، ويتطابق كلامه دائمًا مع أسلوبه فى التعبير سواء فى التليفزيون أو فى أفلامه أو فى كتبه، ويبدو فى كل أعماله كأنه فرقة كاملة لا فرد واحد.. وفى هذا السياق يقول عنه «جارى يونج» من «الجارديان» البريطانية: «مايكل مور يعمل وكأنه جوقة فى شخص واحد بلا مجموعة تسانده بالصوت أو العزف». وهذه ملاحظة مهمة تدع جارى يونج يوضحها لنا بتفصيل أكثر حيث يقول: «إن لمور نظراء فى النقد والتهكم فى الجناح اليمينى ولكن لهؤلاء الصحفيين جوقة تساندهم فى الإدارة الأمريكية وفى الكونجرس والإعلام، كما أن له نظراء فى بريطانيا من اليساريين والثوريين.. ولكن هؤلاء يتحركون ضمن شبكة ليبرالية راسخة التقاليد فى بريطانيا.. يدعمها فهم جماهيرى يتذوق إنشادهم ويعزز مواقفهم النقدية».. أما مور فلا يستند إلى مناخ ثقافى مماثل، ولذلك يبدو وكأنه ظاهرة غريبة فى ثقافة أمريكية لم تنتج أمثال «جون بلجر» أو «بول فوت» أو «تونى بين».. ثقافة لم يقدر لها، عبر التاريخ، أن تنتج حزبًا للعمال، فحزب الجمهوريين وحزب الديمقراطيين فى نظر مايكل مور نفسه ليسا إلا وجهين لعملة واحدة غايتهما النهائية هى خدمة المصالح الرأسمالية لنخبة مسيطرة على الاقتصاد والمال والسياسة والصناعة جميعًا.

ومن هنا كان على «مور» أن يسلك إلى الجماهير طريقًا آخر: أن يثابر على إطلاق صيحات مدوية شديدة الإخلاص صادقة المنزع لعلها تصل إلى الجماهير التى غيب عقلها الإدمان على إعلام مضلل استنزف وعيها بسيل من الأكاذيب والأخبار والصور المفبركة، فيما يسمونه بـ «صناعة الرأى العام».

ظل مور يطرق الآذان بصيحات عالية الرنين.. كان من أعلاها وأوفرها حظًا فى جذب الانتباه إليه كتابه «رجال بيض أغبياء» ثم فيلمه الوثائقى «بولينج فور كولمبين».. هذان العملان رفعاه على أكتاف مجموعة كبيرة من الجماهير المحبة، ليخترق الأسوار الحصينة فى عالمى

Dude, Where is my Country?

(يا فتى، أين بلدي؟)

Michael Moore

Warner Books, 2004



والجنـــون!!

السياسة والثقافة والتى كانت تحول بينه وبين الوصول إلى جمهور أوسع من الأمريكيين، الذين يكنون فى قلوبهم رفضاً ومقاومة، ولكن كانت أصواتهم خافتة وصفوفهم مشرذمة، وكان هذا بالنسبة لمور نصراً سياسياً وليس مجرد إنجاز شخصى.

صدر كتاب مور «رجال بيض أغبياء» فى لحظة بدا فيها الرأى العام الأمريكى والعالمى محتشداً خلف بوش، فكان بمثابة الطلقة الأولى فى صدر أكبر أكذوبة فى التاريخ.. ومن ثم نهض كتاب السلطة وكلابها الحارسة، يحطون من قيمة الكتاب ويستهزءون بصاحبه.. فوصفه بعضهم بأنه «تشومسكى الأطفال».. ولكن الناس لم يستسيغوا هذا النقد لأنهم يرون الحقيقة أمام أعينهم، فتشومسكى على ذيوع شهرته تصل كتبه إلى عشرات الآلاف من القراء، أما «مور» فإنهم يرونه يصل. من خلال كتبه وأفلامه. إلى عشرات الملايين..

ونستطيع باطمئنان أن نقول إن أعمال مايكل مور كلها فى السنوات القليلة الماضية كانت كلها حملات ناقدة لسياسات بوش وبطانته الحاكمة، وأنها أثارت موجات إعلامية حامية الوطيس بين المؤيدين والمعارضين.. ثم جاءت رحلاته داخل الولايات المتحدة وفى بريطانيا لتضيف إلى هذه الحملات وقوداً من القوة والحيوية.. ولتفسح له مجالاً أوسع للتواصل الشخصى والمباشر مع قطاعات كبيرة من المثقفين والجماهير فى كل مكان.. وأثناء رحلاته فى بريطانيا دعا البريطانيين لكى يقوموا بواجبهم لحمل حكومتهم على شن هذه الحرب لولا تشجيع تونى بلير له.. أما «مور» فقد رأى أن رسالته الأولى فى بلاده هى أن يقوم بتثوير الشعب الأمريكى ضد نزعات حكومته الإمبريالية وإجبارها على وقف حربها على الإرهاب المزعوم.. لأنه يؤمن أن الإرهاب الحقيقى هو الإرهاب الأمريكى للشعوب الضعيفة، وأن هذا الإرهاب هو الذى أحدث ردود أفعال مقاومة بين الشعوب المغلوبة على أمرها فى مواجهة الغزو الأمريكى.

الذين حضروا احتفالات الأوسكار لسنة ٢٠٠٣ لاحظوا أن الأوسكار فى ذلك العام كان يفتقد البهجة والإبهار المعتادين، فقد جاء الاحتفال بعد ثلاثة أيام فقط من الغزو الأمريكى للعراق، ولعل هذا كان هو السبب الذى جعل منظمى الاحتفال يهملون بسط السجادة الحمراء.. وجعل عدداً من الفنانين والفنانات يُحجمون عن دخول قاعة الاحتفال، ولم يُعْنَ الذين حضروا بارتداء الأزياء الجديدة المبهرة.. فقد كان الاعتقاد المسيطر عليهم أن المناسبة لا تحمل مظاهر الفرح والبهجة، فى وقت كان الشبان الأمريكيون فى طريقهم إلى مذبحة العراق ليموتوا أو يقتلوا العراقيين فى بلادهم.

توجه أحد المسئولين إلى الفنانين الذين وقع عليهم الاختيار فى القاعة لنيل الجائزة حتى يستعدوا ويتنبهوا عند نداء الأسماء.. عندئذ علم مور بأنه أحد المرشحين، ومالت «كاثلين جلين»، زوجة مور على أذنه تهمس له: هل أعددت كلمة لهذه المناسبة؟ فأجاب مور: طبعاً لا، فأنا لم يخطر ببالى أن أكسب هذه الجائزة. والحقيقة أن الخبر كان مفاجئاً له.. ومن ثم لم يفكر فى إعداد كلمة. يقول: عندما تلبست بالموقف كان كل ما فى ذهنى أن أقول شيئاً عما يجرى على الساحة السياسية فى الآونة الأخيرة.. ولكنى لم أكن أعرف حتى هذه اللحظة ماذا أقول! إنه نفس الشعور الذى انتابنى من قبل فى مناسبة مماثلة وأنا أتوجه إلى المسرح لاستلام الجائزة.. كنت أنظر حوالى وأرى تحت الأضواء المتدفقة حشداً من كبار القوم والنجوم.. عيونهم جميعاً معلقة بالمسرح تتابع صعود الفائزين واحداً بعد الآخر.. شعرت وقتها أن على أحد كتفى ملاكاً وعلى الآخر شيطاناً.. يقول لى الملاك: مايكل.. اشكرهم فقط ثم ألق إليهم بقبلة وانزل من المسرح بسلام.. ولكن الشيطان كان يوسوس لى: لا يا مايكل.. أمامك واجب عليك أن تؤديه.. فيعترض الملاك قائلاً: إنها لحظتك التاريخية.. لحظة الأوسكار.. اعتصر نفسك حباً.. فى هذه المرة شعرت بأن كل عظمة فى بدنى كانت تواقة لأن أقول.. بحب شديد.. شكراً لكم.. ثم أنصرف.. ولم يزل مور متحيراً تتنازعه

مايكل مور.. الحكمة والجنون

الأفكار المتعارضة حتى اقترب من الميكروفون.. وفجأة وجد نفسه يردد عبارات انبثقت على الفور من ذاكرته.. قال مور: «لقد أصبحت الأفلام غير الخيالية بالغة الأهمية.. وذلك لأننا نعيش في زمن تنتج فيه الانتخابات الأسطورية رئيساً أسطورة.. إننا نعيش في زمن يحكمنا فيه رجل يرسلنا إلى جبهة الحرب لأسباب أسطورية». وهنا ضجت القاعة بالضحك، فقد كانت الإشارات واضحة الدلالة.. وإذا بمور يفجر قنبلته الشهيرة التي عبرت القاعة لتصل إلى أسماع العالم بأسره.. صاح مور قائلاً: إننا ضد هذه الحرب العبثية المشتعلة في العراق.. عار عليك يا مستر بوش.. عار عليك ألف مرة..!

وإذا كانت كلمة مور هذه في حفل الأوسكار تكشف لنا الكثير عن شخصيته فإن ردود الأفعال عليها تكشف لنا عن المزاج السياسي الذي كان سائداً في ذلك الوقت.. فقد انهالت عليه سهام النقد والسباب المقذع من كل جانب وفتحت عليه وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمنظورة أبواب جهنم.. ولكنه لم يكن ليعبأ كثيراً بحملات التشهير والسباب التي وجهت إلى شخصه بقدر ما كان قلقه على أحبائه وأقرب الناس إليه أنه عرضهم لمخاطر لم تكن منتظرة.. فخلال الأسابيع والشهور التي أعقبت حفل الأوسكار لم يمر يوم إلا وقد تعرض له شخص ما في الطريق بالأذى.. يقول: وأنا سائر في الطريق أفاجأ بشخص لا أعرفه يعترض طريقي صارخاً في وجهي ليختلق مشادة معي. فإذا لم أستجب لمناقشته انطلق لسانه بالشتائم والسباب الجارح. وفي مطار «لوجارديا» بنيويورك اقتربت مني سيدة وقالت لي كان ينبغي أن تنفى من البلاد.. وفي الطائرة رفض رجل أن يجلس بالمقعد المجاور لي». أما منزله في متشجان فقد تعرض لعمليات تخريب عدة مرات ووضعت لافتات كبيرة على كل الأشجار أمام المنزل مكتوب عليها بالخط العريض «خائن» وهكذا انفتحت على مور أبواب الجحيم.

مع كل ذلك عندما ينظر مور إلى الوراء لا يشعر بالندم على ما قال، ويحمد الله أنه لم ينشغل بإخراج أفلام عن الطيور والحشرات والروايات التافهة حتى يتجنب السياسة ويتجنب نقمتهم، وإنما توجه بأفلامه إلى المعترك السياسي ليخوض فيه بجرأة غير عابئ بالعواقب.

يقارن مور بين حال أمريكا في عهد بوش وبين ألمانيا سنة ١٩٣٦ فيجد تشابهاً عجيباً بين الحالتين لا يمكن إنكاره.. إنه لا يشبه بوش بهتلر، ولكنه يعتقد أن التشابه يأتي من ناحية حالة الديمقراطية الأمريكية التي أصبحت في أزمة حقيقية بسبب سلوك بوش وتوجهات إدارته الفاشية.. ويرى تماثلاً واضحاً بين هذه الحالة وبين ما حدث في ألمانيا خلال السنوات التي أعقبت حريق الرايستاغ الألماني.. يقول مور: «لقد استغلت إدارة بوش حادثة ٢٠٠١/٩/١١ لتبرر اختراقها لدستورنا وحرياتنا المدنية.. وأنا أعتقد بصدق أن وقوع مثل هذه الحادثة مرة أخرى.. سوف يؤدي إلى إعلان الأحكام العسكرية وتحويل أمريكا إلى دولة بوليسية.. وينقلب كل شيء رأساً على عقب.. أنا لا أتحدث عن بوش وبطانته.. فهؤلاء لن يحتاجوا إلى إطلاق رصاصة واحدة، وإنما أتحدث عن ملايين الأمريكيين الذين سيهبون مطالبين بتطبيق الأحكام العسكرية، ويحاصرون كل الأصوات المعارضة ويطلبون تصفية أصحابها.. لن يحدث هذا بثورة مسلحة ولكن بهدير أصوات أمة مفزعة تملكها رعب قاتل».

لذلك يعتقد مور أن الدفاع عن الديمقراطية ضد بوش وبطانته، الذين لا يكنون احتراماً للدستور أو الديمقراطية أو حرية الرأي، هذا الدفاع - عند مور - له أولوية مطلقة، ويجب أن يكون هذا هو موقف كل الأمريكيين الذين يدركون حقيقة ما تبيته بطانة بوش من شر للديمقراطية. ومن ناحية أخرى يؤكد مور أن الشعب الأمريكي في عمومه شعب طيب والأمة في أعماقها أمة عادلة منصفة.. ولكن نقطة الضعف عند الأمريكان هي سذاجتهم وميلهم إلى تصديق حكوماتهم التي ضللتهم بالأكاذيب.. وواجب المفكرين والمثقفين أن يناضلوا لتوصيل المعرفة الصحيحة والحقائق إلى هؤلاء الناس.

جنة الأحرار أم جنة الأغبياء، هذا عنوان الفصل التاسع من كتاب مور «دعود.. أين بلادي؟».. ضمنه نتائج استطلاعات الرأي الأمريكية التي تكشف عن انقسام ثقافي حاد بين النخب الليبرالية والمحافظة.. أما بقية الجماهير فتبدو حائرة تائهة لا تكاد تعي ما يدور حولها، كأنها قد انتكست إلى الطفولة فأصبحت عاجزة عن التفكير السليم أو التصرف بمقتضى مصالحها، ويرجع هذه الحالة المزرية إلى الإعلام الأمريكي المضلل وإلى القيادات السياسية والدينية السيئة التي أقنعت الناس بأن العراق كان على صلة بالقاعدة وبأحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م.. ثم يتساءل: لا شك أنهم مضللون، فهل هم أيضاً أغبياء؟ ثم يرد على تساؤله متعجباً: إذا لم يكونوا أغبياء فكيف نفسر إيمانهم بأنهم ما داموا يعيشون في أقوى دولة بالعالم فإن من حقهم أن يسيطروا على الدول الأضعف، وينهبوا ثرواتها الطبيعية، ومن ثم يحصلون على بترول رخيص ويحافظون على مستوى معيشي مرتفع.. بحسب فهم هؤلاء الناس: إذا أصبح العالم أكثر عدلاً فإن الأمريكيين يصبحون أكثر فقراً!.. فهل وصلوا إلى هذا الفهم لأنهم مضللون فقط؟!

يثير مور نقطة مهمة وكأنه كان يتنبأ بفوز الديمقراطيين الذي حدث في انتخابات ٢٠٠٦م.. يقول: «لقد خيب الحزب الديمقراطي أمل الكثير من الأمريكيين (في الانتخابات السابقة).. وهم لم يستوعبوا هذا الفشل بعد.. ولكني شديد التفاؤل، فأنا أعتقد أنه إذا توفرت للناس المعرفة الصحيحة وتولى قيادتهم أناس مخلصون ليس أكبر همهم تحقيق مصالحهم الشخصية.. أناس يؤمنون بما يقولون ولديهم الجرأة الكافية.. فسوف يحقق الديمقراطيون أغلبية تسمح بحملهم إلى مقاعد الكونجرس أولاً ثم إلى البيت الأبيض في مرحلة لاحقة».

وفي حياته الاجتماعية لا يكاد مور يكف عن الضحك والإضحاك حتى لتظن أنه لم يعرف الجد أبداً.. ولكنه في أعماله الفنية والفكرية ومنها السياسة.. يمزج بين الجد والسخرية.. وعندما يكتب يصور بكلماته الساخرة الأشخاص والمواقف كأنه رسام كاريكاتير.. وهو يدخر أشد ما في جعبته من تهكم ونقد ساخر للشخصيات القيادية، فكلما ارتفع موقعها في سلم القيادة كلما كان حظها من السخرية أوفر.. ورغم التزامه في كتاباته السياسية بالحقائق الموضوعية إلا أنه عادة ما يعبر عن أفكاره بأسلوب عاطفي حتى ليشعر القارئ بتسارع نبضات قلبه وارتفاع نبرة انفعالاته، وهنا تنفلت منه الكلمات والعبارات غاضبة جارحة كالرصاص المنطلق فلا يعبأ بكبحها.. ربما لأن مور يعتبر نفسه صاحب رسالة، لذلك فهو لا يكتفي بالإقناع فقط، وإنما يحاول التأثير في جمهوره لحفزه على الفعل والثورة على الواقع.

وهو في كل الأحوال ليس مستبداً برأيه ولا متغطرساً، وعادة ما يقبل على الحوار بعقل مفتوح. وأفكار مور واضحة ومباشرة إلا أنها تفتقر في بعض المواقع إلى العمق.. وقد اعترف هو بذلك فقال: «إنني لازلت أفكر وأطور في أفكاري».. لقد شغلت القضية الفلسطينية عقل مور بقوة حتى إنه أهدى كتابه إلى «راشيل كوري» الأمريكية الشابة التي سحقها جندي إسرائيلي بدبابته عندما وقفت أمامه تمنعه من هدم منزل فلسطيني.. ومع ذلك لم تحظ هذه القضية إلا بصفحة واحدة من كتابه.. وعندما سأله «جاري يونج» عن سبب هذا القصور قال مور: «إنني رغم انتقادي المختصر للتصرفات الإسرائيلية اعترض على الناشر وقال لي بأنه كان نقداً شديد القسوة! وسبب هذا الموقف أن معاييرنا في الولايات المتحدة بالنسبة لإسرائيل تختلف عن معاييركم في بريطانيا.. فالإعلام الأمريكي يتجاهل تجاهلاً تاماً كل ما ترتكبه إسرائيل من أخطاء وجرائم.. وفي نفس الوقت يضخم كل ما يقع عليها من اعتداءات ويتوقع الجميع منك أن تسير على نفس هذا الخط من التفكير». ثم أضاف مور: «سوف تجد هذا النقص عندي في فيلم «بولينج فور كولمبين» فقد أتيت على تاريخ العنف الأمريكي في أنحاء العالم، ولكنني تجاهلت تماماً ما فعلناه في الشرق الأوسط عندما اتصل الأمر بالإسرائيليين والفلسطينيين».

وربما يهم القارئ أن يعرف أن مور قد أصبح من الأغنياء، فقد جاءته الثروة في سن متأخرة من بيع كتبه وأفلامه الناجحة.. ورغم ثروته فإنه لا يزال بسيطاً شديد التواضع، ويفسر هو ذلك بأنه ظل محافظاً على أصدقائه السابقين الذين عرفهم منذ نعومة أظفاره، وقد نشأ في بيت متواضع لأسرة من الطبقة العاملة، ولم تطرق الشهرة بابه ولم تهبط عليه الثروة إلا بعد بلوغه سن الخامسة والثلاثين، عند هذه السن تكون أوضاع الإنسان الاجتماعية قد تم تشكيلها واستقرارها وتحددت دائرة

قال مور: «لقد أصبحت الأفلام غير الخيالية بالغة الأهمية.. وذلك لأننا نعيش فى زمن تنتج فيه الانتخابات الأسطورية رئيساً أسطورة.. إننا نعيش فى زمن يحكمنا فيه رجل يرسلنا إلى جبهة الحرب لأسباب أسطورية»

الأصدقاء فيها.. أما الإضافات اللاحقة مهما اتسعت دائرتها فيمكن إطلاق صفة الزمالة أو المعارف عليها.. لذلك لم تغير الشهرة ولا الثروة من سلوكه أو مواقفه، فهو حسبما يعترف.. يقول: «لقد قلصت احتياجاتى المادية فى الحياة إلى أضيق الحدود، ولا أجد فى نفسى الرغبة فى أشياء كثيرة، مما يستهوى الآخرين.. فأنا رجل لا أتعاطى الخمر ولا حتى القهوة.. ولكن أهم ما حققته النقود لى أنها أعطتنى مساحة واسعة من الحرية والاستقلال فى مجالى السياسة والصحافة.. فلأنى أملك هذه الثروة لا أحد يستطيع أن يأتى إلىّ ويقول: عليك أن تحذف هذا الجزء من فيلمك أو من كتابك.. لأننى حينئذ سوف آخذ الكتاب وأنشره على نفقتى الخاصة.. وسوف أصنع فيلمى كما أحب، وأقول له لا حاجة بى إلى مالك.. وهذا حلم كل شاب ينتمى إلى الطبقة العاملة فى حياة حرة.. أن تملك المال الذى تستطيع به أن تقول لرئيسك عندما يحاول مصادرة حريتك: اذهب إلى الجحيم!».

يقول مور عن كتابه «ديود.. أين بلادى؟»: هذا الكتاب فى أساسه عن بوش وحادثة ٩/١١ وما يتصل بها من أمور أخرى لم يتناولها الإعلام الأمريكى ولم يحاول بحثها بجدية، ومن ذلك علاقة إدارة بوش بطالبان، وما كان يدور بين هذه الإدارة وبين الأسرة السعودية الحاكمة، وعلاقة أسرة بوش الوثيقة بأسرة بن لادن على وجه الخصوص، وهى علاقة حميمة استمرت لمدة ربع قرن على الأقل.. وكيف استخدم بوش حادثة ١١/٩ ومقتل ثلاثة آلاف أمريكى فيها كستارة دخان لتنفيذ أجندة الجناح اليمينى المتطرف فى السياسة الأمريكية.. وتطرق إلى علاقة «تونى بلير» رئيس وزراء بريطانيا ببوش، حيث اعتبره بمثابة السجادة التى كان يجب سحبها من تحت أقدام بوش حتى يتوقف عن مزيد من التورط فى حرب العراق.

كيف توقفون الإرهاب؟.. توقفوا أنتم عن الإرهاب! هذا عنوان الفصل الخامس من كتاب مور المؤلف من أحد عشر فصلاً. يبدأ مور هذا الفصل بتقرير قاطع عندما يقول إن برنامج بوش للأمن القومى لن يحقق أمنًا لأمريكا.. ثم يخاطب الأمريكيين قائلاً: «إذا كنتم تريدون أمنًا حقيقيًا فاستمعوا إلى نصائحى ونفذوها».. يورد بعد ذلك ثمانية عشر نصيحة يمتزج فيها الجد الصارم بالسخرية اللاذعة.. من أبرز هذه النصائح:

١ ـ عندما تقومون بانقلاب ضد زعيم دولة منتخب ديمقراطيًا ـ افعلوها صح ـ فلا تفرضوا على شعوب هذه البلاد ديكتاتوراً من صنعكم يسومها سوء العذاب كما فعلتم فى شيلى وإندونيسيا وجواتيمالا.

٢ ـ عندما تحاولون قتل رئيس دولة كوبا مرة ثانية تأكدوا أولاً أن السيجار الذى ستهدونه إليه محشو بنوع جيد من المتفجرات حتى لا تتكرر المهزلة!

٣ ـ عندما تساعدون شركاتكم على نهب ثروات البلاد الأجنبية فلا تنسوا أن هذا سيجعل شعوب هذه البلاد تكرهنا من الأعماق.

٤ ـ لكى تكونوا جادين فى دعوتكم لنشر الديمقراطية فى العالم لا تحاربوا النتائج التى أفرزتها الديمقراطية فى بعض البلاد.. (كفلسطين مثلاً..!).



٥ ـ توقفوا عن مساندة الأنظمة الدكتاتورية المستبدة لأن الشعوب لن تغفر لنا هذا الموقف أبداً.

٦ ـ عندما يقتلون مدنيين منا تقولون هذا إرهاب، أما إذا قتلنا منهم عشرات الألوف كما فى العراق وأفغانستان تقولون إنها عمليات اضطرارية.

٧ ـ يخاطب بوش فيقول: «عندما تعلن أن مهمتك قد أنجزت وانتهت الحرب.. كان عليك أن تتأكد أولاً.. فإنجاز المهمة لا يكون إلا بانسحاب القوات الأمريكية من العراق.

٨ ـ فيم هذا الضجيج حول الأسلحة النووية!.. لقد قتلنا نحن بهذه الأسلحة أكثر مما فعلته أى دولة فى العالم، وأول من يجب تدمير أسلحته النووية هو نحن.

٩ ـ يجب أن نتوقف عن لعب دور شرطى العالم.. فنذهب إلى مناطق إنتاج البترول ونقول لهم ارفعوا أيديكم.. سلموا البترول!

١٠ ـ ماذا لو حاولنا مساعدة الآخرين؟ ماذا لو كففنا عن إرهاب الناس ونهب ثرواتهم وتسخيرهم كالعبيد لخدمة مصالحنا؟.. علينا أن نعترف بأننا نحن الذين صنعنا الإرهاب بسلوكنا الأنانى تجاه العالم.. ولن يتحقق لنا أمن إلا إذا تأكدنا أن كل الناس يحصلون على احتياجاتهم الحيوية ويحلمون بحياة أفضل.. لنتأكد على الأقل أننا لسنا الذين يسرقون أحلامهم..!

وضمن نصائح مور للأمريكيين لوقف الإرهاب فى العالم تأتى نصيحته عن إسرائيل السادسة فى ترتيب قائمة النصائح الثمانى عشرة، يقول فيها: ربما يكون من المناسب أن تعرفوا لماذا فاض الكيل بمئات الملايين من شعوب العالم بالقارات الثلاث على امتداد الأرض من مراكش على المحيط الأطلسى إلى الفلبين على المحيط الهادى بسبب ما تفعله إسرائيل فى فلسطين.. كفوا عن ترديد تلك الأسطوانة المشروخة عن «اللاسامية».. فأنا أتحدث عن حقيقة أننا نحن الأمريكيين نساند إسرائيل فى حربها ضد الشعب الفلسطينى.. والآن دعونا نتساءل: من أين جاء العرب بفكرة المظلومية هذه؟ يقول مور رداً على تساؤله: ربما حدث هذا عندما تطلع طفل فلسطينى إلى السماء فرأى طائرة أباتشى أمريكية تطلق صاروخاً يسقط فى غرفة نوم أخته الطفلة فيمزق جسدها مزقاً!

بعض الأمريكيين سيقول لك معترضاً: هل يكفى هذا سبباً ليرقص الفلسطينيون فى الشوارع فرحاً عندما هوجم مركز التجارة العالمى وقتل تحته ثلاثة آلاف أمريكى؟! ثم يتابع: لقد قتل كثير من الأطفال الإسرائيليين أيضاً بيد الفلسطينيين.. وأقول: ألا يجعل هذا كل إسرائيلى يرغب فى إبادة العالم العربى كله؟.. ولكن الإسرائيليين العاديين (فيما يزعم مور) ليس لديهم رد الفعل هذا ـ فلم ذلك؟ يجيب مور: لأن هؤلاء الإسرائيليين يعلمون أنهم مخطئون وأنهم سوف يفعلون ما يفعله الفلسطينيون لو كانوا فى مكانهم.. ثم يقترح مور الآتى: «هناك طريقة لإيقاف القنابل البشرية.. امنحوا الفلسطينيين بعض طائرات أباتشى قاذفة الصواريخ.. وكما تعطون إسرائيل أربعة مليارات من الدولارات سنوياً أعطوا الفلسطينيين أيضاً نفس المبلغ من المال.. ثم دعوا الفلسطينيين والإسرائيليين يتقاتلون حتى يُفنى بعضهم البعض.. وبذلك تنتهى المشكلة.. ودعونا نستريح!

يتضح من كلام مور رغم صدق إشاراته أنه لم يتعمق القضية الفلسطينية كما ينبغى له.. وربما كان هذا التناول السريع والسطحى لها وسيلة لتجنب الخوض فى حقل ألغام أمريكى لا نجاة منه..

أما الفصل السادس من الكتاب فقد كنت أتمنى أن يحذفه المؤلف، وإذا كان قد رأى أنه ضرورى تمنيت أن يكتبه بحذق أكثر وخفة أقل.. ولكن من يعرف مايكل مور لا يستطيع أن يطلب منه هذا المستحيل، فهو يكتب أى شىء يأتى على خاطره مهما كانت حساسية الموضوع الذى يتعرض له.. ولذلك كنت قد هممت أن أهمله فلا أتطرق إليه فى عرض الكتاب.. ولكنى رأيت أن هذا لا يتلاءم مع مسئوليتى تجاه القراء فحزمت أمرى وحاولت أن أعرض هذا الفصل ملتزماً بأفكاره الأساسية مستهدفاً الغاية منه متجنباً العبارات والأوصاف النابية، واستغفرت الله أولاً وأخراً.. كما دعوت لمايكل مور بالهداية..!

تخيل مور أن الله قد تدخل أثناء تأليف هذا الكتاب ووضع هذا الفصل بنفسه، ولأن الله علمه مباشر ويقينى، فلا يمكن سؤاله عن مراجعه.. ولذلك خلا هذا الفصل من الإشارات المرجعية..

قال: دأب واحد من البشر على إثارتى فى الآونة

يخاطب مور الأمريكيين إنهم لن يتركوا لكم حتى أطباقهم الفارغة كي تلعقوها!

الأخيرة بتقديم نفسه إليكم على أنه رسولي الشخصي إليكم.. أذكركم بأنني السميع البصير الذي لا تغرب عنه مثقال ذرة في السموات والأرض.. وهذا ما سمعته من هذا الرجل الدعي، «لم يكن في إمكاني أن أصبح حاكمًا لـ «تكساس» لو لم أكن مؤمنًا بأن خطة إلهية تجاوزت كل الخطط البشرية هي التي أرادت ذلك» وقال أيضًا: «أنا أؤمن بأن الله يريدني أن أكون رئيسًا».. لطالما سمعت هذا البوش يدعي أنه يتصرف في الأرض نيابة عني.. وها أنا ذا أقول لكم قولاً قاطعًا: إن هذا الشخص لا يتحدث باسمي ولا باسم أي واحد هنا في السماء.. إنني عندما أريد أن أتحدث إلى البشر فإنني أبعث بنبي حقيقي بكلامي.. وأنا لم أبعث جورج دبليو بوش بأي رسالة على الإطلاق.. إنني لم أرسله للقضاء على صدام حسين.. ولم أرسله لمحاربة أي محور للشر.. ولم يكن من المفترض أصلاً أن يصبح هذا البوش رئيسًا أبدًا.. واعلموا أنني استجبت لدعواتكم وأزحت أباه من الرئاسة.. فلما ظهر ابنه هذا بعد ذلك بثماني سنوات استجبت لدعائكم مرة أخرى فجعلت ذلك الشخص المسمى «آل جور» يحصل على أغلبية الأصوات.. ولكن تدخلت محكمتكم العليا فأفسدت نتائج الانتخابات..

الحق أقول لكم: في بادئ الأمر لم أكن معنيًا كثيرًا بهذا البوش الصغير لأنه وفق خطتي الإلهية.. مخلوق ليكون واحدًا من أبناء الذوات الذين يملأون الحفلات الليلية صخبًا ولعبًا ومرحًا.. هؤلاء الأولاد لهم أهمية كبيرة لكم لأنهم يضحكونكم ويدخلون السرور عليكم ويخففون عنكم هموم الحياة.. ولكن قد يحدث أن يقتل أحدهم شخصًا في الطريق بسيارته وهو في حالة سكر، وهذا قضاء وقدر.. كان جورجي الصغير هذا يؤدي دوره حسب الخطة على ما يرام حتى وقع في أيدي من أفسدنا وجعله يتوب عن الإدمان والصعلكة وإذا به يصبح حاكمًا لتكساس، ثم بعد ذلك رئيسًا لأمريكا.

إنني أخاطب القلة منكم الذين لا يزالون يؤمنون بي فأقول لهم: إنني الله ربكم أما هو فإنه ابن جورج بوش وليس ابن الله.. وعندما ينتهي أجله فسأجعله بين عمال النظافة الذين يترفون على سيارات كبار الأثرياء والساسة عندما أضع يدي عليهم وأجعلهم في نار جهنم خالدين فيها أبدًا.. إنني لم آمر هذا البوش بغزو أي دولة.. لا أفغانستان ولا العراق ولا غيرهما.. والآن كفاكم هذا الصياح الفارغ: «حفظ الله أمريكا»..! ما الذي جعلكم تعتقدون أنكم احتكرتم بركتي دون بقية البشر؟! أنا ليس عندي (خيار وفقوس).. كلكم عندي سواء.. هل سمعتم أحدًا في جيبوتي يقول «حفظ الله جيبوتي» أو «حفظ الله بوتسوانا».. لا تستخدموا اسمي أبدًا لتبرير توجهاتكم العنصرية باعتقادكم أنكم أفضل مخلوقاتي.. أنتم لستم كذلك.. وفي الحقيقة أنتم مصنفون عندي بين أغبى الشعوب على هذا الكوكب الأرضي..!

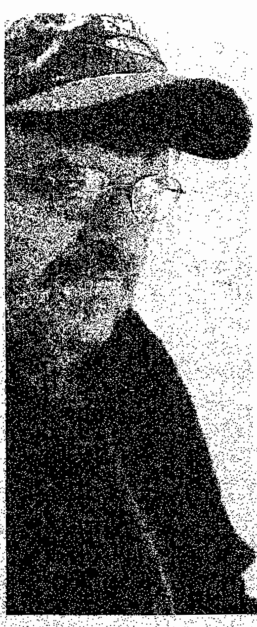
لقد صرح جورج دبليو بوش في الكاتدرائية الكبرى بعد أيام قليلة من حادثة ٩/١١ بأن رسالته الآن هي أن يطهر العالم من الشر.. واعتقد الناس أنه سيفعل ذلك.. ولكنه لم يفعل ولن يفعل.. فإذا كنتم تريدون حقًا أن تتخلصوا من بعض الشرور فابدأوا بأنفسكم أولاً.. إن ترككم للناس هائمين في الشوارع بلا مأوى شر.. وترك ملايين الأطفال جوعى شر وخطيئة.. إذا كنتم تريدون أن تحاربوا صانع الشر أغلقوا على أنفسكم أبواب غرفكم واضربوا أنفسكم لمدة ساعة ضربًا لا هوادة فيه.. ثم اخرجوا جميعًا لهزيمة ذلك الشرير القابع في البيت الأبيض الكبير..

هذه هي رسالتي إليكم فإن تقاعستم عن تنفيذها فسأشويكم في ناري بلا رحمة.

يتحدث مور عن الخوف ببصيرة نافذة فيقول: إذا تمكن الخوف من قلوب الجماهير البسيطة ينكسر فيهم ذلك الرادار الفطري الذي يميز بين الخطأ والصواب، وبذلك يصبح الإنسان عاجزًا عن التمييز بين ما هو حقيقي وما هو زائف.. ويعجب مور لكل هذه الافتراءات والأكاذيب التي صنعتها الحكومتان الأمريكية والبريطانية فيقول: لماذا ذهبت حكومتنا كل هذا المشوار في اختلاق الأكاذيب وتلبيس الأمور علينا لإقناعنا بأن حياتنا أصبحت في خطر؟!..

ولا يجد مور تفسيرًا مناسبًا لذلك سوى أن هذه الحكومات قد تآمرت لكي تحكم العالم وتسيطر على موارده.. ورأوا أن ذلك ممكن فقط بتخويفنا والسيطرة علينا، ثم دفعنا لمساعدتهم في الاستيلاء على باقي هذا الكوكب.. وقد يبدو الأمر على هذا النحو ضربًا من الجنون المطبق.. أليس كذلك؟! وقد يبدو وكأنه سيناريو فيلم من أفلام الرعب!.. وإنه لكذلك.. فقد تملك الخوف أمريكا بعد ٩/١١. ووجد بوش وتشيني وأبالسة المال في وول ستريت فرصة هبطت عليهم من السماء، فانقضوا عليها كما تنقض الحيوانات الجائعة على فريستها.

ينمي المؤلف هذه الفكرة ويتابعها في مجال التطبيق العملي بتفاصيل أكثر في الفصل السابع تحت عنوان غريب هو: هوراشيو ألجر يجب أن يموت: يرى مايكل مور أن أكبر نجاح لما سمي بالحرب على الإرهاب هو أنها اتخذت كذريعة لصرف انتباه الشعب الأمريكي عن حرب الشركات على الولايات المتحدة نفسها وعلى شعبها.. فخلال العامين التاليين لهجوم ٩/١١ انطلقت منظومة رجال المال والأعمال مدعومة بالمنظومة الحاكمة في البيت الأبيض، تعربد بوحشية لتطرح الملايين من الأمريكيين أرضًا وقد جردتهم من مدخراتهم ونهبت معاشاتهم وحطمت آمالهم في حياة كريمة.. فلما ضج الناس بالشكوى كانت إجاباتهم أكثر استفزازًا من صنيعهم.. فقد تنصلوا من مسئولياتهم ونسبوها إلى الإرهاب تارة وإلى إدارة كلينتون السابقة تارة أخرى، بل قلبوا لنا ظهر المجن وقالوا: بل لوموا أنفسكم فأنتم السبب فيما لحق بكم وأنتم السبب في الأزمة الاقتصادية.. والحقيقة - فيما يرى مور - هي أن الشركات الجشعة والحكومة المتواطئة معها هما السبب فيما لحق بأمريكا من أزمات اقتصادية وسياسية واجتماعية.. وهنا يصيح مور قائلاً: يا أصدقائي.. الشركات لديها خطة مشتركة لاغتيالكم.. إننا أمام كائنات بشعة تسعى للسيطرة على حياتنا ومصائرنا.. وإذا استمر الأمر على هذا المنوال فلسوف تصل بنا الحال إلى أن نقسم قسم الولاء لا للوطن ولا للعلم الوطني، وإنما لجنرال موتورز وسيتي جروب وجنرال إليكتريك.. ولن يبقى سوى أن يتخذ هذا الأمر الواقع صيغة قانونية حيث يتم إعلان اسم السلطة الجديدة في الولايات المتحدة لتكون «الشركات الأمريكية المتحدة».



يؤكد مور أن هذا التحول «يحدث تحت أنظارنا ونحن لا نحرك ساكنًا وكأن الأمر لا يعنينا».. وهنا يصل إلى نقطة بالغة الأهمية مفادها كما يقول: «هو إننا نعطى كل يوم نوعين من العقاقير لهما قدرة فائقة على تخدير وعينا، بينما هم يقومون بنهب أموالنا ويتلاعبون بمصائرنا».. تأثير هذين النوعين من المخدرات هو إحداث الخور والتقاعس والشعور بالاستسلام الكامل.. أحدهما هو الخوف والثاني هو ما يسميه مخدر «هوراشيو ألجر».. أما الخوف فقد أشرنا إليه وألمحنا إلى وظيفته وكيف تستغله الشركات الجشعة في قهر الناس واستنزافهم.. ويتحدث مور في هذا السياق على لسان هذه الشركات فيقول:

«إن هناك أناسًا أشرارًا إرهابيين متعطشين لدمائكم ويجب أن تضعوا فينا (نحن قادة الشركات) ثقتكم، فنحن أقدر على حمايتكم وخدمة مصالحكم، ولأننا نعرف ما يضركم وما ينفعكم.. فلا تسألونا كثيرًا عما نفعل.. عليكم فقط أن توقعوا بالموافقة دائمًا على قوانين تخفيض الضرائب عنا، ولا تعارضوا عندما نقلص الخدمات الصحية أو نرفع أسعار المساكن.. وإذا لم تغلقوا أفواهكم ثم تصطفوا خلفنا طواعية أو كرهًا، فسوف نطردكم من

وظائفكم، ثم حاولوا البحث عن مصدر آخر لتوفير العيش لكم ولأسركم إن استطعتم!.. فلن تجدوا أمامكم فى نهاية المطاف إلا أن ترفعوا راياتنا وتهتفوا معنا: بالروح بالدم نحن وراءك يا ريس فى حربك على الإرهاب»!

أما النوع الثانى من المخدرات فهو أسطورة «هوراشيو ألجر».. وكان هوراشيو هذا أحد كُتاب القرن الثامن عشر الأمريكيين.. اشتهر بكتابته القصصية التى عرض فيها شخصيات من الطبقة الكادحة استطاعوا بكفاحهم وجهودهم أن يحققوا لأنفسهم ثروات طائلة ويرتفعوا إلى أعلى الطبقات الاقتصادية والاجتماعية. والرسالة التى تروج لها قصص «هوراشيو ألجر» هى أن الأرض الأمريكية منجم فرص لا ينضب، ويستطيع كل إنسان أن يغترف منه إذا اجتهد..

يقول مور: «لاتزال هذه الأسطورة تداعب خيال كل الأمريكيين حتى اليوم.. وقد رأت النخبة الغنية المسيطرة أن تستخدمها جزرة تلوح بها أمام الطبقات العاملة، حتى لا يرتفع صوتها بأى معارضة للامتيازات والصلاحيات التى يحصلون عليها من الدولة.. بحيث تنتقل إليهم السلطة الحقيقية فى البلاد تدريجياً، إلى أن يتمكنوا من السيطرة الكاملة عليها.. بينما الطبقات العاملة مستمرة فى استرخائها تجتر أحلام الثروة بلا معارضة، عسى أن يأتى يوم ويتحقق فيه هذا الحلم.. وعندئذ يمكنهم أن يشاركوا فى الاستمتاع بهذه الامتيازات».

ويرى مور أن تأثير هذا الحلم على الطبقات العاملة بالغ الخطورة، فعندما فتح الأغنياء الطريق سهلاً أمام الأغنياء للمضاربة بمدخراتهم فى البورصة، وأغروهم بشراء الأسهم للمشاركة فى هذه اللعبة المربحة.. وضع الأغنياء كل ما لديهم من مدخرات وراحوا يلهثون وراء السراب، بينما يحثهم الأغنياء على شراء مزيد من الأسهم.. وفى نهاية اللعبة تحولت هذه الأموال إلى جيوب الأغنياء.. وهبطت الكارثة فجأة على الفقراء وإذا بكل مدخراتهم تتبخر فى الهواء. لقد ذهبت هذه المضاربات بأكثر من أربعة تريليونات دولار هباء، كما ضاع فيها تريليون دولار من صندوق معاشات العمال.. والغريب أنه بعد هذا كله.. وبعد أن حصد الأغنياء كل هذه الأموال يحصلون من الكونجرس على موافقة جديدة لتخفيض ضرائب الشركات.

ويعلق مور مخاطباً الأمريكيين قائلاً: أيها السذج المخدوعون إنهم لن يتركوا لكم حتى أطباقهم الفارغة كى تلعقوها!

كتاب مور حافل بالوقائع المذهلة والقصص المثيرة عن جشع أصحاب المال والشركات الأمريكية.. وتلاعبها بالناس.. ويكشف عن أسرار وفضائح الشركات التى جرى التعتيم عليها فى الإعلام الأمريكى.. فى هذا السياق يتحدث مور مثلاً عن أسرار انهيار شركة إنرون وعن علاقاتها الوثيقة بالرئيس بوش ونائبه ديك تشينى.. كما يتحدث عن أشياء أخرى يصعب على العقل، بل الخيال استيعابها، منها - على سبيل المثال - أن بعض الشركات اخترعت للعاملين فيها وثيقة تأمين تدفع أقساطها من أجورهم، ولكن لا تصرف قيمتها عند وفاة العامل لورثته، وإنما للشركات ليتمتع بها الرؤساء الكبار ولينفقوا منها دون حسيب أو رقيب.. هذه الوثيقة تسميها الشركات «وثيقة تأمين على موتى الفلاحين»!

يقول مور معلقاً: «انظر.. أنت عندهم لست أكثر من فلاح أجير.. وحياتك لا تساوى عندهم شيئاً، فأنت ميت عندهم أفضل منك حياً..!».

هكذا يمضى مايكل مور فى محاولته لإيقاظ الأمريكيين من حلم الثراء الذى لا يتحقق أبداً للفقراء.. ونحشد صفوفهم لتحطيم أسطورة أخرى، هى أسطورة الأقلية الفاشية من الجمهوريين الأصوليين، الذين يسيطرون على البيت الأبيض فهم لا يمثلون غالبية الشعب الأمريكى الذى يميل إلى الفكر الليبرالى وإلى التسامح والرغبة فى مساعدة الآخرين..

يحاول مور فى كتبه وأفلامه جميعاً تغيير أفكار الأمريكيين وحفزهم على العمل لتغيير الإدارة الإمبريالية المتعصبة، وإحلال إدارة أخرى ليبرالية تمثل إرادة الشعب الأمريكى متحررة من الخوف والخنوع.. وهذه هى الرسالة التى حملها مور على عاتقه، وعبر عنها بأساليب إبداعية فى كتبه وأفلامه، التى حازت من الانتشار والشهرة درجة لا يمكن لمثقف جاد معنى بالقضايا العالمية أن يتجاهلها. ■

كتاب الزاوية

قيم وتقاليد القضاء

القضاء أسمى مهنة عرفتها البشرية منذ وعت. فيه تعصم الدماء وتسفح وتطلق الحريات وتقيد، وتحفظ الأموال وتنزع، ويعلم ما يجوز من المعاملات وما يحرم.

ولا يحمد قضاء ما لم يكن العدل مبناه ولا عدل إلا بقضاء ولا صحة لقضاء إلا بالعدل، وبالعدل يقدس الوجود ويصلح أمر الدنيا، فكان ضياء كل حضارة رسخت وهو قوام الآخرة. وما العدل إلا اسم من أسماء الله الحسنى وصفة من صفاته جل سبحانه، استخلف فيها القاضى وأوصى بالعدل أنبياءه حين استخلفهم القضاء فى الأرض. قال تعالى: (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط) الحديد: ٢٥ . (يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) ص: ٢٦ .

ومنذ قيام الدولة التى تعددت فيها السلطات وإذا كان القضاء إحدى سلطاتها، قامت له القيم والتقاليد التى تتحكم فى تلك السلطة وتحكم أمر رجال القضاء القائمين عليها.

وقد نشر المستشار سمير ناجى نائب رئيس محكمة النقض ومساعد وزير العدل ومدير المركز القومى للدراسات القضائية (مصر) الجزء الثانى من دراساته وأبحاثه فى القانون الجنائى بعنوان «بحوث فى الشئون القضائية» وتركز حول قيم وتقاليد القضاء وتأصيل النصفة وآداب المرافعة ولغة الأحكام. واخترنا مقتطفات من هذا الكتاب الصادر عن دار النهضة العربية عام ٢٠٠٦ .



1 - Baghdad Burning: Girl Blog from Iraq
(بغداد تحترق: مدونة فتاة عراقية)
Riverbend
Feminist Press, 286pp., $14.95

2 - Baghdad Burning II: More Girl Blog from Iraq
(بغداد تحترق«٢»: المزيد من مدونة فتاة عراقية)
Riverbend
Feminist Press, 190pp., $14.95

3 - Night Draws Near: Iraq's People in the Shadow of America's War
(الليل يقترب حثيثا: الشعب العراقى فى ظل حرب أمريكا)
by: Anthony Shadid
Picador, 507PP., $15.00

4 - In the Belly of the Green Bird: The Triumph of the Martyrs in Iraq
(انتصار الشهداء فى العراق)
by: Nir Rosen
Free Press, 264pp., $26.00

بترتيب خاص مع:
The New York Review of Books

ترجمة بثينة الناصرى

** أحيانا لا شىء يأخذ الألباب مثل مواضيع الحياة اليومية. تأملوا «بغداد تحترق» اليوميات التى تكتبها شابة بغدادية على الإنترنت والتى تسمى نفسها «ريفربند» تبدأ قصتها فى صيف ٢٠٠٣ بعد خمسة أشهر تقريبا على الغزو الأمريكى وفى نهاية الكتاب الذى جمع هنا بمجلدين، تقدم لنا أوسع مشهد عراقى للحرب حتى هذه اللحظة. فى إحدى اليوميات تصف محاولاتها المأساوية الهزلية لمحاربة الملل وهى ترافق شقيقها وابن عمها فى مهمة لملء خزان السيارة بالوقود من محطة البنزين القريبة.(وتروى لنا أنها استسلمت بعد أول ست ساعات، واضطر الشابان للبقاء سبع ساعات أخرى). وهى توثق جولات الشراء حيث تلاحظ ازدياد عدد النساء اللاتى بدأن يرتدين الحجاب أو تتحدث عن الجهد اليومى للتكيف مع انقطاع القوة الكهربائية مثل تشكيل كتيبة جرادل لملء خزان المياه فى سطح المنزل. وتقدم تعليمات حول كيفية التصرف إذا لاحظت جنودا يحاصرون شارعكم:

أسهبت عمتى فى لعناتها ضد المداهمات والقوات والتهيب ثم هدأت وقررت أنها لن تخفى الذهب هذه الليلة، بل سوف ترتديه أنا وابنتها. تسمرت فى مكانى وفمى مفتوح، فمن يستطيع منعهم من انتزاعه منا؟ هل كانت مجنونة؟ كلا لم تكن مجنونة، سوف نرتدى القلائد ونخفيها تحت ملابسنا والبقية فى جيوبنا.

واستمررنا فى نشاطاتنا المسائية المعتادة، تقريبا.. كانت عمتى تريد أن تستحم ولكنها كانت خائفة أن يقرروا مداهمة البيت فجأة وهى فى الحمام. فى النهاية قررت أن تدخل الحمام ويقف أخى (ى) فوق السطح لمراقبة الطريق وفى اللحظة التى تدخل فيها مركبة مدرعة أو دبابة شارعنا عليه أن يحضر عمتى لتسرع بارتداء ملابسها.

ها نحن الآن فى الساعة العاشرة مساء، بدون كهرباء وفى كامل ملابسنا لأننا لا نريد أن يداهمونا ونحن فى بيجاماتنا. لم أرتد بيجامة فى الأشهر الستة الأخيرة.

يمكن أن نغفر للأمريكان تصديقهم بأننا نعرف شيئا عن الحالة فى العراق. إننا نسمع عنها كل يوم وتفاصيل دقيقة ولكن فى الواقع ما نعرفه عن حياة الأفراد العراقيين لا يذهب إلى أبعد من رأى سريع منتبس أو إحصائيات إصابات المدنيين. ليس لدينا (كأمريكيين) سوى القليل من انطباعنا عن العراقيين كبشر يحاولون أن يعيشوا حياة أكبر وأعقد من الحرب التى تحيطهم وفى كثير من الأحيان تنتهى بأن نتطلع اليوم على أنهم مجرد توابع للصراع. وقد ساعدت اللغة التجريدية للسياسة الخارجية والالتزام باللباقة إلى حجب الحقائق من جانب الصحافة والتليفزيون حيث يحظر عرض صور الموت اليومى المقززة إلى حد لا يصدق. تخبرنا ريفربند أن أحد جيرانها كان مفقودا منذ أن قاد سيارته فى أحد أيام أبريل أثناء دخول الأمريكان مدينة بغداد. وقد قضت عائلته الأشهر الخمسة الأخيرة فى محاولة معرفة مصيره الأخير:

...تتبعوا طريقه من البيت إلى حى الجامعة حيث يعيش أبواه، وكانوا يتوقفون عند كل سيارة محروقة لفحصها وسؤال الناس فى المناطق المحيطة إذا ما كانوا قد شاهدوا سيارة تويوتا موديل ١٩٨٥ يقودها رجل فى الأربعين من عمره؟ ربما أطلقت عليها دبابة النيران؟ ربما قصفتها أباتشى؟ كان الناس يبدون العطف ولكنهم عاجزون عن المساعدة. لم يروا تويوتا بيضاء.. بل كيا بستة ركاب وسيارة فولكس واجن فيها أم وأب وطفلان.. ولكن لم ير أحد سيارة تويوتا بيضاء. وفى كل مرة كان الناس يشيرون إلى المقابر الجماعية المتناثرة على امتداد الطرق الرئيسية والتى دفنوا فيها ضحايا الغزو..

بعض تلك القبور عليها لافتات من ورق مقوى مغروزة بين كوم صخور لمساعدة أفراد العائلة إذا جاءوا للبحث عنهم، مكتوب عليها: ذكر بالغ، أنثى بالغة، طفلان فى سيارة مرسيدس سوداء. ذكر بالغ، طفل صغير فى بيك أب أبيض.

أخيرا وجدوه هذا الصباح. فى منطقة خارج طريقه المعتاد. كانت سيارات عديدة محروقة وقد سحبت إلى أرض مترية وليس بعيدا عن المقابر تقبع سيارة تويوتا موديل ١٩٨٥ وقد تحولت

يمكن أن نغفر للأمريكان تصديقهم بأننا نعرف شيئا عن الحالة فى العراق. إننا نسمع عنها كل يوم وبتفاصيل دقيقة ولكن فى الواقع ما نعرفه عن حياة الأفراد العراقيين لا يذهب إلى أبعد من رأى سريع مقتبس أو إحصائيات إصابات المدنيين

... وماذا عن العراقيين؟

كرستيان كاريل

مقاعدها إلى هيكل عظمى. وقريبا منها وجدوا قبرد مكتوبا عليه (ذكر بالغ فى سيارة تويوتا بيضاء) وبمساعدة أهل المنطقة المتعاطفين تم نبش قبر أبو رعد للتعرف عليه.

بالتأكيد هناك الكثير من السياسة فى يوميات رفريند: فهى معارضة متحمسة ضد الاحتلال وكتابتها تتقد بالغضب والإحساس بالكرامة. وبما أنها قارئة جيدة للصحافة والانترنيت فهى تدرك تفاوت وجهات النظر الأمريكية حول الحرب. وهى لديها وجهة نظر خلاصة (أن يكون الاحتلال قد أطلق تعدد وسائل الإعلام التى استفادت منها رنفريند هو أحد المفارقات الكثيرة التى تنطبق على قصتها).

حين نسمع بأن القوات الأمريكية فى العراق يقاتلون «الإرهابيين» تكتب أن الحكومة المعينة من قبل أمريكا تتضمن عدة أعضاء بارزين من حزب الدعوة الإسلامية الذى كان وراء سلسلة من التفجيرات التى قتلت مدنيين عراقيين فى الثمانينيات.

(كثير من الدول الغربية تشارك تقييم ريفريند عن الجماعة فى بدايات الثمانينيات) وحين تسمع أن واشنطن تطمح إلى زرع الديمقراطية فى العراق، تشير إلى اضمحلال حقوقها كامرأة تدريجيا بصعود التطرف الدينى الذى ترمله نصر الأحزاب السياسية التى جاء بها الأمريكان للسلطة وحين يتحول الحديث إلى الأضرار الجانبية تؤكد أن «الذاكرة الممتدة تقتصر على الآثار النفسية الأمريكية» أما بقية العالم فيجب أن «يضعوا الماضى خلف ظهورهم» و«يتحركوا إلى الأمام» و«يكونوا براغماتيين» و«يتغلبوا عليه».

إنه حكم قاس ولكن من الضرورى الاستماع إليه. والمفارقة الواضحة فى كل هذا واضحة. إن كاتبة هذه الكلمات شابة تعمل مبرمجة كومبيوتر (وعمرها الآن ٢٧) ولغتها الإنجليزية الماهرة (التى اكتسبتها من وجودها فى الخارج لمدة طويلة فى طفولتها) يمكن أن تخجل الكثير من الأمريكان. ومعرفتها بالثقافة والمبادئ الأمريكية تطفو باستمرار على السطح. وبالتأكيد فإن وعيها العميق بالجدل والخطاب السياسى الأمريكى هو الذى يتصدر كتاباتها. وإذا كان أى عراقى يمكن أن يعى الخطة الديمقراطية الكبيرة المرسومة للعراق فهى هذه الفتاة. ومع ذلك، وكما يوضح كتابها بشكل كبير ربما تكون هى ومحتلوها يقيمون مؤقتا فى نفس البلاد، ولكنهم يستمرون فى العيش فى عالمين مختلفين.

فى نهاية مايو ٢٠٠٣ بعد وقت قصير من بدء الاحتلال رسميا، باشر مراسلان للواشنطن بوست فى تجربة مهمة. ففى حين كان مراسل البنتاجون توماس ريكس مؤلف كتاب Fiasco: The American Military Adventure in Iraq Penguin, 2006 يرافق دورية أمريكية فى جولاتها حول أحياء الطبقة المتوسطة فى بغداد، كان زميله عربى الأصل انطونى شديد، يتبع خلفه يسأل العراقيين حول رأيهم بتواجد الأمريكان. قال جندى من لويزيانا لريكس بثقة: «الكل يحبنا». فى هذه الأثناء وكما يروى شديد فى كتابه (الليل يقترب حثيثا):

... عند زاوية الشارع كان هناك رجل اسمه محمد إبراهيم يقف على الرصيف أثناء مرور توم ودورية من عشرة جنود.

وقد وصف الحضور الأمريكى بكلمة «حقير» كان الرجل البالغ أربعا وثلاثين سنة يرتدى دشداشة بيضاء وقد تجهم حين مرت الدورية: تسعة منهم كانوا يحملون بنادق آلية معلقة على صدورهم والعاشر كان طبيبا. كان تجهم إبراهيم يعكس إحساسه بالإهانة. «نحن ضد الاحتلال. إننا نرفض الاحتلال ليس مائة بالمائة ولكن ألفا بالمائة. إنهم يمشون على قلبى. أحس كأنهم يسحقون قلبى».

وخلال مقابلات شديد تعرف على بعض المواطنين الذين يرحبون بالأمريكان «على أمل أن يقدموا نوعا من الحماية بعد أسابيع من النهب» آخرون يعبرون عن ارتياح للإطاحة بصدام. وسرعان ما أصبح واضحا أن الاختلاف فى الرأى يعود إلى اختلافات طائفية: كان السنة ضد الاحتلال والشيعة أقل رفضا له. امرأة شيعية أبلغت شديد بأنها تخشى ما سيحدث إذا غادرت القوات الأمريكية: «إذا انسحب الأمريكان سوف تحدث مجازر بين العشائر والأحزاب وبين السنة والشيعة طبعا». ثم أسرعت بالقول «لا أحد يقبل باحتلال وطنه والجميع يريدون الحرية».

كانت المرأة البغدادية فى ذلك الشارع فى حى اليرموك تعرف شيئا حول مشاعر مواطنيها الأساسية وهشاشة مجتمعها ولكن هذا قد خفى ليس فقط على الجنود الأمريكيين الذين يتجولون فى الشارع ولكن كما يبدو على مخططى الغزو أيضا. لقد انصب الاهتمام داخل الولايات المتحدة على فشل إدارة بوش قبل الغزو فى فهم الوضع الحقيقى لبرامج صدام لتطوير أسلحة دمار شامل. ومع ذلك كان هناك الكثير من التحليلات السطحية لعجز الحكومة الفاضح لتكوين صورة واضحة للرأى العام العراقى وترددها لدراسة تاريخ وثقافة البلاد التى كانت على وشك المبادرة بأكثر تجارب بناء الدول طموحا منذ الحرب العالمية الثانية.

حين قام بول بريمر وهو رئيس حكومة الاحتلال حتى نقل السيادة الاسمية إلى العراقيين، بحل حزب البعث والجيش العراقى بسرعة وبهذا فكك الدولة العراقية بضربة واحدة، أدرك الكثير من العراقيين بأنهم وصلوا إلى خط تاريخى فاصل، ولكن الأمر استغرق من واشنطن والرأى العام الأمريكى وقتا أطول لإدراك

هذه الحقيقة. في بعض الوقت غازل بريمر فكرة التلاعب بالانتخابات المدبرة من أجل السماح لمشاركة سنية أكبر كوسيلة لتهدئة (المتمردين) ولكن مستشاريه فوجئوا تماما حين دعا آية الله على السيستاني وهو المرجعية الروحية للشيعة العراقيين، إلى الاحتجاج العام الذي قتل الفكرة في مهدها. كما أن الأمريكيين لم يتوقعوا صعود مقتدى الصدر رجل الدين الشيعي الشاب الذي برز من ظلال النسيان ليصبح أكبر خطر مفرد يهدد نجاح الاحتلال حتى الآن. ويروى انطوني شديد كيف أن أحد خبراء واشنطن العرب المهيمين في بغداد قلل من أهمية الصدر باعتباره «مثير شغب صغير».

يرجع هذا الخطأ في القراءة إلى الكثير من الأسباب. واحد منها هو طبيعة انتقاء الخبراء الإقليميين الذين استعانت بهم الإدارة في خططها. فالمنفيون العراقيون أمثال أحمد الجلبي وإياد علاوى كانوا يبلغون صانعي السياسات بما يريدونه وما يتوقعون أن يسمعوه بأمل الحصول على السلطة السياسية ثمنا لخدماتهم. أما المنتقدون الخارجيون فلم يحظوا بأي فرصة للإنصات إليهم. أما خبراء الحكومة الذين يتناقض تفكيرهم مع أيديولوجية الإدارة فقد تم تجاهلهم (أشهر قضية كانت جمع الخطط الهائلة التي أعدتها مجموعة من محللي وزارة الخارجية والمهاجرين العراقيين). كما أن أحد الأسباب أيضا اللامبالاة التي تسود الجو العام تجاه ثقافة العالم الإسلامي وكل ما هو غير إسرائيلي في الشرق الأوسط. وكما أشار مقال افتتاحي في واشنطن بوست مؤخرا، بعد خمس سنوات على أحداث ١١ سبتمبر مازال مكتب التحقيقات الفدرالي لديه ثلاثة وثلاثون خبيراً فقط يستطيعون التحدث بالعربية ومعظمهم ليس بطلاقة. («ما لا يعرفه مكتب التحقيقات الفدرالي» الواشنطن بوست ١٦/١٠/٢٠٠٦).

والبنتاجون ووكالة المخابرات المركزية ليسا أفضل حالا. (انظر مثلا «هل تستطيع التمييز بين السني والشيعي؟» بقلم جيف شتاين. نيويورك تايمز ١٧/١٠/٢٠٠٦ وقد أوردت المقالة أمثلة على كيف أن مسئولي ونواب الحكومة الأمريكية في مواقع القيادة في الحرب على الإرهاب يجهلون بعض أكثر الحقائق الأساسية عن الإسلام).

ولهذا لا ندهش إذا كان الخطاب الأمريكي حول الحرب ينتهي عادة بالكلام عن السياسات الداخلية الأمريكية أكثر من العراق ذاته. داخل الولايات المتحدة، يتجادل السياسيون والمعلقون بحرارة حول قضية ما إذا كان ما يحدث هناك يعتبر (حربا أهلية). وفي العراق ليس هناك جدل مشابه حسب علمي. ويمكن للمرء أن يفترض أن مثل هذا الجدل، سيكون في غير محله حين يموت مائة عراقي (في دولة من ٢٩ مليون نسمة) كل يوم من عنف متبادل. وفي دولة بمثل عدد سكان أمريكا فإن الخسائر المعادلة ستكون أكثر قليلا من ١٠٠٠ شخص كل يوم أو بما يعادل مجزرتين من (١١ سبتمبر) كل أسبوع. وقد قامت سابرينا تافيرنيس الصحفية في نيويورك تايمز التي قضت معظم السنوات الثلاث الأخيرة في العراق بتعقب آراء العراقيين العاديين وتجاربهم اليومية، وقد كتبت بعد قليل من الانتخابات النصفية الأمريكية بأن عدداً كبيراً من طبقة السياسيين الجدد في بغداد رغم أنهم يؤكدون أهمية الانتخابات ولكنهم يعتبرونها غير ذات صلة بمصير بلادهم. («التحول السياسي الأمريكي فيما يتعلق بالحرب يقابله تجاهل من صفوة بغداد» نيويورك تايمز ١٠/١١/٢٠٠٦). ليس هناك نقص في الاهتمام بالأصوات القادمة من العراق. وحين أسأل قراء مطبوعتي نيوزويك «ما هو أكثر شيء يفتقدونه من التغطية الراهنة، يكون الجواب مفاجئا عادة «بماذا يشعر العراقيون العاديون؟» وإلى جانب المصادر المذكورة في هذه المقالة، فالعلاج بالتأكيد هو تكاثر مدونات العراقيين. (انظر مثلا عدد المدونات العراقية في iraqblogcount.blogspot.com وأشهر مدونة إلى جانب رفريند هي مدونة سلام باكس وللأسف لم يكتب فيها منذ فترة. وبعض كتاباته موجودة في كتابه (اليوميات السرية لعراقي عادي) (جروف برس ٢٠٠٣).

إن الجملة البسيطة «علينا أن نستمع للأصوات العراقية، تطرح سؤالا مهما. في بحثنا عن وجهات نظر عراقية أصلية، لمن نستمع؟ من يستطيع أن يدعي أنه يتحدث على لسان مواطني بلاده حيث نجد حواجز الفهم - تبعا للاختلافات في المعتقدات الدينية والعرقية والطبقية معقدة جدا؟ في حالة رفريند، يحدث ذلك وأخطاء الفتاة البغدادية الشابة وحدودها هي التي تجعل نصوصها تستحق القراءة. هي ابنة عائلة من الطبقة الوسطى العليا، وهي مسلمة تقدمية وعراقية وطنية مثالية مصممة على أن توضح لقرائها الأمريكان المستوى العالي للتطور الثقافي والاقتصادي في العراق. وهي في نفس الوقت جاهلة بالجوانب المظلمة في نظام صدام (كما تعلمنا بنفسها فبعض المراسلات على بريدها الإلكتروني تتهمها بأنها بعثية وهذا ما تنكره بشدة. وأنا أصدقها. كان هناك الكثير من العراقيين الذين استفادوا من نظام صدام بدون الانضمام إلى الحزب).

فهي تقول في أحد نصوصها «البعض قد يقول إن الكرد كانت لهم حقوق كاملة حتى قبل الحرب. وفي مكان آخر تقول «أغلبية العراقيين لديهم احترام كامل للثقافات والأديان الأخرى». وتدين السياسات الأمريكية التي تبدو لها تهدف لتقسيم العراقيين إلى مجتمعات عرقية وطائفية وتؤكد بتفصيل عن أصول عائلتها المختلطة سنة وشيعة.

وفيما القصة تستمر، تتبدى الحقيقة. يخرج الشيعة إلى الشوارع بطقوس حدادهم وجلد أنفسهم التي منعتها حكومة صدام. وبالنسبة لرفريند، فإن هذا منظر فظيع قائلة:

هذه المواكب كانت محظورة في الماضي وبصراحة أتمنى أن تكون محصورة في مناطق معينة. إن منظر كل هذا العنف (حتى لو كان تجاه الذات) يثير شيئا من الفزع، هذا بالنسبة للجانب الشيعي من أصلها المختلط.

وبنفس الطريقة تشعر بالاحتقار للنواب الشيعة الذين صعدوا إلى السلطة تحت الاحتلال. وهي تحتقر المجلس الأعلى للثورة الإسلامية وهو الحزب الشيعي المرتبط بإيران وهي تعتبره عميلا إيرانيا. ولكنها تتجاهل أن قادته وبضمنهم رجال دين يتحكمون في طاعة عدد كبير من السكان الشيعة. كما أنها لا تعير شأنا لآية الله السيستاني وهو المرجع الروحي للشيعة باعتباره إيرانياً. مثل هذا الاحتقار كما يفعل الكثير من العراقيين الذين يشاطرونها الرأي يستهين بالتأثير العميق للانتخابات التي رعتها سلطات الاحتلال. وقبل إجرائها توقعت ريفريند أن تكون الانتخابات ورقة التين للسلطة الأمريكية في حين أنها كانت لحظة مهمة للكثير من الذين أدلوا بأصواتهم.

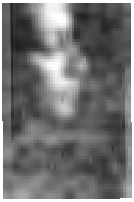
وبهذه الاستهانة، تذكرني ريفريند بالوطنيين السوفييت الذين فشلوا في فهم الأحداث التي سارعت بنهاية الاتحاد السوفيتي. الكثير منهم عاشوا معيشة طيبة في ظل النظام وكانوا غير قادرين على رؤية جرائمه على حقيقتها مما جعلهم ينكرون أو لا يفهمون حين بدأ المقموعون في التعبير عن مطالبهم السياسية.

في ٢٠٠٣ دخل التحالف الذي تقوده أمريكا العراق الذي أنهى قرنا من الاستعمار والثورة والاضطراب الاجتماعي والانقلابات المتعددة (المشهورة بالقتل العلني للزعماء السياسيين) وحكومة شمولية حتى قبل أن يصل حزب البعث إلى السلطة في ١٩٦٣ ثم في تموز ١٩٦٨ وبعد وصول صدام للرئاسة في ١٩٧٩ دخلت البلاد

إذا كان أي عراقي يمكن أن يعي الخطة المرسومة للعراق فهي هذه الفتاة. ومع ذلك، وكما يوضح كتابها ربما تكون هي ومحتلوها يقيمون مؤقتا في نفس البلاد، ولكنهم يستمرون في العيش في عالمين مختلفين









حكما شموليا لمدة اثنتين وعشرين سنة. وشملت أحداث هذه الفترة حربا لمدة ثماني سنوات مع إيران وهجمات على الأكراد وإرهابا سياسيا استهدف الزعامة الدينية الشيعية والمؤسسات الدينية. وغزو الكويت والهزيمة في عملية عاصفة الصحراء واثني عشر عاما من عقوبات ما بعد الحرب التي أفقرت العراق ودمرت البنى الاجتماعية التي كانت محط الحسد فيما مضى. وكان الحظر الذي تفرضه الدولة أحيانا على المناقشات السياسية قد أعاق التعامل مع تأثيرات كل هذا التاريخ مما أدى في مستويات عدة إلى تشظي المجتمع الذي لم يعد يعرف نفسه. ويقول كل من شديد ونير روزن في كتابه (في بطن الطائر الأخضر) إن الكثير من العراقيين من السنة العرب الذين يصادفونهم يؤكدون بشدة أن السنة يشكلون ٦٠٪ من السكان.

هذا لا يعني أن منظور رفريند يجعلها بلا قيمة (إنها اعترفت بنفسها أن يومياتها ليس المقصود منها أن تكون بديلا للتاريخ. انظر مقالة فراس الأطرقجي (مدونة عراقية توثق التاريخ) الجزيرة نت ٦ أبريل ٢٠٠٦).

على العكس فإن حماستها هي سر قوتها. وتكمل قصتها بقوة عراقية أخرى تكتب يومياتها وهي أمل سلمان، فتاة شيعية تشكل نصوصها العمود الفقري لكتاب انطوني شديد المهم. ومما يزيد من قوة نصوص أمل هو خلفيتها: حين يقابلها شديد قبل الغزو الأمريكي كانت في الرابعة عشرة من عمرها، واحدة من ثمانية أطفال لامرأة قوية اسمها كريمة سلمان تناضل من أجل إعالة أسرتها الفقيرة في ظل التهديد القائم بالحرب الوشيكة. وفي يومياتها تكشف أمل أفكار طفلة تجابه الحيرة أمام وحشية الحرب. وحين تتحول الحرب إلى احتلال تتحول الفتاة من أسلوب «حماسة المخلص» إلى طرح الأسئلة فتقول «اعتدنا أن نضع ثقتنا بالرئيس صدام حسين ولكن الآن لا نعرف بمن نثق».

وسرعان ما يستلق الشوق بأفلام فيديو تصور (فظائع) النظام:

«عدي ابن صدام حسين كان أكثر شخص فاسد على وجه الأرض» كتبت ذلك بعد مشاهدة الأفلام لمدة يومين ما بين انقطاعات الكهرباء. «أي فتاة كان يريدها يأخذها. لم يكن أحد يستطيع أن يقول شيئا لأنه ابن الرئيس. وابنه الآخر قصي كان قاسيا أيضا مثل أبيه».

وبعد شهر من انهيار حكومة صدام، تذهب إلى المدرسة لأول مرة بعد الغزو. وتطلب منها المدرسات ومن زميلاتها أن يمزقن صور صدام من الكتب. ثم يحذرهن ألا يلبسن بنطلونات ضيقة «لأن هناك من يختطف الفتيات» ثم تصاب أختها هبة في انفجار سيارة مفخخة في شارعهم. إن قوة شديد كصحفي هي قدرته على تشجيع من يلتقيهم على حكاية قصصهم أينما كان ذلك ممكنا وبطريقتهم الخاصة وفي نهاية كتابه تتكون لدينا صورة واضحة وكاملة لامرأة شابة تجد صوتها وسط الفوضى والخراب.

هذا التناقض بين التمكين والتعامل بوحشية يسري في كتاب شديد البانورامي الذي يسجل خبرات من كل نوع وتتراوح من فترة ما قبل الحرب وإلى نهاية السنة الأولى من الاحتلال. يصف مثلا جنازة ولد قتل في قصف أمريكي، وهو يعيد بناء عالم ودوافع أحد أوائل أعضاء (التمرد) السني: رجل ريفي يدفعه إسلامه العميق إلى الموت في هجمة غير مدروسة على قوات أمريكية. كما يروي شديد قصة أب يجبر بالعرف العشائري على قتل ابنه الذي اتهم بالتعاون مع الأمريكيين. وفي جامع في مدينة الصدر الفقيرة في بغداد يراقب شديد رجل دين شيعيا مواليا لمقتدى الصدر وهو يتعامل مع أصحاب عرائض وهو دور جديد لرجال الدين لم يكن معروفا في عراق صدام.

والطلبات تتراوح بين المادي والمعنوي - فهناك من يطلب معدات لصنع طابوق وآخر يريد مساعدة في معرفة العثور على شاحنته المسروقة وآخر مساعدة لإعادته إلى وظيفته، ومن يطلب السماح لفتح صيدلية وأسئلة حول الضرائب الدينية (الخمس). وكانت النقود تتدفق على رجل الدين، من مائة دينار إلى عشرة آلاف اعتمادا على نوع الطلب.. وعلى عكس الإداريين الأمريكان والذين يلومهم العراقيون بأنهم يعدون أكثر مما يحققون، كان شويلي جبرا. لا يعد بشيء لا يقدر عليه.

شديد الذي قضى سنوات يكتب من الشرق الأوسط قبل عمله في العراق، يشير إلى أنه رأى مثل هذا النوع من الممارسات الإسلامية سابقا في أماكن تمتد من أحياء اسطنبول الفقيرة إلى مخيمات اللاجئين في غزة. لقد استمرت هذه المعاملات على مدى سنوات وعقود ولكن في العراق أجد نفسي أراقبها تبزغ في خلال أيام وأسابيع. إن الاستماع إلى الأصوات العراقية، وهي استراتيجية بسيطة لا يجيدها سوى القلة من الأمريكان، مكنت شديد من إيجاد وتتبع عناصر هذا الدور الاستثنائي في العراق. وإذا أردنا فهم العراق، يجب أولا أن تكون لنا القدرة على إدراك التحول الجذري الذي حدث فيه.

هذا جانب من المشكلة التي تتجاهلها التغطية الإعلامية للحرب غالبا، ولكن العراق اليوم هو بلاد في قبضة تغيير ثوري. لقد أطاح الاحتلال الأمريكي بمؤسسات نظام صدام بدون أن يقدم بدائل جديدة. لقد ازدهرت تعددية في التعبير (بضمنها الفضائيات والصحف المتنافسة والهواتف الخلوية) مما سمح للعراقيين بمناقشة مشاكل مجتمعهم بحرية مازالت نادرة في العالم العربي (أصبحت حرية الصحافة الآن تحت ضغط شديد من الأحزاب السياسية والميليشيات ولهذا فقد قتل الكثير من الصحفيين ولهذا هناك شك حول ضيق المدى الذي تستطيع أن تغطيه وسائل الإعلام الآن).

في حين فشل الاحتلال في تقديم الخدمات الأساسية أو التعامل مع البطالة المنتشرة. وقد نظم انتخابات ديمقراطية وحث نمو المجالس المحلية بدون معالجة الأوضاع التي تمنع هذه المؤسسات التشاركية الجديدة من ممارسة سلطة حقيقية - وراقب بعجز أشكالا أخرى من تأكيد الذات الاجتماعية تقوم بأدوارها مثل رجال الدين الذين كتب عنهم شديد. ولكن الأكثر كارثية كان عجز حكومة الاحتلال من توفير أدنى مستويات الأمن للعراقيين - مما أدى إلى توسع وانتشار الميليشيات الموجودة أصلا وتشجع على نمو أخرى جديدة.

يفترض الكثير من المعلقين الأمريكيين خطأ أن الحريات الديمقراطية التي جاء بها الأمريكان سمحت بمكامن الضعف في المجتمع العراقي أن تطفو إلى السطح (انظر مثلا فؤاد عجمي الذي يعكس في كتابه الأخير أن فوائد الاحتلال هي «عطية» لا يستطيع العراقيون الجاحدون تقبلها (عطية الأجنبي: الأمريكان والعرب والعراقيون في العراق) فري بريس ٢٠٠٦).

لقد كان المجتمع العراقي مقسوما دائما بعمق ضد نفسه ولكن مع الاحتلال انقلب رأسا على عقب. فالطبقة المتوسطة تغادر البلاد بسبب هجمات المجرمين والأيديولوجيين القتلة. وطبقا لمعهد بروكنجز فإن السلطات قد أصدرت مليوني جواز سفر منذ أغسطس ٢٠٠٥. ويقدر أن ٤٠٪ من الطبقات المهنية المثقفة العراقية قد غادرت البلاد (www.brookings.edu/fp/saban/iraq/index.pdf).

وقد حلت محلهم صفوة جديدة، باستخدام العنف أحيانا، وهكذا يمكن القول إن هذا ليس نوع المجتمع المدني الذي كان يرجوه الأمريكيون. وهناك شواهد، مثلا، على أن بعض الأحزاب الشيعية قد تورطت بعمليات اغتيالات منظمة ضد المسئولين البعثيين الكبار بضمنهم الشرطة السرية وضباط القوة الجوية الذين قاتلوا ضد إيران في الحرب العراقية الإيرانية في الثمانينيات.

لا شيء يوضح هذا أفضل من صعود مقتدى الصدر، رجل الدين الشاب الذي استفاد من مرارات وأحلام المقهورين الشيعة ليصبح الرجل الأقوى والأكثر إثارة للجدل في العراق اليوم. وهو ابن أحد آيات الله العظمى وكان قد اغتيل في عهد صدام عام ١٩٩٩. والصدر الأصغر يشغل رتبة دينية متواضعة ولكنه استطاع أن يستثمر امتداده العائلي (باعتباره متحدرا من آل الرسول محمد. وهو أيضا صهر محمد باقر الصدر الذي عذب وقتل في عام ١٩٨٠ ومما يثير الاهتمام أنه ابن شقيق محمد الصدر أحد قادة ثورة العشرين ضد الاحتلال البريطاني في ١٩٢٠). ويقدم الصدر نفسه كمناهض للاحتلال من البداية مما أدى إلى اكتسابه ميزة سياسية في وضعه ضد صفوة المرجعية الشيعية القائمة والتي تسمى الحوزة في النجف التي تظل أحد مراكز الشيعة الروحية. وقد صمتت هذه الصفوة عن الوجود الأمريكي في مقابل الأمان في أن تأتي الانتخابات بالنفوذ السياسي للأغلبية الشيعية. وكما يلاحظ نير روزن في صفحات كتابه (في بطن الطائر الأخضر) عرفت عائلة الصدر بثوريتها ونشاطها

السياسي عكس صمت القيادات التقليدية فى الحوزة، وفى بعض الأحيان يطلق أتباع الصدر (المعروفون باسم الصدريين) على معسكرهم اسم (الحوزة الناطقة) فى مقابل (الحوزة الصامتة) للسيستانى الذى يلتزم بتقليد شيعى ينأى به عن التدخل المباشر بشكل واضح فى السياسة.

الصدر يعلن بدون مواربة وطنيته العراقية وأنصاره يحتضنون بفخر العلم العراقى فى مقارنة واضحة مع رايات الأحزاب الشيعية الأخرى التى تؤكد على رمزية المذهب. وحين صعد الصدر وجيش المهدى إلى المواجهة ضد الأمريكيين فى عام ٢٠٠٤، قدم الكثير من السنة دعما حماسيا لتمرده. والصدر الذى بقى فى العراق رغم تنكيل صدام حسين بعائلته، سعيد بأن يلعب على الشكوك المنتشرة على انتماءات خصومه الشيعة الذين لجأوا إلى إيران ويسمون لذلك بالصفويين (نسبة إلى شاه إيران إسماعيل الصفوى) الذى أجبر السنة فى العراق على التشيع حسب مذهبه فى بداية القرن السادس عشر). أما آية الله العظمى السيستانى وهو المرجعية الروحية لمعظم شيعة العراق فقد ولد فى مدينة مشهد الإيرانية ولايزال يتكلم العربية بلكنة فارسية ولكن لا شىء فى سيرته يشى بأنه كان عميلا لإيران. من جانب آخر يعتبر الصدر أكثر شعبية وهو يعبر عن آرائه بلهجة عراقية موغلة بالعامية مما يجعله نقيضا مدروسا للأناقة الكلاسيكية لخصومه الأكثر ثقافة.

قضى روزن وهو صحفى أمريكى آخر يتقن اللغة العربية، معظم وقته يستمع إلى مصلى الجمعة فى الجوامع حيث يشحن القادة الروحيون المؤمنين العراقيين بالخطب ضد الأمريكيين. وهو أحد قلائل الصحفيين الغربيين الذى يتغلغل داخل (التمرد) السنى وكتابه يحوى صورة لا تنسى، من بين أشياء أخرى، عن الفلوجة تحت حكم المجاهدين فى الأيام التى سبقت استيلاء المارينز عليها فى هجوم مدمر فى نوفمبر ٢٠٠٤. ولكن روايته لصعود الصدر هى أهم ما فى الكتاب. فى أحد جوامع بغداد يستمع إلى المؤمنين الشيعة وهم يضيفون إلى الدعاء التقليدى «الصلاة على محمد وآل محمد» «وعجل فرجه (المهدى) والعن عدوه وانصر ابنه مقتدى» (مقتدى)، (المهدى هو الإمام الثانى عشر فى مذهب الشيعة والإيمان بعودته مثل قصة عودة المسيح. وقد اختفى فى عام ٨٧٤ ويتوقع عودته لتخليص العالم من الظلم).

فجأة كان التركمان الشيعة يرددونها فى تظاهرات أمام مقرات سلطة التحالف المؤقتة وكذلك فى كركوك. وبدأ أتباع مقتدى فى ترديدها فى صلاتهم اليومية.

وقد لاحظ روزن أمثلة طريفة أخرى حول رغبة الصدر فى تغيير قواعد اللعبة وقد غطى مؤخرا اندلاع العنف بين الصدر والسنة (انظر مقالته فى بوسطن ريفيو نوفمبر /ديسمبر ٢٠٠٦). فعلى عكس ما جرى اتباعه احتفظ الصدر لوالده بوضع المرجعية وكأنه حى ويقول روزن «بإبقاء الصدر على مرجعية والده المتوفى فقد غير مقتدى قاعدة أخرى من قواعد اللعبة». ورغم أن شديد الذى حظى بمقابلة نادرة مع الصدر يقدم لهجة أقل تشددا من روزن (وكان كتابه فى ذلك الوقت يشبه تفريغ ملاحظات صحفية من الدفاتر) فقد نجح روزن فى التقاط بعض اللقطات الحية تعكس بعض رؤية الصدريين:

على جدران مكتب الصدر، وجدت إعلانات تحث الناس على دعم الشيعة وزرع الأشجار والحفاظ على الحشائش. وفى دكان قريب كانت تباع ملصقات توضع على كتب تلاميذ المدارس وفيها فراغات لكتابة اسم الطفل والفصل والمدرسة والعنوان. كانت ملونة بألوان براقة ومزدانة بالزهور وكل منها يصور مقتدى بطريقة لم أرها من قبل. كان مبتسما ودودا وحتى يحتضن الأطفال. وكل ملصق يحوى أحد أقوال مقتدى مثل «إذا كان المدرس جيدا فالطالب بالتأكيد يكون جيدا». كما يبيع الدكان أيضا سلاسل مفاتيح بشكل قلوب مطبوع عليها صورتا والد وعم مقتدى. وهناك ملصقات للسيارات تصور مقتدى وجيشه على خلفيات طبيعية إحداها كانت فى صحارى جنوب غرب أمريكا وأخرى فى مناطق أدغال وواحدة عند ساحل محيط ما، وهلالان فى السماء (ربما كان مقتدى فى كوكب آخر).

وكما استطعت أن أرى فى زيارتى الأخيرة إلى بغداد فإن حديث الأمريكان عن (حل) الميليشيات مثل جيش المهدى (وهو مطلب نسمعه كثيرا فى واشنطن هذه الأيام) لا يترك صدى فى المجتمعات التى يتجذر فيها هذا الجيش خاصة فى مدينة الصدر وهى مدينة فقيرة يقطنها الشيعة وتقع إلى شمال شرق بغداد حيث تسود منظمة مقتدى السياسية بدون مناقشة. ولا يملك أحد من خصومه أن يدعى أنه مركز قوة مماثلة فى التصاق اتباعه به وطاعتهم له. ولهذا فكثير من العراقيين يعتقدون أن مقتدى قد يصل إلى السلطة فى عراق يحكمه الشيعة.

الكثير من الشيعة فى مدينة الصدر وغيرها يرون فى رجال الصدر الحماية الوحيدة لهم ضد هجمات أعدائهم الطائفيين. كما قال رجل فى مدينة الصدر «جيش المهدى تاجنا. بدونه سيدمر الإرهابيون المدينة. أعضاء الجيش إخواننا وأولاد أعمامنا» وفى حين يستمر آية الله السيستانى فى الدعوة للاعتدال حتى فى وجه الهجمات الإرهابية على السكان الشيعة. فإن الصدر وجيشه اتخذوا موقفا أكثر تشددا وهم يقودون حملات إرهابية خاصة بهم. هذا كان العنصر الرئيسى فى نمو قوة وسلطة جيش المهدى (بعد حادث سيارة مفخخة فى مدينة الصدر، يقال إن رجال جيش المهدى اختطفوا عددا من السنة بشكل عشوائى من أماكن متفرقة من المدينة ثم أعدموهم فى موقع الحفرة التى تسببت بها القنبلة).

وكما يحدث فى الأوضاع التاريخية المقارنة، فإن الخط الفاصل بين البلطجة وتطبيق القانون يضمحل. وقد قال لى ضابط فى الجيش العراقى وهو من أهل مدينة الصدر بأن الميليشيا تتكون من «طيبين وأشرار». «الأشرار يخطفون ويرتكبون كل أنواع الجرائم» أما الطيبون؟ «إنهم يحاربون العادات السيئة مثل المخدرات والدعارة ويمنعون الإرهابيين من الدخول إلى المدينة. هذا هو الجانب الجيد. أما قتل السنة لمجرد أنهم سنة. فهذا هو السيئ».

ويظهر عمق التغيير على أشده فى أحياء بغداد التى كانت فيما مضى مختلطة. فإن موجات الإرهاب الطائفى والتطهير العرقى الذى استولى على بغداد ومناطق أخرى من العراق منذ الاعتداء على ضريح شيعى فى فبراير الماضى اقتلعت مجتمعات كاملة. وحتى أغسطس تحول نصف مليون عراقى إلى لاجئين داخل بلادهم. وفيما كنت أتجول فى بغداد بصحبة دورية أمريكية قابلت بغداديين لا يعرفون جيرانهم، وهو شىء لم يكن ممكنا حتى وقت قريب. فأحياء المدينة كانت أماكن متشابكة بشكل قوى حيث يتشارك الجيران المعلومات والمساعدات متجاوزين خطوط العرقية والطائفية. الآن يجد المهجرون أنفسهم فى أماكن لا تربطهم بها سوى الطائفة. فى الرصافة وهى نصف بغداد التى تقع إلى شرق نهر دجلة قابلت شيعة من أماكن أخرى من المدينة حيث هجرتهم ميليشيات سنية باستخدام التهديد بالاغتيال. (التقيت كذلك بأشخاص من الشيعة انتقلوا إلى المدينة من المناطق الريفية وقد سمح لهم بوضع اليد على أراض خالية. ومن الصعب تخمين مقدار التشجيع الذى تقدمه الأحزاب السياسية الشيعية لهذا. ولكن الكثير من البغداديين يعتقدون أن القيادة الشيعية تعمل على تغيير ديموجرافية الرصافة فى صالحهم).

وخوفا من القتل والتعذيب وبسبب إجبارهم غالبا على ترك أعمالهم وتجارتهم التى تقيم أودهم لم يجد الوافدون الجدد سوى اللجوء إلى الجوامع وأحزابهم السياسية. وكان جيش المهدى يمد سيطرته على الأماكن التى نجح فى (تطهيرها) من الأعداء وقد أصبح فى نظر الكثير من الشيعة، منظمة تقدم المؤن والمأوى. هل تحتاج إلى غاز رخيص للطبخ؟ اذهب إلى رجال المهدى. هل يرفض زوجك زير النساء أن يطلقك؟ سوف يضربه جيش المهدى حتى يستعيد صوابه. وماذا عن الثأر من النواصب (المتأثلين بالسنة) الذين

«عدى ابن صدام حسين

كان أكثر شخص فاسد على وجه الأرض».

«أى فتاة كان يريدها يأخذها. لم يكن أحد يستطيع

أن يقول شيئا لأنه ابن الرئيس. وابنه الآخر

قصى كان قاسيا أيضا مثل أبيه»

«من مدونة عراقية»

طردوك من منزلك؟ سيتم ذلك بدون مناقشة.

وهكذا تستمر دائرة الغضب والثأر. في منطقة الدورة في جنوب بغداد كان في انتظاري مفاجأة. كان السنة الذين قابلتهم وهم عادة مناهضون للاحتلال، يكيلون المديح لجهود الجيش الأمريكي لتطويق الحي بعد أن اجتاحها في الصيف أسوأ أنواع العنف الطائفي. قال لي رجل عجوز «لا نريد أن ينسحب الأمريكان». (وعند تبادل الحديث معه عرفت أنه من أشد مؤيدي صدام حسين). السبب واضح: حين تغادر القوات الأمريكية، سيجد السنة أنفسهم على أكثر احتمال لقمة سائغة لأعدائهم الطائفيين. ويمكن أن يرغم الانسحاب الأمريكي السنة إلى إيجاد حماة لهم من دول المنطقة مما يوسع الصراع في الشرق الأوسط. في أواخر نوفمبر كتب نواف عبيد وهو مستشار للحكومة السعودية معبرا عن أفكاره (الخاصة) في واشنطن بوست، حيث قال «أول الآثار لانسحاب الأمريكان سيكون التدخل السعودي الواسع لإيقاف الميليشيات السنة المدعومة من إيران من ذبح السنة العراقيين» (انظر «الخطو داخل العراق» في واشنطن بوست، ٢٩ نوفمبر في ٢٠٠٦ . في ١٢ ديسمبر نشرت نيويورك تايمز بأنه فيما أنكرت الحكومة السعودية تصريحات عبيد وطردته من عمله ولكنها كانت قد قدمت تحذيرات مماثلة إلى نائب الرئيس ديك تشيني في أواخر نوفمبر) ومع ذلك حتى حين أخبرني سكان الدورة بهذا كانوا يدركون القيود التي تمنع الأمريكان من ممارسة قوتهم ويستشعرون بأنه آجلا أم عاجلا، لابد للقوات الأمريكية من الانسحاب.

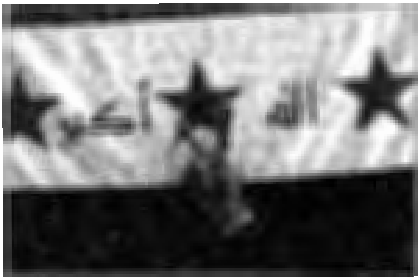
وأنا أستمع إلى هذه الأصوات العراقية، لم أستطع مغالبة الشعور بأننا نحن الأمريكيين قد أصبحنا بلا فائدة لمستقبل هذه البلاد. وفي حين يستمر الناس في واشنطن في التجادل حول التغير المقبل في الاستراتيجية ويثير تقرير بيكر احتمالية انسحاب متدرج، يقوم العراقيون بتقييم المحنة القادمة ويرتبون أوضاعهم تبعا لذلك. جرت محادثاتي مع أولئك البغداديين اليائسين في أمسية تحتشد سماؤها بالغيوم التي تنذر بوصول موسم المطر. كان اليوم الذي أعلنت فيه المحكمة العراقية الحكم بالموت على صدام حسين وقد استقبلها البعض بإطلاقات رصاص تسمع على البعد. ولكن كثيرين لم يبالوا بالخبر فقد كان همهم ينصب على إنقاذ أنفسهم. ■

■■ انتهيت لتوي من سماع تسجيل صوتي لحوار أجري مع كريستيان كاريل (مراسل نيوزويك) وهو في بغداد في خريف ٢٠٠٦ وكانت زيارته الثانية بعد الأولى في خريف ٢٠٠٣ . وقد سأله المذيع عن الفرق بين الزيارتين، فقال إنه في الأولى كانت الأوضاع خطرة ولكن كان يمكن على الأقل القيام بجولة في شوارع بغداد والحديث مع عراقيين، أما الآن فإن القيام بجولة لمدة عشر دقائق تتطلب تخطيطاً وكأنها رحلة إلى أدغال الكونغو، عليه أن يخطر حراسه الأمنيين قبل أربع وعشرين ساعة ليستعدوا ويضعوا خطة للسير ويختاروا أنواع الأسلحة والسيارات العسكرية المرافقة وأن عليهم حين العودة تدارس تنفيذ الخطة وماذا نجح فيها وماذا لم ينجح، وأكد أنه لم يعد ممكناً الحديث مع العراقيين .

ولهذا فإني أشكك كثيراً في مدى قدرته على الإجابة عن سؤال: «ماذا عن العراقيين؟» حيث تبدو بعض ملاحظاته التي أوردها في مقالته هذه منفصلة عن الواقع، أقلها أنه يعتقد أن فهم العراقيين «يختلف باختلاف المعتقدات الدينية والعرقية والطبقية»، وكأنه يتحدث عن شعوب وليس عن شعب واحد لم تمنعه اختلافاته هذه عن وحدة المصير منذ آلاف السنين، مفترضا أن المجتمع العراقي «كان مقسوماً دائماً بعمق ضد نفسه ولكن مع الاحتلال انقلب رأساً على عقب».

مشكلة الكثير من المعلقين والإعلاميين الغربيين أنهم يضعون افتراضات جاهزة قائمة: إما على سوء فهم أو قلة معرفة وبالتالي يصلون إلى استنتاجات باطلة بسبب خطل المقدمات.

لا أريد أن أنتقص من شأن الكاتب الذي سبق له أن عمل في روسيا واليابان وكوريا وألمانيا وأفغانستان وأخيرا العراق وقد كان أحد المرشحين عام ١٩٩٩ لجائزة دولية للصحافة التحقيقية بسبب تقاريره (المتميزة) كما وصفت حينذاك. ولكن الرجل كما يبدو من هذه المقالة لم يستطع



أن يكون موضوعياً تماماً . وقد بدا ذلك واضحاً في تعقيبه على يوميات العراقية رفريند، فهو مثلا يعتقد أن (الاحتلال قد أطلق تعدد وسائل الإعلام التي استفادت منها ريفريند) ويقصد الإنترنت مع أنه كان موجودا في العراق في التسعينيات قبل الاحتلال ودليل هذا انتشار مدونة (سلام باكس) العراقي الذي كان يسجل يومياته بالإنجليزية من داخل بغداد قبل الاحتلال، وهو الذي أشار إليه الكاتب نفسه في موقع آخر من المقالة . كما أنه يتناولها بالنقد لأنها تصور في يومياتها (المستوى العالي للتطور الثقافي والاقتصادي في العراق قبل الاحتلال) معتبرا إياها (جاهلة بالجوانب المظلمة في نظام صدام) ولا ادري ما علاقة هذا بذاك فالنهضة العلمية والصناعية والحضارية التي شهدها العراق في العقود الماضية شيء لا يمكن أن ينكره أحد، كما لا ينكر أحد أن مسيرة حكم تستمر ثلاثة عقود لا يمكن أن تخلو من مظالم أو أخطاء . وعلى نفس النسق، يعتقد الكاتب أن رفريند تناقض نفسها حين تتحدث عن (احترام العراقيين للثقافات والأديان الأخرى) وتتحدث عن أصولها المختلطة شيعة وسنة، في حين أنها تزدري طقوس الشيعة في مواكب جلد الذات التي يسيل فيها الكثير من الدماء، متناسيا أن الكثير من الشيعة المثقفين أنفسهم يستهجنون هذه الطقوس باعتبارها دخيلة على الإسلام . كما يعتبر احتقارها النواب (الشيعة) ولا مبالاتها بالمراجع الدينية مثل السيستاني وللانتخابات بشكل عام والتي صعدت بالشيعة إلى الحكم، دليلا آخر على تناقضها، بل

إنه يشبهها بالوطنيين السوفييت الذين (عاشوا معيشة طيبة في ظل النظام وكانوا غير قادرين على رؤية جرائمه على حقيقتها مما جعلهم ينكرون أو لا يفهمون حين بدأ المقموعون في التعبير عن مطالبهم السياسية)، وأنا أرى أن الكاتب نفسه غير قادر على فهم أن حقيقة الصراع في العراق ليست بين الشيعة والسنة وإنما بين وطنيين واحتلال وتبعاته وأتباعه، وأن ريفريند نفسها والتي تعكس آراء معظم الشعب العراقي الذي لم يستطع الكاتب - بسبب الأوضاع الأمنية التي خلقها الاحتلال - أن يستطلع آراءه، قد أدانت بنفس الطريقة (السنة) الذين شاركوا في شرعنة الاحتلال بالحكومات التي نصبها، أما الحديث عن الانتخابات فالكل قد شهد كيف جرت وبأي الوسائل سيقت الجماهير إلى صناديق الاقتراع وماذا كانت نتيجتها .

ومن الجدير بالملاحظة أن الكاتب في حين تصدى لكل كلمة كتبتها ريفريند بالنقد الصريح والمبطن والإشارة إلى (استفادتها من النظام) وهي التهمة العقيمة التي يراد منها إسكات كل حجة، استقبل حديث فتاة أخرى وردت في كتاب (شديد) هي (أمل) التي انتقدت صدام حسين وابنيه، بدون أي تعليق سوى الإشادة بقدرة (شديد) على دفع من يلتقي بهم إلى قص حكاياتهم .

ولهذا لم يكن أيضاً مستغرباً أن يعمد الكاتب إلى استعراض ما حدث خلال ٣٥ سنة قبل الاحتلال استعراضاً شمل أحداثاً سياسية منتقاة (حكم شمولي وحرب إيران وهجمات على الأكراد وإرهاب سياسي وغزو الكويت) ولم يقل أنه كان في خلال هذه الفترة أيضاً: تأميم نفط ومحو أمية ونهضة صناعية وعلمية وثقافية ورفاهية اقتصادية وتأمين صحي للجميع وتحرير طاقة المرأة وحكم ذاتي للأكراد.

أما قصور فهمه لحركة مقتدى الصدر فهذه حكاية أخرى. ■

بثينة الناصري

لبنان.. الطائفية

أميمة عبد اللطيف

Civil and Uncivil Violence in Lebanon, A history of the internationalisation of communal conflict

(العنف المدنى«الأهلى» وغير المدنى فى لبنان.. تاريخ تدويل الصراع الطائفى)

Samir Khalf
Columbia University press,
New York, pp368

عن أمل لا شفاء منه
فواز طرابلسى
رياض الريس للكتب والنشر، الطبعة الثانية، يناير ٢٠٠٧

على الدرج المؤدى لحضانة الفردوس المجاورة لمنزل رئيس الوزراء اللبنانى الراحل رشيد كرامى بحى الباشورة الذى يبعد خطوات عن ساحة رياض الصلح كانت الأوراق البيضاء متناثرة كما النفايات. «قتل الشيعة حلال» هكذا استهل المنشور الذى استيقظ عليه سكان الحى البيروتى العتيق ذات صباح أوائل ديسمبر الفائت. يدعو البيان السنة - من دون أن يسميهم - إلى «ملاحقة ومراقبة تحركاتهم-يقصد الشيعة- داخل هذه المنطقة وقتلهم وتشريدهم منها ومن كل لبنان الحبيب كى نحمى أعراضنا ونساءنا من مغتصبى حرية سيادة لبنان وعليكم بمساجدهم التى جعلوها مخازن السلاح ونقاط تخريج الانتحاريين» ويحذر البيان اللبنانيين من «القائد المنافق» - أيضا من دون أن يسميه - الذى يريد أن يجعل لبنان «جمهورية إسلامية ذات تبعية إيرانية».

لم تكن تلك هى المرة الأولى التى تظهر فيها منشورات كتلك فى شوارع بيروت. بعد اغتيال وزير الصناعة بيار الجميل ظهر منشور يذكر بـ «نيسان ١٩٧٥» ذكرى وقوع الحرب الأهلية اللبنانية والتى استمرت لـ ١٥ عاما. وكان ذات المنشور الذى يحلل دم الشيعة قد ظهر فى البقاع قبل أن يجد طريقه لبيروت. وقتها نفت أوساط تيار المستقبل الذى يرأسه سعد الحريرى أن تكون لها أى علاقة به على طريقة يكاد المريب.

غير خاف أن اللغة التحريضية التى كتب بها البيان تشبه فى تركيبتها وألفاظها وتوصيفاتها تلك العربية الركيكة التى كانت إسرائيل تصوغ بها رسائلها إلى اللبنانيين أثناء حرب تموز وربما فى كل الحروب التى خاضتها ضد لبنان وإن كانت عادة ما تختم منشوراتها بـ «دولة إسرائيل». هذا المنشور لم يكن ممهورا بتوقيع جماعة ما وقد لا يكون أمرا ذا أهمية كبرى إذا عرفنا أن الثابت والمثير للقلق هو أن ما ورد فى ذلك المنشور، على تطرفه ومقته، قد صار يسمع بصوت عال بين أوساط السنة ممن يمثلون التيار العام والهوامش فى بيروت وطرابلس ومنطقة البقاع وجلهم من الموالين لتيار المستقبل.

قد تبدو تلك المنشورات نتاجا حتميا لحالة الاحتدام السياسى التى تلف البلاد منذ اغتيال رئيس الوزراء السابق رفيق الحريرى فى فبراير ٢٠٠٥. غير أن هذا الجدل السياسى خلف حالة من الاصطفاف الطائفى ذى منحى مذهبى لا يمكن تجاهله عبر انقسام سنى شيعى غير مسبوق وهو الأكثر حدة منذ انتهاء الحرب الأهلية.

كان لازما أن تستحضر تلك المنشورات وغيرها من ردات الفعل العنيفة، آخرها ما نقلته شاشات التلفزة من مشاهد غير مسبوقة لما يشبه الاقتتال الأهلى فى محيط منطقة الجامعة العربية يوم الخميس ٢٥ يناير الماضى، مناخات الحرب الأهلية اللبنانية. فالبلد، فى كل الأحوال يسكنه هاجس الحرب الأهلية لكثرة ما مر عليه من حروب اقتتال أهلى حتى قبل أن يصار إلى الكيان اللبنانى كما هو الآن.

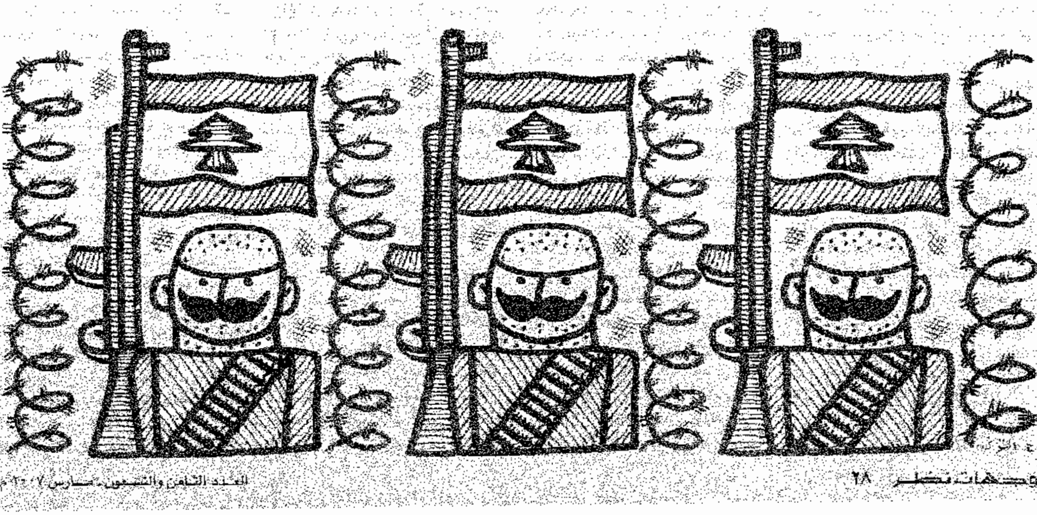
الثابت الآن أن هاجس الحرب الأهلية لم يكن بقوة ما هو عليه اليوم فى لبنان. خلال الخمسة عشر عاما الماضية كانت هناك احتقانات ومشاحنات وصراع سياسى، غير أن ثمة شواهد ونذر خطر لم يعد من الممكن تجاهلها. سيما وأن هذه النذر أوردتها العديد من المؤلفات التى بحثت فى تاريخ الحروب الأهلية اللبنانية ومسبباتها وظواهرها..

يقول اللبنانيون إن فهم ما يدور الآن يستدعى إعادة قراءة تاريخ لبنان. وقد لا يتطلب الأمر سوى العودة لسنى الحرب الأهلية وما قبلها لمحاولة فك شفرة الحدث اللبنانى سيما أن هذه المرة ثمة تداخل لا يمكن إغفاله بين المحلى والإقليمى والدولى. وهو الأمر الذى تؤكد عليه الدراسة الاجتماعية التى عمل عليها سمير خلف حول العنف الأهلى فى لبنان والتى اعتبرت أن هذا التداخل هو أحد أهم السمات التى قد تصنع لبنان أو تقضى عليه فى آن واحد. فتحرك المعارضة اللبنانية الأخير واعتصامها - وإن كان مطلب حكومة الوحدة الوطنية الذى اتخذته عنوانا لحركتها الاحتجاجية هو ذو مشروعية سياسية - غير أنه لا يمكن قراءة الحدث بمعزل عن الأزمة الإقليمية التى صنفت كلا من إيران وسوريا فى تحالف يضم حزب الله وحماس ضد «حلف الاعتدال» الذى تمثله الولايات المتحدة وإسرائيل ومعهما دول «الاعتدال» العربى.

وهو ما لا يمكن فهمه كذلك بمعزل عن الصراعات الدولية التى تدور رحاها اليوم. ذلك أن لبنان حين يكون محورا لصراعات القوى الدولية يصبح من الصعب حمايته من المواقف المؤثرة على استقراره (لاحظ كيف أن لبنان يدفع ثمنا من استقراره نتيجة الخصومة السورية السعودية من ناحية والعلاقات المتدهورة بين سوريا وفرنسا من جهة أخرى).

تبدو الحاجة ملحة - والحال كذلك - للعودة لقراءة ما كانت عليه الأوضاع قبل وأثناء الحرب الأهلية الأخيرة التى انطلقت شرارتها ١٣ أبريل ١٩٧٥ ولم تنطفئ جذوتها إلا بعد خمسة عشر عاما. وهى وإن كانت لا تفسر واقع حال الصراع السياسى الحالى وإنما تقدم خطوطا عريضة يمكن خلالها تلمس ربما طريق للنجاة مما تنذر به الأوضاع حاليا فى لبنان.

يستهل سمير خلف مؤلفه بما يعتبره ثلاث حقائق أصبحت من سمات التاريخ اللبنانى ولا يمكن إنكارها بأى حال. أولاها



الأهلية. يتوقف المؤلف فى أحد فصول الكتاب ليحلل ظاهرة العنف ذاتها ويصل لنتيجة مؤداها أن الظروف التى تؤدى بالجماعات المهمشة والمقموعة لأن تلجأ للعنف السياسى قد لا تكون هى ذاتها الظروف التى تجعل هذا العنف متواصلا وتحدد ماهيته ووجهته ونتيجة الصراع.

فى أحد فصول الكتاب يتنبه خلف -كمن يتنبأ بما ستؤول إليه الأوضاع لاحقا- إلى ضرورة ألا ننخدع بمظاهر الإعمار والإحساس بالتفاؤل والحيوية القومية التى مر بها اللبنانيون فى فترة التسعينيات. وهو أيضا حذر من الانخداع بمظاهر الاستقرار السياسى الظاهرة خلال تلك الفترة لأن هذا الاستقرار- كما يقول هو لم يكن قائما على أسس قوية أو على إجماع وطنى حول القضايا الأساسية مثل السيادة الوطنية والمصير السياسى للبلد. يبدو هذا التحذير صحيحا أكثر من أى وقت مضى. ذلك أن الاستقطاب الاجتماعى والثقافى يبدو جليا فى الاختلافات فى القيم والعادات والتوقعات وأسلوب الحياة واستعراض الثروة والامتيازات الاجتماعية فى المجال العام وكذا فى الهويات الطائفية. هذه الهويات الطائفية المتجددة كما يوصفها خلف تمنح حائزيها على المأوى والسند الاجتماعى والنفسى والطريق للرفاهية والامتيازات ولكنها فى ذات الوقت ترفع درجة العداء للجماعات التى يتم تصويرها على أنها «مختلفة». يتحول المجتمع اللبنانى شيئا فشيئًا من مجتمع مفتوح حيث الامتيازات لا تمنح فى كل الأحوال فقط بسبب الدين أو القرابة أو العرق إلى مجتمع مغلق (ثمة حديث عن انتقال السكان السنة من الضاحية الجنوبية إلى أماكن ذات غالبية سنية فى بيروت رغم أنه لم يتم بعد أى فرز جغرافى بشكل طائفى سيما بين مسلمى لبنان. فالطريق الجديدة ذات الغالبية السنية بها سكان شيعة والضاحية ذات الكثافة الشيعية العالية بها مسيحيون وسنة. كذلك بدا استنفار زعيم الدروز وليد جنبلاط لمجرد أن أحد المقاولين الشيعة قرر بناء مجمع سكنى فى جبل لبنان وهو ما اعتبره محاولة لإحداث تغيير ديموجرافى فى المنطقة رغم أن بالجبل بلدات شيعية مثل بلدة كيفون القماطية والوردانية).

إن القوى الإقليمية والدولية لها دور فى إذكاء العداءات الطائفية ولكنها تتدخل أيضا حين يصل العنف لمستوى من شأنه أن يؤذى مصالحها. فمقولة وزير الخارجية الأمريكى الأسبق جون فوستر دالاس الشهيرة «لبنان ليست مهمة فى حد ذاتها، استكمالها يعنى أنها أهميتها تنبع من كونها ساحة للمصالح الإقليمية الكبرى فقط. لقد كان التدخل الخارجى عنصرا حاسما فى تسوية الصراع الداخلى فى لبنان حيث الدولة من الضعف والهشاشة بحيث تستطيع القوى الإقليمية والأجنبية أن تلعب دور الوسيط لحل النزاعات الداخلية بمعنى آخر أن تأخذ دور الدولة. عدم قدرة الدولة على تحصين نفسها كان يعنى أنها تتنازل عن مسئولياتها المتعلقة بالأمن القومى للقوى الإقليمية والدولية (الأمر ذاته حاصل اليوم حيث الرئاسات الثلاث فى لبنان فى حالة خصومة سياسية حادة بحيث انقطع حبل الوصل بينها وانتهى الأمر بعمرو موسى أن يكون مرسالا بين القوى السياسية اللبنانية التى لا يفصلها عن بعضها البعض بضع مئات من الأمتار وصارت قصة الوساطة الدولية والعربية ومصيرها يتصدر صفحات اليوميات اللبنانية). الحاجة الاستراتيجية التى توفرها لبنان هو أنها قدمت وظيفة كونها صمام الأمان الذى يمكن من خلاله تصريف توترات الصراع العربى الإسرائيلى من دون حدوث مواجهة كبرى بالضرورة.

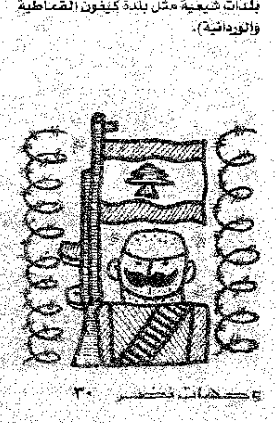
كان غسان توينى هو أكثر من روج لنظرية كون لبنان هى ساحة قتال لحروب الآخرين أولا أثناء رئاسته لوفد لبنان بالأمم المتحدة وعبر مقالاته فى النهار. شارل عيساوى كان أيضا أحد المروجين لنظرية كون لبنان ضحية صراعات الآخرين وهو يقول بأن لبنان نموذج ناجح للديمقراطية والتعددية الاقتصادية وهو أمر لا تحتمله منطقة أدارت ظهرها لكلا الميدانين.

تبدو الفصول التى يتناول فيها خلف الأسباب التى تؤدى بالعنف لأن يصل لمرحلة الاقتتال الأهلى هى الأكثر أهمية. فهو يضع ما يمكن وصفه بخارطة طريق يمكن من خلالها تتبع الشرارات الأولى للاقتتال الأهلى. وهو عبر كل فصل لا ينى يؤكد على ثلاثة عناصر يعتبرها هو متداخلة بشكل قوى فى التأسيس للفتن الأهلية وهى التدخل الخارجى وإذكاء الهويات الطائفية وتصاعد العنف. ما يسميه البعض إعادة القبلية للبنان يرد عليه خلف قائلا بأن آخرين يرون بأن القبلية لم تغادر لبنان أبدا لتعود إليها وأنها كانت دائما موجودة. والمعضلة الأساسية هى أن القوى التى بإمكانها أن توفر الدعم للتجانس الاجتماعى هى ذاتها التى بإمكانها أن تمزق المجتمع إربا وتذكى الصراع والتوتر والفوضى المدنية فالروابط التى تجمع هى ذاتها الروابط التى تفرق. لقد تحولت الهويات الطائفية إلى الوسيلة التى يمكن من خلالها المرء تأكيد حضوره فى المجال العام فأفكاره وآراؤه يصبح لها معنى فقط من خلال هويته الطائفية وهى أيضا بمثابة الدرع الواقى الذى يحميه من تهديدات الجماعات الأخرى ولا يهم إن كان هذا التهديد حقيقياً أم متخيلاً. ويبدو حديث الهويات واستحضارها جزءا أساسيا فى خطاب القادة السياسيين والمعبرين عن هذه الجماعات وكذا المواطنون العاديون وهو موجود فى سلوكهم اليومى ويتم تفعيله واستحضاره بشكل دائم فى عمليات التفاوض للحصول على الامتيازات والمنافع. حتى تلك الجماعات التى كانت ذات طبيعة جامعة ولم تكن تتعاطى مع الشأن العام باعتبارها الطائفى مثل طائفة الأرثوذكس والكاثوليك والسنة. هذه الجماعات بدأت تعمل على إعادة تصنيع تراثها الخاص والاشتغال على العناصر التى تشكل هويتها الخاصة بها.

ويبدو التراجع جليا وعملية «إعادة بلقنة» لبنان واضحا حين تعرف أنه فى فترة الخمسينيات والستينيات من القرن الماضى كان اللبنانيون يخجلون من أن يعرفوا أنفسهم عبر هوياتهم الطائفية وفى وقت كانت الأيديولوجية القومية والعلمانية هى السائدة فى العالم العربى كان اللبنانى يعرف نفسه عبر هويته الأيديولوجية. أما اليوم فإن استحضار هوية المرء الطائفية أو المذهبية صارت أمرا طبيعيا فى النقاش العام بل إن البعض يعيد اختراع هذه الهويات عبر مزاعم بوجودها. وهكذا لا نجد جامعة أو محطة تليفزيون أو راديو أو جمعية خيرية أو مركز بحث أو جريدة إلا وتعرف حالها عبر هويتها الطائفية (ربما فيما عدا تليفزيون النيو تى فى الذى يملكه تحسين خياط اليسارى وإن كان فريق ١٤ آذار يحسبه على فريق ٨ آذار وجريدة الأخبار التى يعمل بها فريق عمل يضم المتعاطفين مع حزب الله والتيار الوطنى الحر والقوات والجماعة الإسلامية والسفير التى تحاول أن تقف فى مسافة فى المنتصف وإن كانت محسوبة على قوى ٨ آذار). وينطبق الأمر كذلك حتى على الأنشطة الثقافية والفكرية والجوائز وحتى الأنشطة الإنسانية مثل الرياضة تحولت إلى أنشطة ذات طبيعة طائفية (فريقا كرة القدم اللبنانية الأشهر النجمة وهو محسوب على الشيعة والأنصار محسوب على السنة وفى أحداث العنف الأخيرة تم إحراق مقر نادى الأنصار ربما من قبل أناس محسوبين على حزب الله وأمل على اعتبار أنه أحد المؤسسات الرياضية الموالية لتيار المستقبل).

وبالمعنى ذاته لا ينظر للدين على أنه أمر روحى فى حد ذاته. وإنما هو صيغة من صيغ التعبئة الأيديولوجية والطائفية وهو أحيانا الوسيلة الوحيدة التى يمكن للأفراد من خلالها تأكيد هويتهم المهددة. بهذا المعنى يمكن أن يفسر الطريقة التى استخدمت بها قيادة تيار المستقبل مفتى الجمهورية محمد رشيد قبانى فى دعم شرعية حكومة فؤاد السنيورة. غير أن الخطورة تكمن فى أن دخول المفتى السنى على خط الصراع السياسى بين المعارضة بقيادة حزب الله والحكومة بقيادة فريق ١٤ آذار قد أضفى بعدا مذهبيا بغيضا على صراع هو بالأساس سياسى. سيما وأن المفتى اعتبر فى تصريحات رسمية أن «رئاسة الوزراء خط أحمر» وتحدث عن بيروت وكأنها «مدينة السنة» وهو بفعلته تلك شحذ الهمم المذهبية داخل الطائفة السنية ولكنه فى ذات الوقت خلق نوعا من الانقسام داخل الطائفة التى اعتبر فريقا منها أن مفتى الجمهورية اللبنانية صار مفتيا لتيار المستقبل ولفريق من السنة

استحضار هوية المرء الطائفية أو المذهبية صارت أمراً طبيعيا اليوم فى النقاش العام فى لبنان بل إن البعض يعيد اختراع هذه الهويات



وليس لكل السنة وتعالت أصوات طالبته بعدم التدخل.

ذات الشيء يتكرر في مواقف البطرك الماروني مارنصرالله بطرس صفير والذى دوما ما يؤم السياسيون دارته في بكركي للحصول على «البركة السياسية» وهو أيضا لا يتوانى عن أن يدلى بدلوه في السياسة في عظته الأسبوعية. وبكركي كان لها عدة مواقف سياسية حادة أهمها البيان الذى صدر بالعام ٢٠٠٠ يطالب السوريين بإنهاء وجودهم وأخيرا دخلا على خط المبادرات السياسية فأطلقت مبادرتها الأخيرة والتى استحسنتها حزب الله.

العداءات بين الجماعات الطائفية المختلفة لم تنعكس دوما في صورة أعمال عنف وإنما اتخذت صورا لاعنفية تمثلت في مشاعر الاحتقار والاتصالات الحذرة واتخاذ مسافة من الجماعات الأخرى. حينما تتحول الخلافات والصراعات السياسية إلى خلافات طائفية (مثلما هو الحال الآن حيث لا يرى من مطالب المعارضة إلا أن حزب الله الشيعى يريد إسقاط حكومة السنيورة السنى) هنا يصير مستوى العنف أكثر وحشية ويصبح عندئذ من الصعوبة بمكان حل النزاع بشكل سلمى. طالما ظل لدى المجتمع القابلية للعودة للاقتتال الطائفى فهذا يعنى أن اللبنانيين لم يتعلموا شيئا وإن شيئا لم يتغير في المجتمع اللبنانى.

حين قررت المعارضة اللبنانية اللجوء للشارع والاعتصام فيه للتعبير عن غضبتها ورفع الشعار عاليا بحكومة الوحدة الوطنية كانت ثمة نوع من الاستنفار والترقب الشديدين لأن الشارع وقتها كان على درجة من الاحتقان بشكل أنه أى نزاع شخصى بسيط كان يمكن أن يتحول بسرعة شديدة إلى فتنة أهلية تقضى على الأخضر واليابس. لذا حين قتل «شهيد المعارضة» الشاب العشرينى أحمد محمود في محلة قصقص بالطريق الجديدة -منطقة ذات غالبية سنية ومحسوبة على تيار المستقبل- حبس اللبنانيون أنفاسهم. فمقتل محمود المحسوب على حركة أمل كان يمكن أن يفتح بابا لفتنة مذهبية وتشبع شهية شارع متعطش لهكذا حادث لولا أنه تم تطويق الأزمة في حينها ولأن الطرف الشيعى (حزب الله بالأساس وحركة أمل) أرادا قطع الطريق على أن يتطور الأمر. ويفسر خلف نقلا عن بيتر جاى بأن الجماعات التى تحكمها نزعة الانتقام الدموى لا تلجأ عادة للعنف لكى تثأر لحادثة بسيطة وإنما هى بالأساس تسعى لأن تفتعل الحادثة (ربما كان ذلك هدف من افتعلوا المشاكل مع المتظاهرين وهو في طريقهم لساحة رياض الصلح كما أن بعض السنة يتهم المتظاهرين بسب سعد الحريرى والخليفة عمر بن الخطاب ويتهم بعض الشيعة السنة بسب السيد حسن نصرالله وفي حادثة الجامعة العربية أتهم نصرالله السلطة ممثلة في تيار المستقبل ومحازبى وليد جنبلاط و سمير جعجع بالسعى لافتعال حادث ما للرد على ما صار يوم الثلاثاء يوم الإضراب العام) كما أن الحساسية المفرطة تجاه الإهانات اللفظية أو الجسدية تستفز دائما الرغبة للانتقام بشكل يكاد يفوق حجم الإهانة. كما يمتلئ خطاب الساسة والإعلام بمايسميه خلف «الثنائيات الشيطانية» «هم» و«نحن» حيث يتم شيطنة العدو ويتم تصوير الصراع كأنه بين قوى الظلام والتنوير (لاحظ كيف أستبطن بعض من الساسة اللبنانيين خطاب الرئيس جورج بوش الميكانيك حول قوى الخير والشر فوليد جنبلاط مثلا يتحدث عمن ينشرون ثقافة الموت والسواد في حين هم أى قوى ١٤ آذار «يحبون الحياة») لا يتطلب الأمر سوى أن يقرأ المرء ويراجع الخطاب السياسى لبعض الساسة والتصريحات اليومية لهم التى تعمل على «شيطنة» جزء من المجتمع اللبنانى والتشكيك بلبنانيتهم وحتى عروبتهم أحيانا وتصويرهم كأنهم غرباء وكيف أن هذا النوع من الخطاب يتسرب إلى بقية أفراد المجتمع ومن هنا نفهم ظهور المنشورات التى تنضح بعداء غير خاف للشيعة وتحلل قتلهم وتلك التى تذكر بالحرب الأهلية وكذلك خطب الجمع التى لا تخلو من تحريض مذهبى ومن رجال دين سنة أخذوا على عاتقهم إيقاظ فتنة نائمة وعظات الأحد التى تنمى التهميش الذى يتعرض له المسيحيون على يد السنية السياسية والرسوم والكتابات على جدران الشوارع في بيروت واللافتات المؤيدة والمعارضة وكذا حملات الكراهية التى تمتلئ بها وسائل الإعلام حيث كل جماعة تصور الأخرى على أنها محل كل الأخطاء والأمراض في المجتمع. والعدو هنا يخيف ولكنه في ذات الوقت محتقر ويتم التعامل معه على أنه في مرتبة أدنى (كان ثمة خطاب شديد الطبقية تبنته وسائل إعلام ١٤ آذار حيال المعتصمين بالساحتين وتصويرهم على أنهم في فقر مدقع وغير حضاريين ومتريفين) هذه الخطابات عملت على خلق صورة للمعتصمين باعتبارهم غزاة همجيين لوسط بيروت التجارى قرة عين البيارتة وجوهرة التاج التى يجب حمايتها وهكذا ربما كان الهدف من خلق تلك الصورة هو نزع الإنسانية عن أولئك المعتصمين لتسهيل ممارسة العنف بحقهم. وهكذا حصل.

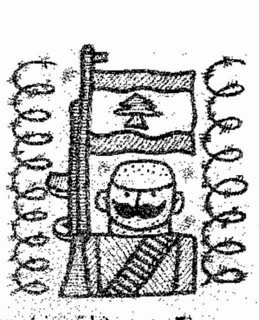
فى فصل أخير يتحدث المؤلف عن احتمالات المستقبل وهو يشير إلى أنه في حين أن كل الحروب الأهلية شريرة إلا أن الحرب الأهلية اللبنانية الأخيرة كانت ربما الأسوأ في تاريخ الحروب الأهلية بسبب عبثية الحرب التى لم تكن من أجل قضية ما ولأنها لم تحل أيا من الموضوعات والقضايا التى كانت سببا في إثارة الصراع بالأساس. هى كانت بمثابة موعد مع حفلة «خوات» أى حفلة جنون وعنف جماعى لم يفض إلى شيء. وتبقى النتيجة الحتمية التى تلخص دراسة خلف هى أن بقاء العداءات الطائفية على حالها يعنى شيئاً واحداً أن لا شيء يتغير في لبنان.

ينبه فواز طرابلسى قراءه بأن اليوميات كتبت على «دفتر أخضر» ونشرت دون أى إضافة أو تعديل لتظل تعبيرا فوريا وعضويا عن الانفعال والتفكير خلال أيام حصار بيروت. وكأن طرابلسى شعر بحاجة لتذكير قرائه أن ما يقرءونه مكتوب منذ خمسة وعشرين عاما أى منذ زمن الاجتياح الإسرائيلى لبيروت ١٩٨٢. ذلك أن القارئ يكاد لا يحس بالاختلاف بين يونيه ١٩٨٢ ويوليه ٢٠٠٦. بعض فقرات من اليوميات تكاد تكون خطت أيام حرب تموز وكم المتشابهات يذهب بالعقل. فحديقة الصنائع في قلب بيروت تحولت لخيمة تؤوى المهجرين والقنابل الفوسفورية والعنقودية التى قتلت أطفال لبنان بـ ١٩٨٢ هى ذاتها التى استخدمت - وإن بوفرة - بـ ٢٠٠٦.

والتواطؤ الأمريكى والخذلان العربى والرئيس العاجز والقصف الإسرائيلى الذى يؤدى لوقوع «ما يشبه المجزرة» وراعى بقر مهووس بمطاردة الهنود الحمر وقد لبسوا لبوس «الإرهاب الدولى» في إشارة لرونالد ريجان غير أنها تنطبق بالتأكيد على الجالس بالبيت الأبيض اليوم. أما «الإرهابى البولونى» أى شارون آنذاك فقد استبدل بإرهابى آخر هذه المرة من روسيا «إيهود أولمرت» وثمة عبارات من قبيل «بيروت تتعرض لأعنف قصف برى وبحرى وجوى» كم مرة كتبت وقرأت خلال حرب تموز الفائتة والمناشير التى تحض اللبنانيين على ترك قراهم. كأن شيئا لم يتغير. يدرك طرابلسى تلك الحقيقة حين قرر نشر الطبعة الثانية من كتابه «عن أمل لا شفاء منه» ليس فقط لنفاد الطبعة الأولى وإنما أيضا احتفالا بمرور ٢٥ عاما على الغزو الإسرائيلى للبنان صيف ١٩٨٢.

تبدو يوميات طرابلسى ربما أكثر حميمية وشخصية وهى القصص الصغيرة والتفاصيل الدقيقة التى تسج منها صورة لما كانت عليه الأوضاع ببيروت من دون تكلف أو دراما. ورغم أن بعض اليوميات ليس سوى عناوين للأخبار في ذاك النهار أو تسجيل ملاحظة ما إلا أن بعض اليوميات تحمل لغة نثرية. فهو يحكى عن البنايات التى أفرغت من سكانها وقصص بعض الجيران وعن «الخبز الأسود والنادر» وعن الذى يقضى نهاراته باحثا لأمه المقعدة عن «خضرة طازجة» شيء ما يشبه ما كانت عليه بيروت يوم الإضراب العام الذى دعت إليه المعارضة بـ ٢٣ يناير.

ويسأل طرابلسى السؤال ذاته الذى يتردد على ألسنة كل اللبنانيين اليوم كما كان الحال منذ خمسة وعشرين عاما «ماذا يعدون لهذا البلد؟» كرر طرابلسى السؤال عبر الكتاب أكثر من خمس مرات وجاءت الإجابة في ثنايا قصص المعاناة والحزن والكآبة والتى لا تزال إلى اليوم حاضرة بكل تفاصيلها في المشهد اللبنانى. كأن شيئا لم يتغير في لبنان.



يمتلئ خطاب الساسة والإعلام بـ «الثنائيات الشيطانية» «هم» و«نحن» حيث يتم شيطنة العدو وتصوير الصراع كأنه بين قوى الظلام والتنوير



لا إكراه فى الدين

عبد الله بن الشيخ المحفوظ بن بيه

لا طالما باهتمام تأليف العلامة الفاضل الشيخ الدكتور طه جابر العلوانى بعنوان: (لا إكراه فى الدين - إشكالية الردة والمرتدين من صدر الإسلام إلى اليوم).

وقد راجعت هذا التأليف لثلاثة أسباب:

أولاً: أن فضيلة الدكتور طلب منى مراجعته لإبداء الرأى وأنه يعز علىَّ أن أعرض عن طلبه لما أشعر به نحوه من الود ولما ألمسه من الإخلاص.

ثانياً: أن الدكتور طه ليس علمانياً يبحث عن هدم الدين بمعاول التشكيك والتفكيك، بل هو رجل مدافع عن هذا الدين قولاً وعملاً منذ نعومة أظفاره، وقد ابتلى فى هذه السبيل - ضاعف الله أجره - وما صده ذلك عن الدعوة وإقامة الحجة.

ثالثاً: أن الشيخ طه ليس من نوعية المفكرين أو المثقفين الذين يعالجون قضايا الإسلام والشريعة من خلال منظومات فكرية خارجة عن المناهج المعتمدة عند علماء المسلمين، بل هو عالم أصولى ضليع يتعامل مع موضوعاته بواسطة الأدوات المتعارفة تعضيداً وتفنيداً وجرحاً وتعديلاً وتفريعاً وتأصيلاً.

والشيخ عالم من علماء الشريعة، وكونه عالماً من علماء الشريعة يقتضى حق الحرمة ولا يقضى باستحقاق العصمة.

لهذه الأسباب أردت أن أكتب هذا التعليق، مع الاعتذار بأنى لم أعط هذا الموضوع ما يستحق؛ لكثرة الشواغل والصوارف التى لم تسمح لى بإتمام النظر والإمعان فى البحث حتى يكون على مستوى ما يتوقع فى قضية لها أهمية، قضية الردة والخروج عن الدين.

وسبق لى أن أعرضت عن عروض بعض وسائل الإعلام للنزول فى حلبة الجدل الدائر فى جملة من القضايا، ومنها هذه القضية؛ لا نكوصاً عن إظهار ما أعتقده صحيحاً فيها، ولكن لأن هذا الجدل تعوزه السكينة، ويعوزه الإنصاف، ويدخل أحياناً فى دائرة الاتهام والصخب والإسفاف.

إن هذا التأليف الذى قدم هذا الموضوع من جميع جوانبه وزواياه التاريخية والحالية ومآلاته المستقبلية، وتوقف طويلاً مع الدليل وما يعتريه من أوجه العلل والقوادح وأقوال الفقهاء، ولهذا فقد أثار جملة غير يسيرة من القضايا، وإن كانت الغاية التى يرمى إليها والهدف الذى يتوخاه وهو حكم المرتد فى شريعة الإسلام إلا أنه مهد له بما يشبه تحقيق المناط.

وإنى أتفق مع الكثير مما أورده فى تلك المقدمات الممهدات، وبخاصة فى سوء استغلال الشرع العزيز فى مسألة التكفير ودعوى الارتداد. وقد كنت شخصياً معنياً بهذا الموضوع منذ سنوات؛ حيث نشر لى بحث فى مجلة (البحوث الفقهية المعاصرة) فى الموضوع نفسه، ونشرت أخيراً عدة مقالات فى جريدة (الشرق الأوسط)؛ تركزت حول خطورة ظاهرة تكفير الناس ومنافاتها للدليل؛ وأنها فى مآلاتها تؤدى إلى الفتنة والضياع، مما حمل بعض الملفقين على القول بأنى لا أوجب قتل المرتد غير أنى لا أجسر على قول ذلك! وقد لا يكون الأمر كذلك ولهذا فالهم مشترك.

كما أنى أوافقه على سوء استغلال الطرف المقابل لفتاوى التكفير؛ حيث يصبح ضحاياها أبطالاً فى بيئة عالمية، انعدمت فيها الخصوصية وغاب فيها التسامح الثقافى، وبخاصة من قبل أولئك الذين يدعون أنهم دعاة التسامح والتعايش.

كل تلك المعانى التى أشار إليها فضيلته لا أختلف معه فى دلالاتها ولا فى المآلات التى تفضى إليها الفتاوى والتصرفات، والتى ينبغى أن تؤثر على الفتوى الفقهية فى الزمان والمكان.

قد يكون من المناسب ونحن فى المقدمات أن نشير إلى ثلاث نقاط:

النقطة الأولى: ما يتعلق بمصطلح (الحد)، فقد لا أتفق مع ما ذكر من أنه عدول عن المصطلح القرآنى، بل هو قصر للمصطلح القرآنى على بعض أفراده؛ وذلك مبرر لسببين: السبب اللغوى: وقد أشار إليه فضيلته، فإن الحد هو الفاصل بين شيئين الحاجز بينهما؛ وضرورة التعريف والتفريق بين العقوبات المحدودة بالنص وبين العقوبات المتروكة للاجتهاد تبرر هذا المصطلح.

السبب الثانى: استعمال كلمة (الحد) فى الأحاديث النبوية الشريفة الصحيحة، كقوله - عليه الصلاة والسلام - لأسامة: (أتشفع فى حد من حدود الله). وعليه فإنى أرى أن الفقهاء ما عدلوا عن المصطلح القرآنى بل تصرفوا فيه بما تقتضيه ضرورات (التقنين الفقهى).

النقطة الثانية: ما يتعلق بالتراث اليهودى، وإنى أتفق مع فضيلته فى أن هذا التراث حاول التسرب إلى الشريعة، ولكن علماء المسلمين انتبهوا لذلك منذ وقت ليس بالقصير؛ فقد قرر أهل الحديث أن

لا إكراه فى الدين
إشكالية الردة والمرتدين
من صدر الإسلام إلى اليوم
د. طه جابر العلوانى
مكتبة الشروق الدولية والمعهد العالمى للفكر الإسلامى، ٢٠٠٦

نصوص القرآن والسُّنَّة تتضامن وتتكامل، وأنّ كليات القرآن هي نفسها الكليات التي أكّدتْ عليها السُّنَّة وزادتها بيانا، (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا)

الصحابي أو التابعي الذي ينظر في كتب أهل الكتاب لا يُعتبر كلامه من نفسه في أمور الغيب مرفوعاً إلى النبي (وقالوا: إذا عُرِف الصحابي بالنظر في الإسرائيليات، كعبد الله بن سلام وغيره من مسلمي أهل الكتاب، وكعبد الله بن عمرو بن العاص؛ فإنه حصل في اليرموك كثيراً من كتب أهل الكتاب؛ فكان أصحابه يقولون له حدثنا عن النبي (ولا تحدثنا من الصحيفة. قال السخاوي في فتح المغيث بعدما ذكر ذلك: فمثل هذا لا يكون حكمُ ما يخبر به من الأمور الغيبية الرفعَ لقوة الاحتمال.

أما أهل الأصول فاشترطوا في مسألة كون شرع من قبلنا شرعاً لنا - على القول به - أن يكون ثبت بشرعنا، وإلا فلا يعتد به، وهو أمر مؤيد بقوله - تعالى -: (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب). ومع ذلك فقد بقيت أخبار هؤلاء في كتب التفسير مأخوذة من كتبهم أو مرويّة عن أخبارهم.

وأحسبُ أنّ تأثيرها في فروع الشريعة كان ضئيلاً وإن كانت قد أثرت إلى حد ما في الثقافة وفي المقولات الكلامية.

النقطة الثالثة: وهي مسألة هيمنة القرآن على السنة. وهي مسألة تحتاج إلى توضيح: فالقرآن والسنة من مشكاة واحدة هي مشكاة النبوة (من يطع الرسول فقد أطاع الله). وهذا الإشكال لم يُطرح في الصدر الأول إلا من زاوية الثبوت: فالقرآن متواتر محفوظ، والسنة قد تردُ آحاداً، وبالتالي تضعفُ الثقة في نسبتها إليه - عليه الصلاة والسلام - ومن هنا جاء قول عمر - رضي الله عنه - في قضية فاطمة بنت قيس: (لا نترك كتاب الله لقول امرأة لا ندري أحفظت أم نسيت). وقول عائشة - رضي الله عنها وأرضاها - في رد حديث ابن عمر (إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه) إنه عليه الصلاة والسلام لم يقل هكذا محتجةً بقوله - تعالى -: (ولا تزر وازرة وزر أخرى).

ومن هنا اختلفتْ أنظارُ العلماء في التعامل مع خبر الآحاد إذا خالف القواعد أو القياس أو عمل أهل المدينة إلى آخر ما في المباحث الأصولية. وعندما دوّن الشافعي أصول الفقه ووضع اللبنات الأولى لقواعد الاستنباط وترتيب الأدلة: جعل القرآن والسنّة في مرتبة واحدة؛ مستدلاً بالآيات التي جعلت طاعة رسول الله (طاعة لله، إلا أنّه أشار إلى أن السنة مبيِّنة للقرآن، وما أخال البيان يختلف كثيراً عن الإنشاء في فهم الأوائل كما سنذكره.

وقد تعامل العلماء مع نصوص السنّة تعاملهم مع القرآن إذا ثبتت ثبوتا لا يرتقي إليه شك بالتواتر أو الاستفاضة مع وضوح الدلالة، وبخاصة السنة العملية في الصلاة والصوم والحج، إلا في حالات ليست بالكثيرة كموقف أحمد من عدم إمكان نسخ السنّة للقرآن، ونحوها من القضايا المبثوثة في كتب الفقه والأصول.

وإن كانت قد حصلت مواقف من بعض الطوائف الإسلامية في موضوع السنّة إلا أنّ هذا هو المنهج العام والطريق اللاحب.

هذا من باب الإشارة إلى موضوع لا أشكُ أنكم أدرى به.

وفي رأيي أنّ نصوص القرآن والسُّنّة تتضامن وتتكامل، وأنّ كليات القرآن هي نفسها الكليات التي أكّدتْ عليها السنّة وزادتها بياناً، (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا). فكلّ ذلك من عند الله إلاّ أنّ بعض الكليات يعتريه التخصيص، وأحياناً تظهر فروع تتجاذبها كلياتٌ فتترجح بينهما، وبعض الكليات الأخرى لا يعتريه تخصيص. وقد أشار الشاطبي إلى ذلك في العام حيث يقول: (المسألة السابعة): العمومات إذا اتّحد معناها، وانتشرت في أبواب الشريعة، أو تكررت في مواطن بحسب الحاجة من غير تخصيص: فهي مجراة على عمومها على كل حال، وإن قلنا بجواز التخصيص بالمنفصل.

والدليل على ذلك الاستقراء؛ فإن الشريعة قررت أن لا حرج علينا في الدين في مواضع كثيرة، ولم تستثن منه موضعاً ولا حالاً، فعده علماء الملة أصلاً مطّرداً وعموماً مرجوعاً إليه؛ من غير استثناء، ولا طلب مخصص، ولا احتشام من إلزام الحكم به، ولا توقف في مقتضاه، وليس ذلك إلا لما فهموا بالتكرار والتأكيد من القصد إلى التعميم التام.

وأيضاً قررتْ (ولا تزر وازرة وزر أخرى). فأعملت العلماء المعنى في مجاري عمومه، وردوا ما خالفه من أفراد الأدلة بالتأويل وغيره؛ وبينت بالتكرار أن (لا ضرر ولا ضرار)؛ فأبى أهل العلم عن تخصيصه، وحملوه على عمومه، وأنّ (من سن سنة حسنة أو سيئة كان له ممن اقتدى به حظ؛ إن حسناً وإن سيئاً)، وأن (من مات مسلماً دخل الجنة ومن مات كافراً دخل النار).

وعلى الجملة: فكل أصل تكرر تقريره وتأكّد أمره وفُهم ذلك من مجاري الكلام فهو مأخوذ على حسب عمومه. وأكثر الأصول تكراراً الأصول المكية، كالأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي وأشباه ذلك.

فأما إن لم يكن العموم مكرراً ومؤكداً ولا منتشراً في أبواب الفقه؛ فالتمسك بمجرده فيه نظر؛ فلا بد من البحث عما يعارضه أو يخصصه. وإنما حصلت التفرقة بين الصنفين؛ لأنّ ما حصل فيه التكرار والتأكيد والانتشار صار ظاهره باحتفاف القرائن به إلى منزلة النص القاطع الذي لا احتمال فيه؛ بخلاف ما لم يكن كذلك فإنه معرض لاحتمالات؛ فيجب التوقف في القطع حتى يعرض على غيره ويبحث عن وجود معارض فيه.

وعلى هذا يُبنى القولُ في العمل بالعموم، وهل يصح من غير المخصص أم لا؟

فإنه إذا عُرض على هذا التقسيم؛ أفاد أن القسم الأول غير محتاج فيه إلى بحث؛ إذ لا يصح تخصيصه إلا حيث تخصص القواعد بعضها بعضاً.

ولهذا فإن (الظرفية) التي تتطرق إلى جملة من الأحاديث والتصرفات النبوية، والتي عبر عنها العلماء كالقرافي بتعبيرات مختلفة: تارة لكونه تصرفاً بالولاية العامة للمسلمين أو بالقضاء، وتارة باعتبار المسألة من قضايا الأعيان إبقاء للكلي على كليّته، كما يشير إليه كثير من أصوليي المالكية، ومنهم الشاطبي حيث يقول: (فإذا ثبت بالاستقراء قاعدة كلية ثم أتى النص على جزئي يخالف القاعدة بوجه من وجود المخالفة؛ فلا بد من الجمع في النظر بينهما؛ لأن الشارع لم ينص على ذلك الجزئي إلا مع الحفاظ على تلك القواعد؛ إذ كلية هذا معلومة ضرورة بعد الإحاطة بمقاصد الشريعة؛ فلا يمكنُ والحالة هذه أن تخرم القواعد بإلغاء ما اعتبره الشارع، وإذا ثبت هذا؛ لم يكن أن يعتبر الكلي ويلغى الجزئي).

والقاعدة المقررة في موضعها أنه إذا تعارض أمر كلي وأمر جزئي: فالكلي مقدم؛ لأن الجزئي يقتضي مصلحة جزئية، والكلي يقتضي مصلحة كلية. ولا ينخرم نظام في العالم بانخرام المصلحة الجزئية، بخلاف ما إذا قُدم اعتبار المصلحة الجزئية؛ فإن المصلحة الكلية ينخرم نظام كليتها؛ فمسألتنا كذلك؛ إذ قد عُلم أن العزيمة بالنسبة إلى كل مكلف أمر كلي ثابت عليه، والرخصة إنما مشروعيتها أن تكون جزئية وحيث يتحقق الموجب، وما فرضنا الكلام فيه لا يتحقق في كل صورة تفرض إلا والمعارض الكلي ينازعه؛ فلا ينجي من طلب الخروج عن العهدة إلا الرجوع إلى الكلي وهو العزيمة.

ولكنهم قد يعارضون العموم بقاعدة السبب: وهي التي تقول: إنّ خصوص السبب يمنع عموم الحكم، عكس الشائع، من أن خصوص السبب لا يمنع عموم الحكم. قال المازري في شرحه للبرهان: وشذ بعض أصحابنا وهو أبو الفرج، فقال بقصره على سببه، وورد عن دلالته على العموم، وقال به أيضاً من أصحاب الشافعي المزني والدقاق والقفال، وبه قال أبو ثور، وحكاه أبو حامد الإسفراييني عن مالك وأشار ابن خويز منداد إلى اختلاف قول مالك في هذا؛ استقراء من اختلاف قوله في غسيل الآنية التي ولغ فيها كلب وفيها طعام فقال مرة: أن يغسل في الماء وحده قصرا منه لعموم اللفظ، وهو قوله عليه السلام: (إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم).

ولهذا فإن ظرفية السنة وإطلاق القرآن وهيمنته يمكن أن تعوض بهيمنة الكليات الحاكمة في الشريعة، المستفادة من التكرار والتأكيد المعروف من القرآن ومن السنة، على ضوء النصوص التي أشرنا إليها.

وأخيراً فإن موضوع هيمنة القرآن على السنة موضوع يحتاج إلى شرح أطول وبيان أوسع وتطبيق أوضح، وهو موضوع لم نصل فيه بعد إلى تصور كامل شامل لا يحدث قطيعة مع المناهج المسددة من قبل الأمة، ولا يحدث انفراطاً لعقد المنظومة الأصولية.

أما بالنسبة للموضوع: عقوبة الردة فقد ركزت الدراسة على أربع نقاط:

أولاً: أن القرآن الكريم أكد على قيمة الحرية، ولم يذكر عقوبة دنيوية.

ثانياً: أنه - عليه الصلاة والسلام - لم يطبق حد الردة.

ثالثاً: مناقشة حديث (من بدل دينه فاقتلوه).

رابعاً: مذاهب الفقهاء.

ولعلي هنا أمر بسرعة على هذه النقاط مكتفياً بالإشارة إلى وجهة نظري وفاقاً أو اختلافاً.

فبالنسبة للنقطة الأولى: أتفقُ مع ما ذكر فضيلته من أن القرآن أكد على قيمة الحرية ولم يذكر عقوبة دنيوية إلا أنني أود أن أشير إلى عدد من الأمور: أولا: أن النفي للإكراه ورد في صيغة عموم، هي النكرة المنفية مركبة مع (لا)، وهذه من صيغ العموم المتفق عليها بين الجمهور بمن فيهم القرافي الذي خالف في اعتبار النكرة المنفية دالة على العموم إلا في سياقات، هذا منها، وهو معروف لا نطيل به لكن العموم لا بد أن يدل على فرد من أفراده فهو قطعي فيه. وهنا دلّ على أنه لا يجوز إكراه شخص على اعتناق الدين والانتقال من دين إلى دين.

ولهذا اعتبر المفسرون أن الإكراه على البقاء ليس كالإكراه على الابتداء وقد عبر عن ذلك ابن عاشور في التحرير والتنوير.

ثانياً: لو أعملنا هذا المنطق في عدم الإكراه على البقاء في الدين لكانت فروض الدين الأخرى معرضة للتحلل منها دون زاجر، كالصلاة والصوم والزكاة، وكذلك ارتكاب المحرمات التي ليس فيها سوى حق الله كالخمر. ولخرجت حقوق الله من دائرة الزواجر، وأصبح المسلم وغيره في الوضع نفسه.

(فمعلوم أن غير المسلم لا يعاقب فيما يختص بحق الله - تعالى - عند الأحناف طرداً لقاعدة عدم الإكراه فمن لم يُكره في الأصل لا يكره في الفرع).

ثالثاً: إن ذكر عقوبة الآخرة فقط في النصوص القرآنية ليس دليلاً قاطعاً على عدمها، وإنما هو من باب إشارة النص. كما يقول الطوفي في مسألة القتل عمداً. وإشارة النص لا عمل عليها مع وجود النص وهو الحديث، وبالتالي لا يفترض وجود التعارض.

رابعاً: إن الوفاء بالعهد والعقد أمر مطلوب ومقصد من مقاصد الشريعة، وعهده - تعالى - أحق بالوفاء، والدولة في الإسلام مسئولة عن المحافظة على الدين الذي يقع على رأس قائمة الضرورات في سلم المقاصد.

النقطة الثانية: أما كونه - عليه الصلاة والسلام - لم يطبق حد الردة؛ فهذا صحيح؛ ولكن تطرق الاحتمال قد يمنع من صحة الاستدلال مع ورود حديث أخرجه الدارقطني والبيهقي في شأن أم مروان ارتدت فأقام عليها - عليه الصلاة والسلام - الحد، ولكنه ضعيف، وكذلك حديث عائشة أن امرأة ارتدت يوم أحد... إلى آخره. وهي أحاديث ضعيفة.

وأنا أتفق مع فضيلته في أنه كان يعرف المنافقين، وقد عينهم القرآن أحياناً كقوله تعالى: (يقولون لئن رجعنا إلى المدينة)... ولا يوجد أدنى شك لدى المسلمين في أن ابن أبي كان المراد بذلك كما أبهمهم أحياناً أخرى.

ولكن هل كان حدُّ الردة قد فرض؟ هل تصرفه - عليه الصلاة والسلام - بالولاية في عدم إقامته نظرٌ في المآلات؟ وهل كان ذلك من قضايا الأعيان؟ أم أن توبتهم الظاهرة كانت سبباً في عدم إقامته؟

إلا أن تطبيق الصحابة له دون نكير كما في الأثر أن الصديق - عليه رضوان الله - أقام الحد على أم قرفة والصحابة متوافرون ولم ينكروا عليه، أخرجه الدارقطني والبيهقي مما جعل الأمر من السنن العملية، واستمرار الأمة على ذلك جعله من القضايا التي لا تكاد تسمع للاختلاف فيها ركزاً.

ولهذا فإن أكثر العلماء لم يذكروا الخلاف في موضوع الردة إلا في حالتين هما:

أولاً: هل يستتاب المرتد أو لا يستتاب؟ وجعلوا ما ورد عن عمر - رضي الله عنه - دالاً على الاستتابة، وليس مناهضاً لأصل حد الردة.

ثانياً: مسألة تطبيق حد الردة على المرأة، ومن المعروف أن الجمهور يقولون بتطبيقه على المرأة، وخالفهم أبو حنيفة وابن شبرمة والثوري وعطاء والحسن؛ فقالوا: لا تقتل المرأة المرتدة، واحتجوا بنهيه - عليه الصلاة والسلام - عن قتل النساء في الجهاد.

ولم يذكروا خلافاً آخر سوى ما أشار إليه فضيلته من ذكر بعضهم لرأي إبراهيم النخعي الذي قال: (يستتاب المرتد أبداً) كما في نيل الأوطار للشوكاني وغيره.

أما ما ذُكر عن أمير المؤمنين عمر - رضي الله عنه - فالروايات عنه مضطربة؛ فتارة تدل على الاستتابة، وتارة تدل على الحبس والسجن فلا تقوم بها حجة.

وفي رأيي أن موقفه يرجع إلى حرصه على عدم تنفيذ حد القتل. فقد ذكر ابن فرحون في تبصرته أنه كان يأمرُ ولاته بمراجعته قبل تنفيذ أحكام القتل.

النقطة الثالثة: حديث (من بدل دينه فاقتلوه) إنَّ الدراسة ذكرت طرق الحديث وكثيراً من شواهده ومتابعاته بقدرٍ غير يسير من المناقشة الحديثية، إلا أن بعض الشواهد لم تحظ بقدرٍ كافٍ من النقد، وهي:

حديث بريدة في قصة معاذ وأبي موسى وفيه قول معاذ: قضاء الله ورسوله.. إلى آخر الحديث. متفق عليه. وفي رواية لأحمد: (قضى الله ورسوله أن من رجع عن دينه فاقتلوه).

وحديث عثمان وفيه: وارتدَّ بعد إسلامه فعليه القتل. أخرجه النسائي وصححه الألباني وغيره.

وحديث آخر لعثمان وفيه: كفر بعد إيمان. أشارت إليه الدراسة ص ١٤٢ .

هذه الأحاديث لم تحظَ بما تستحق من النقد، وهي بالإضافة إلى ما ذكر فضيلته من الآثار عن الصحابة والتابعين دليل قوي على استفاضة الحديث إن لم نقل تواتره؛ بحيث يصبح تأثير العلل المشار إليها ضعيفاً.

أما حديث ابن مسعود وفيه: (التارك لدينه المفارق للجماعة).. فهو قد يشهد لما ذهب إليه فضيلته من أن الجرم سياسي يتعلق بنظام الدولة وليس بسبب تبديل الدين، وتحمل أحاديث الإطلاق عليه حملاً للمطلق على المقيد، ولكنه سبيل لم يعرج عليه أحد من فقهاء الأمة.

النقطة الرابعة: مذاهب الفقهاء وقد سردها فضيلته بدقة واختصار، وأريد هنا أن أؤكد ما أشار إليه فضيلته من أن المذهب الحنفي تعرض لقضية الردة في كتاب السير، وليس في كتاب الحدود.

ويمكن أن نستنتج عدة نتائج من موقف الأحناف ومن يوافقهم في التفرقة بين الرجل والمرأة:

أولاً: أن الأحناف قد يكونون متأثرين بمذهب إبراهيم النخعي - رحمه الله تعالى - في عدم وجوب حد القتل على المرتد؛ لأنه لو وجب ما كان للتفرقة بين الرجل والمرأة وجه.

ثانياً: أن من يقولون بالتفرقة بين الرجل والمرأة ضاقت بهم سبل التعليل حتى صرح بعضهم بأن القتل ليس للردة؛ وقد صرح فخر الإسلام البزدوي بذلك

كما ذكره ابن قاضي سماوة في جامع الفصولين حيث يقول: ارتداد الصبي العاقل يصح عندهم، إلا أنه لا يقتل إذ القتل يجب بالحرب لا بعين الردة ولم يوجد فأشبه ردة المرأة.

ولعل هذا يؤيد ما ذهب إليه فضيلة الدكتور طه إلا أن هذا التعليل يرجع إلى اعتبار الرجل الكافر محارباً بالقوة ولو لم يكن محارباً بالفعل. وفيه صعوبة وإشكال لا يخفى.

ويمكن اعتبار الإجماع منعقداً منذ أواخر القرن الثاني الهجري على حكم قتل الرجل المرتد، وهو إجماع يعتمد على السنة القولية وعلى عمل الصحابة وأقوالهم وأقوال التابعين.

وقد اختلف العلماء في انعقاد الإجماع بعد الاختلاف كما هو معروف في أصول الفقه.

والذي يظهر لي:

١. أن حكم قتل المرتد ثابت بالسنة القولية، وأن ذلك لا يعارض النصوص القطعية للقرآن، بل يخصص عمومياته، وبخاصة أن السنة صحبها عمل الأمة وإجماعها النطقي والعملي، وذلك طيلة أربعة عشر قرناً إلا تلك الأقوال القليلة التي أشارت إليها الدراسة.

٢. أن تصنيف هذه العقوبة في خانة التعزيرات التي تراعى فيها المآلات والظروف والمتغيرات يقبل أن يكون محل اجتهاد لما أشارت إليه الدراسة من الاختلاف، وبخاصة أن تعليل الأحناف بالحرب لا بالردة أمر يشير إلى تأثرهم بمذهب إبراهيم النخعي - رضي الله عنه.

٣. أن مسألة العقوبات الشرعية ليست من قضايا فقه الأقليات؛ فكل الأحكام السلطانية لا يطالبون بها، وقد رجحنا في ذلك مذهب أبي حنيفة.

٤. وفي ظل العولمة فإن البلدان الإسلامية وفقهاء الشريعة مدعوون إلى مراجعة فتاواهم ومواقفهم من كثير من القضايا على ضوء التداعيات العالمية المعقدة. وقد ثبت عن خلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم تعليق بعض الحدود لمقتضيات المصالح والضرورات.

٥. فيما يتعلق بمنهجية هيمنة القرآن على السنة فإن هذا يشير إلى افتراض تعارض، والمفروض أن تكون نقطة البداية: أنه لا يوجد تعارض بين القرآن والسنة، فكما

يقول الشافعي: إنه لا تخالف له سنة أبداً كتاب الله، إن سنته وإن لم يكن فيها نص كتاب لازمة.

وقد شرح الشافعي شرحاً طويلاً السنة وبيانها للقرآن تارة واستقلالها تارة، وأثبت أن القرآن هو الحكم عند اختلاف السنة قائلاً: قلت: أن يكون أحد الحديثين أشبه بكتاب الله فإذا أشبه كتاب الله كانت فيه الحجة.

وقد أشرت إلى الهيمنة التي مردها إلى الثبوت أو إلى الظروف ولها جذورها في أصول الفقه. وإني أخشى أن تكون الدعوة إلى هيمنة القرآن سبيلاً لانفراط سلك الشريعة، وطريقاً لمن لا يحسن التعامل مع الأدلة، ولم يرقص على الجزئيات والكليات ومقاصد الشريعة؛ أن يدعي فهماً من القرآن لا يناسب المقام، ولا تساعده القواعد اللغوية أو الأصول الكلية، أو يحكم مصالح ملغاة.

ولهذا فإني حريص على الاستناد على القواعد التي ضبطها العلماء، مع توسيع أوعية الاستنباط ومولدات الأحكام وبخاصة في القضايا المستجدة.

٦- إن أزمة الأمة في معظمها أزمة عجز في استيعاب الفكر الإنساني؛ من فلسفة وتاريخ بشري وسنن كونية؛ للانخراط في الحضارة من جديد، وإزالة عقد الفساد والاستبداد، ولا ينكر أن ضحالة التفقه تشكل وجهاً من الأوجه التي تعرفونها جيداً.

٧ - إني أخشى أن تخضع مقولاتنا لعوامل الضغط الحضاري؛ لنرمي ريشنا كلما هبت ريح زعزع من الغرب أو من الشرق، ونغير ثوابتنا.

وأخيراً: فإني أرجو من فضيلة الأخ العزيز العلامة الفاضل الشيخ الدكتور طه جابر العلواني أن لا يرى فيما كتبت إلا إخلاصاً لما أعتقده، ومحضاً للنصح، ووفاء للأخوة، مع اعترافي بجو الاستعجال الذي كتبت فيه الخواطر لتسجيل أفكار للتذاكر معكم. ■

يمكن اعتبار الإجماع منعقداً منذ أواخر القرن الثاني الهجري على حكم قتل الرجل المرتد، وهو إجماع يعتمد على السنة القولية وعلى عمل الصحابة وأقوالهم وأقوال التابعين

يسعدني أن أقدم لأمتي المسلمة، ولفقهائها خاصة، وللباحثين عن الحقيقة عامة كتابي (إشكالية الردة والمرتدين من صدر الإسلام إلى اليوم) . في طبعته الثانية . التي بذلت جهدي في أن أفي فيها بما وعدت به قرائي الكرام من استكمال نواقص الكتاب، ومنها الموضوعات التي لم أتمكن عند إعداد الطبعة الأولى من استيفائها بشكل يمنحني الرضى والقناعة بها، وبفضل الله وقوته قد من الله . جل شأنه . علي باستكمال ما فات، وتناول ما لم أتناوله في طبعة الكتاب الأولى بعد مرور ثلاث سنوات على صدورها.

إن من أهم ما اشتملت عليه هذه الطبعة الجديدة مبحثين هامين: الأول تناولت فيه الأحاديث والآثار والسنن القولية ذات العلاقة بالموضوع. وقد حاولت دراستها ومناقشتها لبيان أن عدم وجود حد شرعي للردة لم يرد ما يعارضه من السنة القولية.

. أيضاً . إضافة إلى ما كنا قد أثبتناه من عدم وجود حد في السنة الفعلية؛ وبذلك تتضافر الأدلة . كلها . على نفي الدليل على وجود حد شرعي منصوص عليه لجريمة تغير الاعتقاد الديني أو تغير التدين من غير انضمام أي فعل جرمي آخر إليه.

فلا وجود لهذا الحد في القرآن المجيد وهو المصدر المنشئ الأوحد لأحكام الشريعة: «وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً» (المائدة: ٤٨)، «ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون» (آل عمران: ٢٣).

ولم نجد واقعة واحدة من وقائع عصر النبوة تشير إلى ما يمكن أن يقوم دليلاً على قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم بتطبيق عقوبة دنيوية ضد من يغيرون دينهم، مع ثبوت ردة عناصر كثيرة عن الإسلام في عهده صلى الله عليه وسلم ومعرفة رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم: «إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً» (النساء: ١٣٧). وذلك ينفي وجود حد للردة في السنة الفعلية التطبيقية . وباستقرائنا لما ورد من سنن قولية لم نجد . كذلك . ما يمكن أن يقوم دليلاً على وجود حد شرعي دنيوي لهذه الفعلة.

وأما المبحث الأخر فقد عرضت وناقشت فيه مذاهب الفقهاء؛ خاصة أن جمهرة أهل الفقه قد استندوا فيما ذهبوا إليه من وجوب قتل المرتد إلى السنة القولية والإجماع، فكان لا بد من الوقوف على تلك المذاهب مذهباً مذهباً، ومعرفة أقوالهم تفصيلاً، وأدلتهم التي بنوا عليها تلك الأقوال، ومناقشتها تفصيلاً . وقد تبين أن الفقهاء كانوا يعالجون جريمة غير التي نعالجها؛ إذ كانوا يناقشون جريمة مركبة اختلط فيها السياسي والقانوني والاجتماعي، بحيث كان تغيير المرتد دينه أو تدينه نتيجة طبيعية لتغيير موقفه من الأمة والجماعة والمجتمع والقيادة السياسية والنظم التي تتبناها الجماعة، وتغيير الانتماء والولاء تغييراً تاماً .

كذلك ناقشنا دعوى الإجماع وثبت لنا وأثبتنا أنه لم يكن هناك إجماع على وجود حد أو عقوبة شرعية ثابتة بالقرآن مبينة بالسنة للردة بالمفهوم الذي أوضحنا.

وبذلك ثبت أن الإنسان . في الإسلام . يملك حرية اختيار الدين الذي يتدين لله به، وهي حرية ذاتية ائتمنه الله . تعالى . عليها؛ ولذلك كانت هذه الحرية مناط المسئولية الإنسانية، فالمكره خارج من دائرة التكليف لا يحمل مسئولية ما يكره عليه أو يلجأ إلى فعله مهما كان، لا في الدنيا ولا في الآخرة.

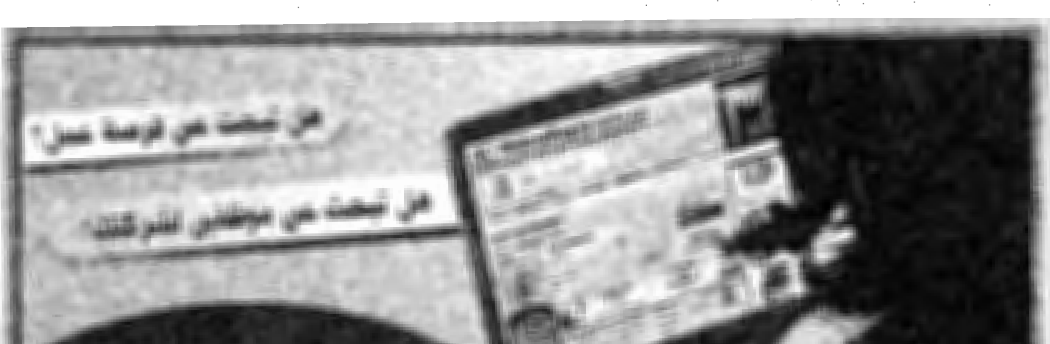
وحين تنتقص حريته في الاختيار تنتقص مسئولياته بقدر ما ينتقص من حريته. وكل ما أمر الله الإنسان به، أو نهاه عنه ربطه بوسع الإنسان وطاقته: «لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسراً» (الطلاق: ٧)، أي: ما آتاها من الطاقة والقدرة وحرية الاختيار.

وترك الله . تعالى . الإنسان فيما يسأل عنه ومشيئته الإنسانية الحرة: «وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا اعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقاً» (الكهف: ٢٩).

وأعمل الله إرادة الإنسان، وأعطاها الفاعلية التامة في مجال الاختيار: «من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً . ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً» (الإسراء: ١٨، ١٩).

وفرق سبحانه في المسئولية بين جزاء الخطأ وجزاء العمد . كما فرق بين الخطأ الحاصل عن إهمال، والخطأ الحاصل عن عمد وقصد، وبين الإصرار على الخطأ والاستمرار فيه، وبين التراجع عنه، والتوبة منه. وهذا . كله . وكثير معه يؤكد على حرية الإنسان في إرادته وقصده وفكره وتعبيره وفعله . وسوف يتضح ذلك بجلاء في هذا البحث الذي أردنا أن نقدمه نموذجاً للمراجعات الجادة لتراثنا . التي على أهل العلم أن يقوموا بها لتنقية تراثنا الخصب الفني المتنوع مما لحق به في بعض الفترات التاريخية لعوامل كثيرة.

طه جابر العلواني





فى العقل والعقلانية الإسلامية

محمد عمارة

بالعقل عرف الخلق الله، وشهدوا عليه بالعقل الذى عرفوه به من أنفسهم بمعرفة ما ينفعهم ومعرفة ما يضرهم.. وبه أقام الله على البالغين للحلم الحجة

■■ إن المشهد المعاصر، إزاء «العقل والعقلانية» - محلياً.. وعالمياً - يشهد بتعدد المواقف - وأحياناً تناقضها - إزاء العقل والعقلانية.. سواء فى الموقف المبدئى.. أو فى المقصود والمراد من هذه المصطلحات..

وإذا شئنا تصنيفاً إجمالياً للمواقف والمذاهب المعاصرة إزاء «العقل والعقلانية».. فإننا واجدون:

١ - تياراً نصوصياً: يقف أصحابه عند ظواهر النصوص، ويتنكرون للنظر العقلى.. بل يخلطون بين «العقل» وبين «الهوى»!.. كما لا يميزون بين مفاهيم «العقل والعقلانية» لدى مختلف المذاهب والفلسفات والديانات والحضارات..

٢ - وتياراً باطنياً: يدعى التصوف.. لكنه أقرب إلى «الغنصوية - الباطنية»، التى اعتمدت على «الحدس» دون العقل والنقل والتجارب الحسية.. ولذلك تنكر هذا التيار الباطنى للعقل والعقلانية، كما اعتمد - فى التعامل مع النصوص الشرعية - على التأويل العبثى، الذى لا ينضبط بضوابط اللغة وثوابت الاعتقاد والمحكم من النصوص.

٣ - تياراً حداثياً غربياً: له امتدادات متغربة فى واقعنا العربى والإسلامى.. ذهب إلى تأليه العقل، فجعل شعاره: «لا سلطان على العقل إلا للعقل وحده»!.. وبذلك أضفى على سلطان العقل وقدراته طابع «الإطلاق»!.. مخالفاً بذلك دعوته إلى «النسبية» - التى أراد لها أن تشمل الوحى والدين!

ولقد قاد هذا «الغرور العقلانى» هذا التيار التغريبى إلى مخاصمة النص الدينى الإسلامى، وافتعال معركة وهمية بين «العقل» و«النقل» وذلك تقليداً لما عرفته المسيرة الحضارية الغربية، دون إدراك للتمايز الدينى والحضارى الإسلامى، الذى جاء «النقل» فيه معجزة عقلية.. والذى تصور لغته العربية أن المقابل «للعقل» ليس «النقل» وإنما هو «الجنون»!..

٤ - وتياراً ما بعد الحداثة، الذى يحاول التمدد على أنقاض الحداثة الغربية، داعياً إلى تفكيك منظوماتها ومسلماتها الكبرى حول «العقل» و«العلم» و«التقدم».. والذى لا يقدم للإنسان سوى «العدمية» و«الفوضوية» - ذات المنطلقات التلمودية!! - التى تصيب الإنسان بالشك العبثى فى كل شىء - ومن ثم تحرمه من أى لون من ألوان «الأمن» و«الطمأنينة» و«اليقين»!!

٥ - أما التيار الخامس، الذى تتميز مواقفه إزاء «العقل والعقلانية» فهو تيار الوسطية الإسلامية، الذى يقيم عقلانيته على كتابى «الوحى» و«الوجود».. على نور الشرع ونور العقل. لتكون عقلانيته هذه عقلانية مؤمنة متوازنة، العقل فيها هو الأساس، والدين فيها هو البناء على هذا الأساس.

وفى هذه الدراسة التى نقدم بين يديها، إسهام يحاول إبراز معالم هذه القضية، التى تمثل المدخل الأساسى والشرط الأول لحسن التعامل مع الدين والدنيا.. ومن ثم المنهاج العلمى الذى نجدد به ديننا الإسلامى لتتجدد به دنيا المسلمين.

والله نسأل أن ينفع بهذه الدراسة.. وأن يوفقنا إلى ما يحبه ويرضاه.

مما يلفت النظر فى تراث الإسلام شيوع الإعلاء لمقام العقل والعقلانية فى تراث الأغلبية العظمى لمذاهب الإسلام.. فباستثناء «أهل الحديث» الذين برعوا فى صناعة «الرواية» وتحفظوا كثيراً على النظر العقلى و«الدراية» ومن ثم حرموا الاشتغال بعلم الكلام - فإننا واجدون للعقلانية الإسلامية مقاماً عالياً ومكاناً ملحوظاً ووضعاً متميزاً وممتازاً فى عموم تراث مذاهب الإسلام، على امتداد تاريخ هذا التراث، وعلى تنوع مذاهب أئمته وأعلامه..

حدث ذلك فى عصر ازدهار الحضارة الإسلامية.. وفى عصر الإحياء والتجديد الذى بدأت به أمتنا عصرها الحديث.

وإذا شئنا إشارات، مجرد إشارات، إلى شهادات الأئمة والعلماء والأعلام التى تعلى من مقام العقل والعقلانية، فإننا واجدون أنفسنا أمام تراث تباهى به أمتنا من عداها من الأمم والحضارات.. وعلى سبيل المثال:

١ - لقد دار حوار بين الإمام على بن أبى طالب (٢٣ ق. م - ٤٠ هـ ٦٠٠ - ٦٦١م) كرم الله وجهه - وبين أحد السائلين - بدأه الإمام على بقوله:

- ألست تقول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم؟

- فقال السائل: بلى.

- فقال الإمام على: تعرف تفسيرها؟

- فقال: لا يا أمير المؤمنين، علمنى مما علمك الله.

- فقال الإمام: إن العبد لا قدرة له على طاعة الله إلا بالله، ولا على معصيته إلا به عز وجل، يا سائل اعقل عن الله.

- فقال: عقلت.

- فقال له: الآن صرت مسلماً، قوموا إلى أخيكم المسلم وخذوا بيده.. فالعقل عن الله هو دليل الإسلام!

٢ - أما الحسن البصرى (٢١ - ١١٠ هـ ٦٤٢ - ٧٢٨م) - الذى كان إمام عصره، والذى خرج تيار العقلانية الإسلامية - (أهل العدل والتوحيد) - من تحت عباءته ومن مجلس علمه، فإنه هو القائل: «ما تم دين الرجل حتى يتم عقله، وما أودع الله عز وجل امرءاً عقلاً إلا استنقذه به يوماً ما».

٣ - فإذا جئنا إلى هذه الدراسة العقلية، التى مثلت فرسان العقلانية الإسلامية.. والتى حاورت أصحاب المذاهب غير الإسلامية - الدينية منها والفلسفية - وردت شبهاتهم.. ونشرت الإسلام فى الحواضر التى كانت فيها المواريث الفلسفية القديمة والمؤسسات الدينية غير الإسلامية - وهى مدرسة المعتزلة - أهل العدل والتوحيد - فإننا نجد أنفسنا بإزاء عقلانية مؤمنة، انطلقت - ربما لأول مرة فى تاريخ الفلسفة - من الدين.. وجعلت مهمتها الأولى الدفاع عن الدين بالبراهين العقلية..

وفى هذه المدرسة نجد:

■ الشك المنهجى: علماً من العلوم.. يجب تعلمه للوصول إلى اليقين.. وعنه يقول الجاحظ (١٦٣ - ٢٥٥هـ ٧٨٠ - ٨٦٩م):

«فاعرف مواضع الشك، وحالاتها الموجبة له، لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له. وتعلم الشك فى المشكوك فيه تعلماً، فلو لم يكن فى ذلك إلا تعرف التوقف، ثم التثبت، لقد كان ذلك مما يحتاج إليه.. فلم يكن يقين قط حتى كان قبله شك. ولم ينتقل أحد عن اعتقاد إلى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حال شك.

والعوام أقل شكوكاً من الخواص، لأنهم لا يتوقفون فى التصديق والتكذيب، ولا يرتابون بأنفسهم، فليس عندهم إلا الإقدام على التصديق المجرد، أو التكذيب المجرد، وألغوا الحالة الثالثة من حال الشك، التى تشتمل على طبقات الشك، وذلك على قدر سوء الظن بأسباب ذلك، وعلى قدر الأغلب..».

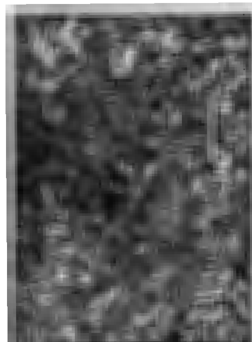
فالشك المنهجى علم من علوم العقلانية الإسلامية.. وهو غير «الشك العبثى» الذى يشكك فى كل شىء - كحال عدمية ما بعد الحداثة الغربية وتفكيكها العبثى - فالشك له مواضع، وله حالات توجبه.. والهدف منه هو الوصول إلى اليقين الراسخ، الذى لا سبيل إليه - أحياناً - إلا عبر هذا الشك المنهجى..

ولقد أسست هذه المدرسة الفلسفية الإسلامية هذا العلم على المنطق القرآنى، الذى يؤسس العقائد على الحوار المفضى إلى اليقين.. ومثلوا لذلك بحوار خليل الله إبراهيم - عليه السلام - مع ربه - سبحانه وتعالى -: {وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم}. البقرة: ٢٦٠.

فمن هذا الحوار نتعلم منهج الشك - السؤال.. وتأسيس اليقين على التجريب..

كما استندت هذه العقلانية الإسلامية، فى تأسيس هذا الشك المنهجى، على منهاج النبوة الذى تعامل به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مع الذين

في العقل والعقلانية الإسلامية



جعل الله العقول معادن الحكمة، ومقتبس الآراء، ومستنبط الفهم، ومعقل العلم، ونور الأبصار، إليها يأوي كل محصول، وبه يستدل على ما أخبر به من علم الغيوب

اعتراهم الشك، وطرأت عليهم الوساوس - من الصحابة - فاستعظموا ذلك.. وذهبوا إلى الرسول، صلى الله عليه وسلم - باحثين عن اليقين..

فلقد روى الإمام مسلم والإمام أحمد: «جاء ناس من أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - فسألوه:

- إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به؟!

- قال - صلى الله عليه وسلم -: وقد وجدتموه؟

- قالوا: نعم.

قال: ذاك صريح الإيمان.. محض الإيمان»..

فهنا.. تأسس صريح الإيمان، محض الإيمان - اليقين الإيماني عبر الشك الذي جعلوه طريقاً إلى اليقين..

● كذلك يتحدث الجاحظ عن هذه العقلانية الإسلامية التي جمعت - لأول مرة - بين «التوحيد - الإيمان الديني» وبين «الطبائع.. والأسباب الطبيعية» المودعة في الكون والاجتماع.. وكيف أن هذا الجمع والتأليف هو العلامة على بلوغ العقل والفكر درجة التمكن من «صناعة الفلسفة».. فيقول:

«وليس يكون المتكلم جامعاً لأقطار الكلام، متمكناً من الصناعة، يصلح للرياسة، حتى يكون الذي يحسن من كلام الدين في وزن الذي يحسن من كلام الفلسفة. والعالم عندنا هو الذي يجمعهما، والمصيب هو الذي يجمع تحقيق التوحيد وإعطاء الطبائع حقها من الأعمال. ومن زعم أن التوحيد لا يصلح إلا بإبطال حقائق الطبائع فقد حمل عجزه على الكلام في التوحيد، وكذلك إذا زعم أن الطبائع لا تصلح إذا قرنها بالتوحيد، ومن قال هذا فقد حمل عجزه على الكلام في الطبائع. وإنما ييأس منك الملحد إذا لم يدعك التوفر على التوحيد إلى بخس حقوق الطبائع، لأن في رفع أعمالها رفع أعيانها، وإذا كانت الأعيان هي الدالة على الله، فرفعت الدليل، فقد أبطلت المدلول عليه!.. ولعمري! إن في الجمع بينهما لبعض الشدة!!.. وأنا أعوذ بالله تعالى أن أكون كلما غمز قناتي باب من الكلام صعب المدخل، نقضت ركناً من أركان مقالتي، ومن كان كذلك لم ينتفع به!..».

فهنا - ولأول مرة في تاريخ الفلسفة والتفلسف - تتأسس فلسفة على العقلانية المؤمنة.. فتجمع بين الدين وبين الفلسفة.. بين التوحيد الإيماني وبين «الطبائع» معطية كل ذي حق حقه..

● وفي هذا الإطار نفهم قول الإمام المعتزلي أبو علي الجبائي (٢٣٥ - ٣٠٤ هـ ٨٤٩ - ٩١٦م):

«إن الواجب الأول على الإنسان هو النظر».

● وقول الإمام أبو هاشم الجبائي (٢٤٧ - ٣٢١ هـ (٨٦١ - ٩٣٣م):

«إن الواجب الأول على الإنسان هو الشك»!

● فإذا جئنا إلى قاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد الهمداني (٤١٥ هـ - ١٠٢٤م) - وهو الذي أنقذت أعماله الفكرية مذهب الاعتزال وعقلانيته من الضياع - وجدناه يقول:

«إن الأدلة أولها - دلالة العقل، لأن به يميز بين الحسن والقبيح، ولأن به يعرف أن الكتاب حجة، وكذلك السنة، والإجماع.

وربما تعجب من هذا الترتيب بعضهم، فيظن أن الأدلة هي: الكتاب والسنة، والإجماع، فقط. أو يظن أن العقل إذا كان يدل على أمور فهو مؤخر، وليس كذلك، لأن الله تعالى لم يخاطب إلا أهل العقل، ولأن به يعرف أن الكتاب حجة، وكذلك السنة، والإجماع، فهو أصل في هذا الباب، وإن كنا نقول: إن الكتاب هو الأصل، من حيث إن فيه التنبيه على ما في العقول، كما أن فيه الأدلة على الأحكام.

وبالعقل يميز بين أحكام الأفعال وبين أحكام الفاعلين، ولولاه لما عرفنا من يؤاخذ بما يتركه أو بما يأتيه، ومن يحمد ومن يذم، ولذلك تزول المؤاخذة عمن لا عقل له.

ومتى عرفنا، بالعقل: إلهاً منفرداً بالإلهية، وعرفناه حكيماً: نعلم في كتابه أنه دلالة، ومتى عرفناه مرسلاً للرسول، ومميزاً له، بالأعلام المعجزة، من الكاذبين، علمنا أن قول الرسول حجة. وإذا قال - صلى الله عليه وسلم -: «لا تجتمع أمتي على خطأ.. وعليكم بالجماعة».. علمنا أن الإجماع حجة..».

● ولذلك، وانطلاقاً من هذا الإنجاز غير المسبوق: تأسيس «فلسفة - دينية، وعقلانية - مؤمنة» نظر المستشرقون الذين فقهوا هذه الحقيقة إلى هذا الإنجاز غير المسبوق بإعجاب واستغراب.. فقال المستشرق الإنجليزي «ألفريد جيوم»:

«إن قوة الحركة الاعتزالية مردها جهود أولئك الذين حاولوا أقصى ما في طوقهم إقامة علم الكلام الإسلامي على أسس ثابتة من الفلسفة، مصرين في الوقت نفسه على أن تكون تلك الأسس منطقية، ثم الانسجام بينها وبين الفلسفة التي يجب أن تدرس بوصفها من صميم العقيدة الدينية».

وبعبارة المستشرق «جب»:

«.. فلقد استطاع المعتزلة أن ينشئوا الفلسفة الأخلاقية المستمدة من القرآن..».

٤ - فإذا انتقلنا إلى «شهادة» أخرى.. لشاهد آخر هو الإمام الحارث بن أسد المحاسبي (١٦٥ - ٢٤٣ هـ - ٧٨١ - ٨٥٧م) - الذي عاش وأبدع في القرن الثالث الهجري، والذي جمع في عقله ووجدانه وإبداعه بين التصوف.. وعلم الكلام (الفلسفة).. والسلفية - وجدنا مقام العقل عنده يتألق عالياً.. حتى ليقول فيه:

«العقل: غريزة وضعها الله سبحانه في أكثر خلقه.. ونور في القلب كالنور في العين.. يولد العبد بها، ثم يزيد فيه معنى بعد معنى بالمعرفة بالأسباب الدالة على العقول:

والمعرفة عن العقل تكون.. وهو صفوة الروح.. ولقد سمي العقل لباً، ولب كل شيء خالصه، وقال الله عز وجل: (إنما يتذكر أولو الألباب) - الزمر: ٩ -..

وبالعقل عرف الخلق الله وشهدوا عليه بالعقل الذي عرفوه به من أنفسهم بمعرفة ما ينفعهم ومعرفة ما يضرهم.. وبه أقام الله على البالغين للحلم الحجة.. وإياهم خاطب من قبل عقولهم، ووعد وتوعد، وأمر ونهى وحض وندب..

ولقد روي في التفسير لما قال الله تعالى لموسى عليه السلام: (فاستمع لما يوحى) - طه: ١٣ -.. «اعقل ما أقول لك».. فالفهم والبيان يسمى عقلاً، لأنه عن العقل كان.. والله عز وجل يقول: (وتعيها أذن واعية) - الحاقة: ٢١ -.. أي أذن عقلت عن الله تعالى، يعني عقل عن الله ما سمعت أذناه، مما قال أو أخبر..

وإذا تم عقل المؤمن عن ربه أفرده عز وجل بالتوحيد له في كل المعاني.. ولا غناء بالعبد عن التفكر والنظر والذكر ليكثر اعتباره، ويزيد في علمه، ويعلو في الفضل.. فمن قل تفكره قل اعتباره، ومن قل اعتباره قل علمه، ومن قل علمه كثر جهله، وبان نقصه، ولم تجد طعم البر ولا برد اليقين، ولا روح الحكمة.. فما أقربه في حياته من حياة البهائم التي لا تعرف إلا ما باشرته بجوارحها..

ولقد جعل الله العقول معادن الحكمة، ومقتبس الآراء، ومستنبط الفهم، ومعقل العلم، ونور الأبصار، إليها يأوي كل محصول، وبه يستدل على ما أخبر به من علم الغيوب، فبها يقدرون الأعمال قبل كونها، ويعرفون عواقبها قبل وجودها، وعنها تصدر الجوارح بالفعال بأمرها، فتسارع إلى طاعتها، أو تزجرها فتمسك عن مكروهها..

ولقد استخلص الله من عباده خالصة من خلقه، فهمت عنه قوله بعقولها، فاتسع لها ما خفي عن الأبصار..

وأعظم العاقلين عند الله عز وجل العارفين عقلاً عنه ومعرفة به، الذين أقروا بالعجز أنهم لا يبلغون في العقل والمعرفة «كنه معرفته»..».

٥ - وفي القرن الثالث الهجري يقول الإمام أبو الحسن الماوردي (٣٦٤ - ٤٥٠هـ، ٩٧٤ - ١٠٥٨م):

«إن السبب المؤدي إلى معرفة الأصول الشرعية.. والعمل بها شيئان:

أحدهما: علم الحس، وهو العقل، لأن حجج العقل أصل لمعرفة الأصول، إذ ليس تعرف الأصول إلا بحجج العقول..

وثانيهما: معرفة لسان العرب، وهو معتبر في حجج السمع خاصة».. «وإن لكل فضيلة أساً، ولكل أدب ينبوعاً، وأس الفضائل وينبوع الآداب هو العقل، الذي جعله الله تعالى للدين أصلاً وللدنيا عماداً، فأوجب التكليف بكماله، وجعل الدنيا مدبرة بأحكامه، وألف به بين خلقه مع اختلاف هممهم ومآربهم، وتباين أغراضهم ومقاصدهم، وجعل ما

تعبدكم به قسمين: قسماً وجب بالعقل، موكده الشرع، وقسماً جاز في العقل، فأوجبه الشرع. فكان العقل لهما عماداً...».

٦ - أما الراغب الأصفهاني (٥٠٢ هـ ١١٠٨م).. الذي تألق بضبط المفاهيم لمفردات غريب القرآن الكريم.. وبالتأليف في محاسن الشريعة الإسلامية ومكارمها.. فإنه هو القائل عن العقل والعقلانية الإسلامية:

«الله عز وجل في خلقه رسولان: أحدهما: من الباطن، وهو العقل، والثاني: من الظاهر، وهو الرسول.

ولا سبيل لأحد إلى الانتفاع بالرسول الظاهر ما لم يتقدمه الانتفاع بالباطن، فالباطن يعرف صحة دعوى الظاهر، ولولاه لما كانت تلتزم الحجة بقوله؛ ولهذا أحال الله من يشكك في وحدانيته وصحة نبوة أنبيائه على العقل، فأمره بأن يفزع إليه في معرفة صحتها.

فالعقل قائد، والدين مدد، ولو لم يكن العقل لم يكن الدين باقياً، ولو لم يكن الدين لأصبح العقل حائراً، واجتماعهما - كما قال الله تعالى -: (نور على نور) - النور: ٣٥».

٧ - فإذا جئنا إلى حجة الإسلام أبو حامد الغزالي (٤٥٠ - ٥٠٥هـ ١٠٥٨ - ١١١١م) الذي مثل - منذ القرن الخامس الهجري وحتى الآن - «ظاهرة فكرية» غطت ميادين: الفقه.. والأصول.. والفلسفة.. والمنطق.. والكلام.. والتصوف.. والأخلاق.. فإننا سنجد له صياغات كثيرة وبديعة وعميقة - بل وفنية - حول مقام العقل.. ودور الوسطية الإسلامية في تميز العقلانية الإسلامية المؤمنة - تميزها عن الغلو النصوصي، الذي يقف أصحابه عند «الأثر».. وعن الغلو العقلاني، الذي يصطنع أهله التناقضات بين العقل والشرع.. وفي ذلك يقول الغزالي:

«إن مثال العقل: البصر السليم عن الآفات والآذاء.

ومثال القرآن: الشمس المنتشرة الضياء.

فأخلق بأن يكون طالب الاهتداء، المستغني بأحدهما عن الآخر في غمار الأغبياء.

فالمعرض عن العقل، مكتفياً بنور القرآن، مثاله: المتعرض لنور الشمس مغمضاً للأجفان، فلا فرق بينه وبين العميان.

فالعقل مع الشرع نور على نور.

وأنى يستتب الرشاد لمن يقنع بتقليد الأثر والخبر، وينكر البحث والنظر؟! أو لا يعلم أنه لا يستند للشرع إلا قول سيد البشر، صلى الله عليه وسلم؛ وبرهان العقل هو الذي عرف به صدقه فيما أخبر.

إن العقل أولى باسم النور من العين، بل بينهما من التفاوت ما يصح أن يقال معه إنه أولى، بل الحق أنه يستحق الاسم دونها.

وعند إشراق نور الحكمة يصير الإنسان مبصراً بالفعل بعد أن كان مبصراً بالقوة. وأعظم الحكمة كلام الله تعالى، فيكون منزلة آيات القرآن عند عين العقل منزلة نور الشمس عند العين الظاهرة، إذ به يتم الإبصار، فبالحرى أن يسمى القرآن نوراً، كما يسمى نور الشمس نوراً. فمثال القرآن: نور الشمس، ومثال العقل: نور العين، وبهذا يفهم معنى قوله تعالى: (فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا).. التغابن: ٨».

«ولا يبعد - أيها المعتكف في عالم العقل - أن يكون وراء العقل طور آخر يظهر فيه ما لا يظهر في العقل، كما لا يبعد كون العقل طوراً وراء التمييز والإحساس ينكشف فيه غرائب، وعجائب يقصر عنها الإحساس والتمييز، فلا تجعل أقصى الكمال وقفاً على نفسك».. «والأصل في ذلك أن وراء ما يتصوره العقلاء أموراً ورد الشرع بها، ولا يعلم حقائقها إلا الله تعالى والأنبياء الذين هم وسائط بين الله تعالى وبين عباده».

«وما قضى العقل باستحالته، فيجب فيه تأويل ما ورد السمع به، ولا يتصور أن يشمل السمع على قاطع مخالف للمعقول».. «والوحي الإلهي والشرع الحق لا يرد بما ينبو عنه العقل.. وليس كل ما لا يدركه العقل محالاً في نفسه.. وفرق بين البعيد والمحال، فإن البعيد هو ما ليس بمألوف، والمحال ما لا يتصور كونه...».

«وأما اتباع العقل الصرف، فلا يقوى عليه إلا أولياء الله تعالى، الذين أراهم الله الحق حقاً وقواهم على اتباعه، ولهذا كان رأس مال كل السعادات العقل...».

«ولقد تحقق أهل السنة أنه لا معاندة بين الشرع المنقول والحق المعقول، وعرفوا أن من ظن من الحشوية - (الظاهرية) - وجوب الجمود على التقليد واتباع الظواهر، ما أتوا به إلا من ضعف العقول وقلة البصائر، وأن من تغلغل من الفلاسفة وغلاة المعتزلة في تصرف العقل حتى صاموا به قواطع الشرع، ما أتوا به إلا من خبث الضمائر، فميل أولئك إلى التفريط، وميل هؤلاء إلى الإفراط، وكلاهما بعيد عن الحزم والاحتياط».

٨ - أما الفيلسوف الفقيه الطبيب المتكلم.. الذي كان الناس يفزعون إلى فتواه في الفقه كما يفزعون إليها في الطب.. والكلام.. والذي اجتمعت الدنيا على أنه الشارح الأكبر لأرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م) - حكيم اليونان.. الذي تميزت شروحه بتخليص فلسفة أرسطو مما شابها من الشرائح السابقين والآخرين.. أما أبو الوليد ابن رشد (٥٢٠ - ٥٩٥هـ ١١٢٦ - ١١٩٨م) فإنه هو القائل - في العقلانية الإسلامية المؤمنة -:

«إن الشرع دعا إلى اعتبار الموجودات بالعقل، وتطلب معرفتها به، فذلك بين في غير ما آية من كتاب الله تبارك وتعالى: مثل قوله تعالى: (فاعتبروا يا أولي الأبصار) - الحشر: ٢ - وهذا نص على وجوب استعمال القياس العقلي، أو العقلي والشرعي معاً.. فواجب أن نجعل نظرنا في الموجودات بالقياس العقلي..

وإذا كانت هذه الشريعة حقاً، وداعية إلى النظر المؤدي إلى معرفة الحق، فإنا، معشر المسلمين، نعلم، على القطع، أنه لا يؤدي النظر البرهاني إلى مخالفة ما ورد به الشرع، فإن الحق لا يضاد الحق، بل يوافقه ويشهد له..

ونحن نقطع قطعاً أن كل ما أدى إليه البرهان، وخالفه ظاهر الشرع، أن ذلك الظاهر يقبل التأويل على قانون التأويل العربي.. بل نقول: إنه ما من منطوق به في الشرع، مخالف بظاهره لما أدى إليه البرهان إلا إذا اعتبر وتصفحت سائر أجزائه، وجد في ألفاظ الشارع ما يشهد بظاهره لذلك التأويل، أو يقارب أن يشهد..

ومبادئ الشرائع لا يشك في وجودها، وكيفية وجودها أمر إلهي معجز عن إدراك العقول الإنسانية.. والصواب: أن تعلم الفرقة من الجمهور التي ترى أن الشريعة مخالفة للحكمة... أنها ليست مخالفة لها.

وكذلك الذين يرون أن الحكمة مخالفة لها، من الذين ينتسبون للحكمة: أنها ليست مخالفة لها. وذلك بأن يعرف كل واحد من الفريقين أنه لم يقف على كنههما بالحقيقة، أعني لا على كنه الشريعة ولا على كنه الحكمة. وأن الرأي في الشريعة الذي أعتقد أنه مخالف للحكمة هو رأي إما مبتدع في الشريعة، لا من أصلها، وإما رأي خطأ في الحكمة، أعني تأويل خطأ عليها.

إن الحكمة هي صاحبة الشريعة، والأخت الرضيعة.. وهما المصطحبتان بالطبع، المتحابتان بالجوهر والغريزة..

٩ - فإذا جئنا إلى إمام الفقه والإفتاء وأبرز المجددين في تاريخنا الوسيط.. وفيلسوف السلفية.. وأعمق نقاد المنطق الأرسطي.. وصاحب الجهود المتميزة في النظر الفلسفي، وتميز الفلسفة الإسلامية بالعقلانية المؤمنة.. شيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١ - ٧٢٨هـ ١٢٦٣ - ١٣٢٨م).. فإننا واجدون لديه كتاباً يلخص عنوانه مذاهب الإسلام في العقلانية: (بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول).. وفيه يقول:

«إن ما عرف بصريح العقل لا يتصور أن يعارضه منقول صحيح قط. وقد تأملت ذلك في عامة ما تنازع الناس فيه فوجدت ما خالف النصوص الصحيحة شبهات فاسدة يعلم بالعقل بطلانها. بل يعلم بالعقل ثبوت نقيضها الموافق للشرع. وهذا تأملته في مسائل الأصول الكبار: كمسائل التوحيد والصفات ومسائل القدر والنبوات والمعاد وغير ذلك.

ووجدت ما يعلم بصريح العقل لم يخالفه سمع قط، بل السمع الذي يقال إنه يخالفه إما حديث موضوع أو دلالة ضعيفة فلا يصلح أن يكون دليلاً لو تجرد عن معارضة العقل الصريح، فكيف إذا خالفه صريح المعقول؟

ونحن نعلم أن الرسل لا يخبرون بمحالات العقول، بل يخبرون بمحارات العقول، فلا يخبرون بما يعلم العقل انتفاءه، بل يخبرون بما يعجز العقل عن معرفته..

والقول كلما كان أفسد في الشرع كان أفسد في العقل، فالحق لا يتناقض، والرسل إنما أخبرت بحق. والله فطر عباده على معرفة الحق، والرسل بعثت بتكميل الفطرة لا بتغيير الفطرة. قال الله تعالى: (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق).. فصلت: ٥٣ - فأخبر أنه سيريهم الآيات الأفقية والنفسية المبينة لأن القرآن الذي أخبر به عباده حق، فتتطابق الدلالة البرهانية القرآنية والبرهانية العيانية، ويتصادق موجب الشرع المنقول والنظر المعقول...».

هكذا تألقت العقلانية الإسلامية في عصر الازدهار لحضارة الإسلام..

وهكذا سادت مناهج التفكير في معظم مذاهب المسلمين، باستثناء «أهل الحديث»، الذين غلبت عليهم «صناعة الرواية» أكثر من «ملكة الدراية».. والذين وصف أبو حامد الغزالي رائدهم الإمام أحمد بن حنبل (١٦٤ - ٢٤١هـ ٧٨٠ - ٨٥٥م) بأنه «لم يكن ممعناً في النظر العقلي».

فباستثناء هذا التيار النصوصي، سادت العقلانية الإسلامية معظم تيارات الفكر في حضارة الإسلام.

تراجع العقلانية الإسلامية

في خط سير الحضارات هناك دورات، وتبادل للمواقع.. بين التقدم والتخلف.. بين النهوض والهبوط (وتلك الأيام نداولها بين الناس). آل عمران: ١٤٠. (ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً). النساء: ١٢٣.

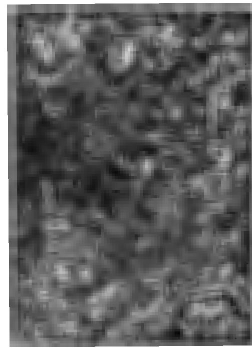
وفي تقرير هذه السنة الاجتماعية. سنة التداول والدورات في خط سير الأمم والحضارات - يقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم -:

«لا يلبث الجور بعدي إلا قليلاً حتى يطلع، فكلما طلع من الجور شيء ذهب من العدل مثله، حتى يولد في الجور من لا يعرف غيره، ثم يأتي الله تبارك وتعالى بالعدل، فكلما جاء من العدل شيء ذهب من الجور مثله، حتى يولد في العدل من لا يعرف غيره». رواه الإمام أحمد..

ولقد جاء حين من الدهر تراجعت فيه العقلانية الإسلامية، ضمن ظاهرة التراجع الذي أصاب الحضارة الإسلامية.. فسادت الركاكة لغتنا العربية.. وطغت المحسنات الشكلية على شعرنا العربي.. وحل الجمود والتقليد محل الاجتهاد والتجديد في مذاهب الفقه الإسلامي.. وانتشرت البدع والخرافات بدلاً من التصوف الحقيقي.. وتراجع علم الكلام الإسلامي، وشاعت مقولة: «من تمنطق فقد تزندق»!

وكانت لهذا التراجع الحضاري - الذي شمل العقلانية الإسلامية - أسباب عديدة، منها الداخلية والخارجية:

● لقد تصاعد الصراع بين «الشعوبية الفارسية» وبين الطابع العربي للخلافة والحضارة.. فحسب الخليفة العباسي المعتصم (١٧٩ -



العقل قائد، والدين مدد، ولو لم يكن العقل لم يكن الدين باقيًا، ولو لم يكن الدين لأصبح العقل حائرًا، واجتماعهما - كما قال الله تعالى: (نور على نور)

٢٢٧هـ ٧٩٥ - ٨٤١م) أن الحل هو تكوين جيش الدولة والخلافة من المماليك الترك المجلوبين من وسط آسيا، بحسبانهم قوة محايدة بين الفرس والعرب، تكون طيعة في يد الخلافة، لا ولاء لها نحو الفرقاء المتصارعين..

ولقد اختار المعتصم مدينة «سامراء» معسكرًا لهذا الجند المماليك.. لكن تضخم هذه المؤسسة العسكرية المملوكية قلب الموازين.. فبدلاً من أن تكون أداة طيعة بيد الخلافة في بغداد، غدت الخلافة «لعبة» بيد هؤلاء العسكر المماليك.. بل وأصبحت «سامراء» هي العاصمة بدلاً من «بغداد»!..

ولقد عبر الشاعر عن هذا الانقلاب، فقال:

خليفة في قفص
بين «وصيف» وبغا»
يقول ما قالا له
كما يقول الببغا!!

وتحدث عنه المسعودي (٣٤٥هـ ٩٥٦م) فقال عن خلفاء ذلك التاريخ: «إنهم كانوا كالمولى عليهم، لا أمر ينفذ لهم!».

ولعجمة هؤلاء العسكر المماليك، وغربتهم عن روح الحضارة الإسلامية وعقلانيتها بدأ التراجع لهذا الطابع الذي ميز هذه الحضارة.. حتى كان الانقلاب الفكري الذي تم - بواسطة العسكر المماليك - في عهد المتوكل العباسي (٢٠٦ - ٢٤٧هـ ٨٢١ - ٨٦١م)، والذي حلت فيه السلفية النصوصية محل العقلانية - والذي انتهى بقتل هؤلاء المماليك للمتوكل ذاته!.. وتحول الخلافة إلى لعبة في يد قادة المماليك.

فلما جاء عهد الخليفة «القادر بالله» (٣٨١ - ٤٢٣هـ ٩٩١ - ١٠٣١م)، الذي حرم - بمرسوم غريب عن روح الإسلام.. سمى «الاعتقاد القادري» -.. حرم مقولات العقلانية الإسلامية.. وعلم الكلام.. وفكر العدل والتوحيد.. كان هذا الانقلاب على العقلانية الإسلامية قد أخذ طريقه إلى ميادين الفكر في بلاد الإسلام..

ولقد وصف الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١٢٦٦ - ١٣٢٣هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥م) هذا «الانقلاب» على العقلانية الإسلامية وروحها العربية، وصفًا عبقريًا، أشار فيه إلى أبعاده الثقافية والحضارية، عندما قال:

«انظر، كيف صارت مزية من مزايا الإسلام - (تسامح المساواة) - سببًا فيما صار إليه أهله:!

كان الإسلام دينًا عربيًا، ثم لحقه العلم فصار علمًا عربيًا، بعد أن كان يونانيًا، ثم أخطأ خليفة - (المعتصم العباسي) - في السياسة، فاتخذ من سعة الإسلام سبيلاً إلى ما كان يظنه خيرًا له. ظن أن الجيش العربي قد يكون عونًا لخليفة علوي، لأن العلويين كانوا ألصق ببيت النبي - صلى الله عليه وسلم - فأراد أن يتخذ له جيشًا أجنبيًا من الترك والديلم وغيرهم من الأمم التي ظن أنه يستعبدها بسلطانه ويصطنعها بإحسانه، فلا تساعد الخارج عليه، ولا تعين طالب مكانه من الملك - وفي سعة أحكام الإسلام وسهولته ما يبيح له ذلك.

هناك استعجم الإسلام وانقلب أعجميًا!..

خليفة عباس أراد أن يصنع لنفسه، وينس ما صنع بأمته ودينه، أكثر من الجند الأجنبي، وأقام عليه الرؤساء منه، فلم تكن إلا عشية أو ضحاها حتى تغلب رؤساء الجند على الخلفاء، واستبدوا بالسلطان دونهم، وصارت الدولة في قبضتهم، ولم يكن لهم ذلك العقل الذي راضه الإسلام، والقلب الذي هذبه الدين..»!!

ومنذ ذلك التاريخ - وفي بطء.. كما هو شأن التطورات الحضارية والتغيرات الفكرية - بدأ تراجع القسمة العقلانية في تاريخ الإسلام..

● ثم جاءت مخاطر الحملات الصليبية، التي دامت قرنين من الزمان (٤٩٨ - ٦٩٠هـ ١٠٩٦ - ١٢٩١م).. ومعها - وأثناءها - الحلف الذي أقامه الصليبيون مع الوثنية التترية، التي اجتاحت المشرق الإسلامي والعربي، وأحدثت بهما من الدمار المادي والفكري ما فاق التصورات.. وكذلك نزعات «الاستقلال» التي انتشرت في أطراف الدولة الإسلامية.. جاءت كل هذه المخاطر لتهدد وجود الدولة والأمة والحضارة، الأمر الذي جعل الأمة تسلم القياد للعسكر المماليك. وتمنح الزمام - مضطرة - «للعضلات» بدلاً من «العقل والعقلانية».. فطال عصر العسكرة التي سادت الدولة، وانعكست على الحياة الفكرية والعلمية والحضارية، الأمر الذي أحل التراجع الحضاري محل الازدهار، وأصاب العقلانية الإسلامية بالنزيف الذي جعلها تتراجع، وتكاد أن تتوارى طوال حكم العسكر المماليك.. والعسكر الانكشارية العثمانيين.

ولقد ظل الحال كذلك حتى «صدمة» الاحتكاك الغربي العنيف بالشرق الإسلامي، تلك التي تمثلت في غزوة «بونابرت» (١٧٦٩ - ١٨٢١م) لمصر (١٢١٣هـ ١٧٩٨م).. الأمر الذي استنفر في الأمة عوامل المقاومة، فبدأت تحيي مواريثها في العقلانية، لتجدد بها حياتها، ولتقطع الطريق على التغريب والغزو الفكري والعقلانية الوضعية اللادينية التي أخذت في التسلل إلى بلادنا في ركاب الغزاة الغربيين..

وبذلك أخذت أمتنا تمسك بخيوط النهضة واليقظة والتقدم من جديد..

عقلانية الإحياء الإسلامي الحديث

١ - كان الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي (١٢١٦ - ١٢٩٠هـ ١٨٠١ - ١٨٧٣م) التلميذ النجيب لشيخ الأزهر الشيخ حسن العطار (١١٨٠ - ١٢٥٠هـ ١٧٦٦ - ١٨٣٤م) الذي احتك بعلماء الحملة الفرنسية.. وأدرك ضرورة التجديد الفكري لمواجهة التغريب القادم في ظلال عسكرية الغزاة.. ولقد أعلن ذلك عندما قال:

«إن بلادنا لابد أن تتغير ويتجدد بها من العلوم والمعارف ما ليس فيها»!

ولقد رشح العطار رفاعة كي يذهب إلى باريس إمامًا للبعثة التعليمية التي أرسلها محمد علي باشا (١١٨٤ - ١٢٦٥هـ ١٧٧٠ - ١٨٤٩م) إلى هناك (١٨٢٦ - ١٨٣١م).. وأوصاه أن يكتب مشاهداته في تلك البلاد؛ لمعرفة ما لدى «الآخر»، وللتفاعل الحضاري اللازم لنهوض بلاد الإسلام..

ولقد رأى الطهطاوي في باريس - بعين العالم المسلم -:

١ - علومًا طبيعية، وتطبيقات لهذه العلوم الطبيعية، قد غدت «مدنية» تقيم العمران المزدهر للواقع المادي في تلك البلاد.. وأدرك أن هذه العلوم - التي سماها «العلوم الحكمية.. علوم التمدن المدني» هي مشترك إنساني عام، بل أدرك الأصول والجذور لهذه العلوم في حضارة الإسلام وتراث المسلمين..

٢ - وفلسفة وضعية، وعقلانية لا دينية، مليئة بالحشوات الضلالية، ومخالفة لكل الكتب السماوية - جعلت الفرنسيين - كما سبق وأعلن «الجبرتي»:

«دهرية معطلين، وللمعاد والحشر منكرين، وللنبوة والرسالة جاحدين.. ولقد خالفوا النصارى والمسلمين»!

فكتب الطهطاوي داعيًا إلى أخذ العلم الطبيعي وتطبيقاته عن الحضارة الغربية.. وإلى رفض عقلانيتهم الوضعية اللادينية، وإحياء العقلانية الإسلامية - المؤسسة على الشرع والعقل - لتكون البديل الإسلامي في هذا الميدان.. كتب فقال:

أيوجد مثل باريس ديار
شموس العلم فيها لا تغيب
وليل الكفر ليس له صباح
أما هذا، وحقكم، عجيب!

فهذه المدينة، كباقي مدن فرنسا وبلاد الإفرنج العظيمة، مشحونة بكثير من الفواحش والبدع والضلالات، وإن كانت من أحكم بلاد الدنيا وديار العلوم البرانية.

إن أكثر أهل هذه المدينة إنما له من دين النصرانية الاسم فقط، حيث لا يتبع دينه، ولا غيرة له عليه، بل هو من الفرق المحسنة والمقبحة بالعقل، أو فرقة من الإباحيين الذين يقولون: «إن كل عمل يأذن فيه العقل صواب»، ولذلك فهو لا يصدق بشيء مما في كتب أهل الكتاب لخروجه عن الأمور الطبيعية.

ولهم في الفلسفة حشوات ضلالية مخالفة لكل الكتب السماوية..

إن تحسين النواميس الطبيعية لا يعتد به إلا إذا قرره الشارع.. والتكاليف الشرعية والسياسية، التي عليها مدار نظام العالم، مؤسسة على التكاليف العقلية الصحيحة الخالية من الموانع والشبهات، لأن الشريعة والسياسة مبنيتان على الحكمة المعقولة لنا أو التعبدية التي يعلم حكمتها المولى سبحانه، وليس لنا أن نعتمد على ما يحسنه العقل أو يقبحه إلا إذا ورد الشرع بتحسينه أو تقبيحه..

ولا عبرة بالنفوس القاصرة الذين حكموا عقولهم بما اكتسبوه من الخواطر التي ركنوا إليها تحسينًا وتقبيحًا، وظنوا أنهم فازوا بالمقصود بتعدي الحدود

فينبغي تعليم النفوس السياسة بطرق الشرع، لا بطرق العقول المجردة...».

هكذا بدأت الدعوة إلى إحياء العقلانية الإسلامية - المؤسسة على الشرع والعقل - في مقابل العقلانية الوضعية المادية الغربية، التي هي حشوات ضلالية مخالفة لكل الكتب السماوية..

فعقلانيتنا الإسلامية لا تتنكر للتحسين والتقبيح بالعقل، وإنما ترجع إلى الشرع - أيضا - في هذا التحسين والتقبيح - لتكون عقلانية مؤمنة، قائمة على ساقي «العقل» و«الشرع»، كما هو طابعها دائما وأبدا..

نعم.. لقد تجلى هذا الوعي بتميز العقلانية الإسلامية في فكر الطهطاوي، الذي كان أول عين إسلامية رأت النموذج الحضاري الغربي في العصر الحديث.

٢ - فإذا انتقلنا إلى رائد مدرسة الإحياء والتجديد في عصرنا الحديث، تلك التي جددت وجاهدت لإخراج أمتنا من مرحلة التراجع الحضاري.. ورسمت معالم المشروع الحضاري للبعث الإسلامي الحديث.. جمال الدين الأفغاني (١٢٥٤ - ١٣١٤هـ ١٨٣٨ - ١٨٩٧م) فإننا واجدون لديه صياغات متميزة وممتازة في مقام العقل والعقلانية الإسلامية.. وفيها يقول:

«إن الدين الإسلامي يكاد يكون متفردا بين الأديان بتقريع المعتقدين، بلا دليل، وتوبيخ المتبعين للظنون، وتبكيت الخابطين في عشواء العماية، والقدح في سيرتهم..

هذا الدين يطالب المتدينين أن يأخذوا بالبرهان في أصول دينهم، وكلما خاطب خاطب العقل، وكلما حاكم حاكم إلى العقل. تنطق نصوصه بأن السعادة من نتائج العقل والبصيرة، وإن الشقاء والضلالة من لواحق الغفلة وإهمال العقل وانطفاء نور البصيرة.. وقلما يوجد من الأديان ما يساويه أو يقاربه في هذه المزية، وأظن غير المسلمين يعترفون لهذا الدين بهذه الخاصة الجليلة.. إن العقل مشرق الإيمان، فمن تحول عنه فقد دابر الإيمان.

وإن فرقا بين ما لا يصل العقل إلى كنهه، فيعرفه بأثره، وبين ما يحكم العقل باستحالته، فالأول معروف عند العقل، يقر بوجوده، ويقف دون سرادقات عزته، أما الثاني فمطروح من نظره، ساقط من اعتباره، لا يتعلق به عقد من عقوده، فكيف يصدق به وهو قاطع بعدمه؟!

لقد بدأ الإنسان بداية لا تميزه عن غيره من الحيوانات، لكن نقطة الافتراق كانت قوته العاقلة.. والله قد جعل قوة العقل للإنسان محور صلاحه وفلاحه.. والحكمة، وأنها العقل، هي مقننة القوانين، وموضحة السبل، وواضعة جميع النظامات، ومعينة جميع الحدود، وشارحة حدود الفضائل والرذائل، وبالجملة، فهي قوام الكمالات العقلية والخلقية.. فهي أشرف الصناعات..

إن الإنسان من أكبر أسرار هذا الكون، ولسوف يستجلي بعقله ما غمض وخفي من أسرار الطبيعة، وسوف يصل بالعلم وإطلاق سراح العقل إلى تصديق تصوراته: فيرى ما كان من التصورات مستحيلا قد صار ممكنا، وما صوره جمودة بأنه خيال قد أصبح حقيقة..

إن أول ركن بني عليه الإسلام: صقل العقول بصقال التوحيد، وتطهيرها من لوث الأوهام.. وسعادة الأمم لا تتم إلا بصفاء العقول من كدرات الخرافات وصدأ الأوهام، فإن عقيدة وهمية لو تدنس بها العقل لقامت حجابا كثيفا يحول بينه وبين حقيقة الواقع ويمنعه من كشف نفس الأمر بل إن خرافة قد تقف بالعقل عن الحركة الفكرية، وتدعود بعد ذلك أن يحمل المثل على مثله، فيسهل عليه قبول كل وهم، وتصديق كل ظن. وهذا مما يوجب بعده عن الكمال، ويضرب له دون الحقائق ستارا لا يخرق، وفوق ذلك ما تجلبه الأوهام على النفوس من الوحشة وقرب الدهشة والخوف، مما لا يخيف والفزع مما لا يفزع.

إن دين الإسلام قد فتح أبواب الشرف في وجوه الأنفس.. وقرر المزايا على قاعدة الكمال العقلي والنفسي لا غير، فالناس إنما يتفاضلون بالعقل والفضيلة.. وعقائد الأمة، وهي أول رقم ينقش في ألواح نفوسها، يجب أن تكون مبنية على البراهين القويمة والأدلة الصحيحة، وأن تتحامى مطالعة الظنون في عقائدها، وتترفع عن الاكتفاء بتقليد الآباء فيها، فإن معتقدا لاحت العقيدة في مخيلته بلا دليل ولا حجة قد لا يكون موقنا، فلا يكون مؤمنا.. وأولئك المتبعون للظن، القانعون بالتقليد تقف بهم عقولهم عند ما تعودت إدراكه، فلا يذهبون مذاهب الفكر، ولا يسلكون طرائق النظر، وإذا استمر بهم ذلك تغشتهم الغباوة بالتدريج، ثم تكاثفت عليهم البلادة حتى تعطل عقولهم عن أداء وظائفها العقلية بالمرة، فيدركها العجز عن تمييز الخير من الشر، فيحيط بهم الشقاء، ويتعثر بهم البخت، وبئس المآل مآلهم، هذا هو الإسلام...».

٣ - أما المهندس الأكبر لفكر اليقظة الإسلامية الحديثة - الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١٢٦٦ - ١٣٢٣هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥م) فلقد كونت نصوصه في العقلانية الإسلامية عملا نفيسا، مثل - بعد أن جمعناه ونشرناه في كتابنا (الإصلاح بالإسلام) - ديوانا لهذه العقلانية الإسلامية المؤمنة.. ولقد قال فيه - ضمن ما قال:

«إن الإنسان كون عقلي: سلطان وجوده العقل.. والعقل هو الفرقان الذي يفرق بين الحق والباطل.. وهو جوهر إنسانية الإنسان، وأفضل القوى الإنسانية على الحقيقة.. بل هو قوة القوى الإنسانية وعمادها.. والكون جميعه صحيفته التي ينظر فيها، وكتابه الذي يتلوه، وكل ما يقرأ فيه فهو هداية إلى الله وسبيل الوصول إليه..

ولقد تآخى العقل والدين لأول مرة في كتاب مقدس، على لسان نبي مرسل، بتصريح لا يقبل التأويل، وتقرر بين المسلمين كافة - إلا من لا ثقة له بعقله ولا بدينه -:

إن من قضايا الدين ما لا يمكن الاعتقاد به إلا عن طريق العقل، كالعلم بوجود الله، وبقدرته على إرسال الرسل، وعلمه بما يوحي إليهم، وإرادته لاختصاصهم برسالته، وما يتبع ذلك مما يتوقف عليه فهم معنى الرسالة، كالتصديق بالرسالة نفسها.. كما أجمعوا على أن الدين إن جاء بشيء قد يعلو على الفهم، فلا يمكن أن يأتي بما يستحيل عند العقل..

أول أساس وضع عليه الإسلام: هو النظر العقلي، والنظر عنده هو وسيلة الإيمان الصحيح، فقد أقامك منه على سبيل الحجة، وقاضاك إلى العقل، ومن قاضاك إلى حاكم فقد أذعن إلى سلطته، فكيف يمكنه بعد ذلك أن يجور أو يثور عليه؟

بلغ هذا الأصل بالمسلمين أن قال قائلون من أهل السنة: إن الذي يستقصي جهده في الوصول إلى الحق، ثم لم يصل إليه، ومات طالبا غير واقف عند الظن، فهو ناج، فأي سعة لا ينظر إليها الحرج أكمل من هذه السعة؟

اتفق أهل الملة الإسلامية، إلا قليلا ممن لا ينظر إليه، على أنه إذا تعارض العقل والنقل أخذ بما دل عليه العقل، وبقي في النقل طريقان: طريق التسليم بصحة المنقول، مع الاعتراف بالعجز عن فهمه، وتفويض الأمر إلى الله في علمه، والطريق الثانية: تأويل النقل، مع المحافظة على قوانين اللغة، حتى يتفق معناه مع ما أثبته العقل.

ولا يقين مع التحرج من النظر، وإنما يكون اليقين بإطلاق النظر في الأكوان، طولها وعرضها، حتى يصل إلى الغاية التي يطلبها بدون تقييد.

فالله يخاطب في كتابه الفكر والعقل والعلم بدون قيد ولا حد، والقرآن قد دعا الناس إلى النظر فيه بعقولهم.. فهو معجزة عرضت على العقل، وعرفته القاضي فيها، وأطلقت له حق النظر في أنحائها، ونشر ما انطوى في أثنائها.. فالإسلام لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلي والفكر الإنساني الذي يجري على نظامه الفطري، فلا يدهشك بخارق للعادة، ولا يغشي بصرك بأطوار غير معتادة، ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية، ولا يقطع حركة فكرك بصيحة إلهية..

والمرء لا يكون مؤمنا إلا إذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتى اقتنع به، فمن ربي على التسليم بغير عقل، والعمل، ولو صالحا، بغير فقه، فهو غير مؤمن، لأنه ليس القصد من الإيمان أن يذلل الإنسان للخير كما يذلل الحيوان، بل القصد منه أن يرتقي عقله وتتزكى نفسه بالعلم بالله والعرفان في دينه، فيعمل الخير لأنه يفقه أنه الخير النافع المرضي لله، ويترك الشر لأنه يفهم سوء عاقبته ودرجة مضرته في دينه ودنياه، ويكون فوق هذا على بصيرة وعقل في اعتقاده.. فالعاقل لا يقلد عاقلا مثله، فأجدر به أن لا يقلد جاهلا دونه..

وبهذا الأصل، الذي قام على الكتاب وصحيح السنة وعمل النبي صلى الله عليه وسلم، مهدت بين يدي العقل كل سبيل، وأزيلت من سبيله جميع العقبات، واتسع له المجال إلى غير حد...».

● «لكن العقل البشري وحده ليس في استطاعته أن يبلغ بصاحبه ما فيه سعادته في هذه الحياة.. وقد يكون من الأعمال ما لا يمكن درك حسنه، ومن المنهيات ما لا يعرف وجه قبحه، وهذا النوع لا حسن له إلا الأمر ولا قبح له إلا النهي.. إن مجرد البيان العقلي لا يدفع نزاعا، ولا يرد طمأنينة.. وإذا قدرنا العقل البشري قدره، وجدنا غاية ما ينتهي إليه كماله، إنما هو الوصول إلى معرفة عوارض الكائنات التي تقع تحت الإدراك الإنساني.. أما الوصول إلى كنه حقيقة فمما لا تبلغه قوته..

ومن أحوال الحياة الأخرى ما لا يمكن لعقل بشري أن يصل إليه وحده.. لهذا كان العقل محتاجا إلى معين يستعين به في وسائل السعادة في الدنيا والآخرة..

فالعقل هو ينبوع اليقين في الإيمان بالله، وعلمه، وقدرته، والتصديق بالرسالة.. أما النقل، فهو الينبوع فيما بعد ذلك من علم الغيب، كأحوال الآخرة، والعبادات..

والذي علينا اعتقاده: أن الدين الإسلامي دين توحيد في العقائد، لا دين تفريق في القواعد.. والعقل من أشد أعوانه، والنقل من أقوى أركانه..

لقد منح الله الإنسان أربع هدايات يتوصل بها إلى سعادته:

١ - هداية الوجدان الطبيعي والإلهام الفطري.

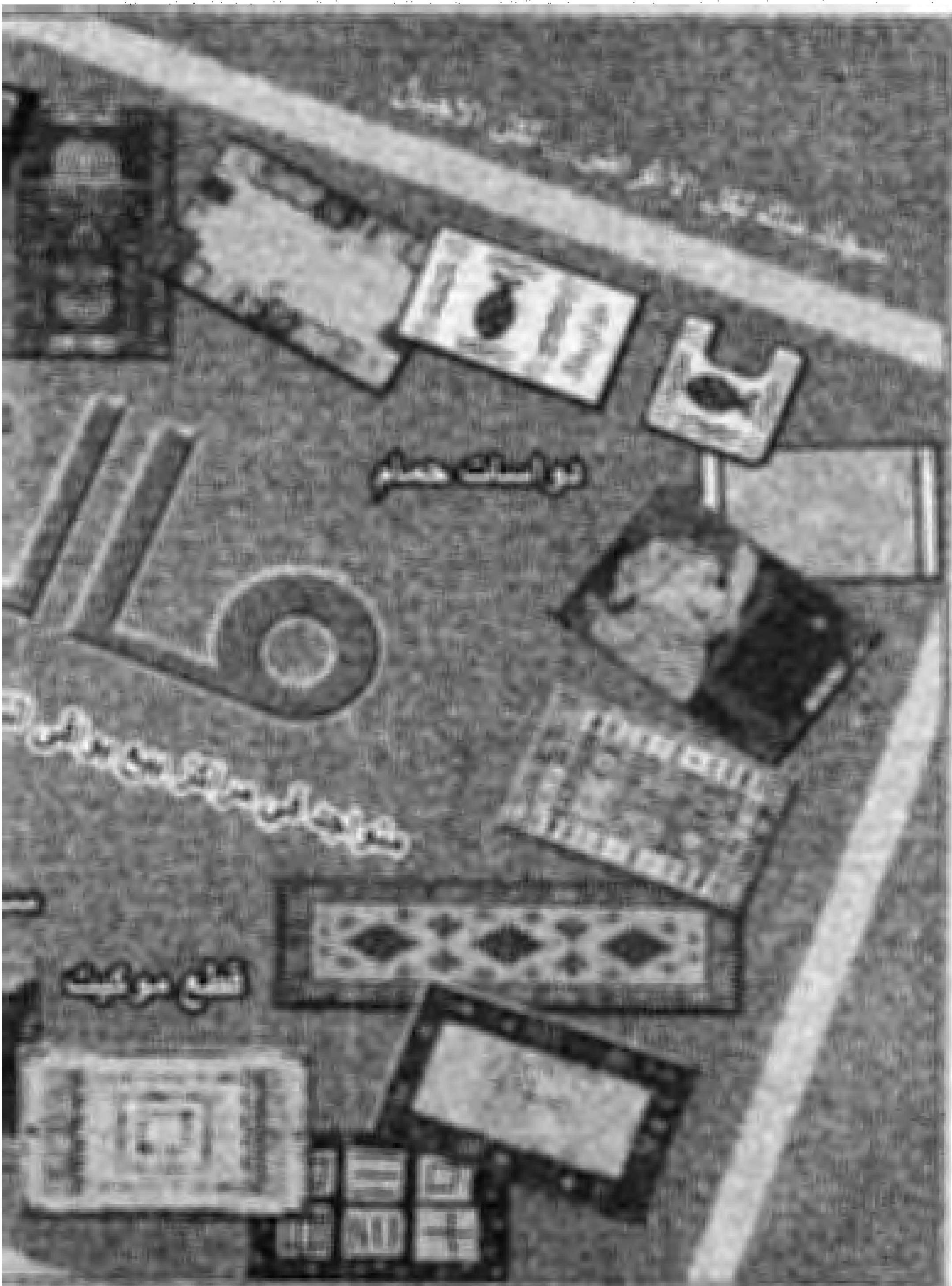
٢ - وهداية الحواس والمشاعر.

٣ - وهداية العقل.. التي هي أعلى من هداية الحس والإلهام..

٤ - وهداية الدين.. التي تضبط وتصحح وتكمل أخطاء وتواقص غيرها من الهدايات..

وبهذا تتكامل في المعرفة الإسلامية - هدايات: العقل.. والنقل.. والتجربة.. والوجدان...».

تلك لمحات - مجرد لمحات.. وإشارات مجرد إشارات - على امتياز الإسلام بالعقل والعقلانية التي مثلت مع الوحي الإلهي - الرسولين اللذين تجسد فيهما «النطق الإلهي» بالإنسان، الذي خلقه الله فسواه، ونفخ فيه من روحه.. وفضله - لذلك - حتى على الملائكة المقربين.. والذي حمل أمانة الاختيار والمسئولية في عمران هذا العالم وفق «الكتاب» و«الحكمة» - أي نور الشرع ونور العقل، لتكون حياة الإنسان نورا على نور. ■



دواسات حمام
قطع موكيت


www.maccarpet.com





سارة برنار في أمريكا

محمد المهدى

■■ يلتقى الشاب (فيجارو) بسيدة الكونت صدفة، بعد طول انقطاع فى طرقات أشبيلية المظلمة، ويشكو كل منهما همه. الكونت يريد الزواج من فتاة تسكن المنزل المقابل.. يراها من النافذة ولكن لا يعلم عنها شيئا. وفيجارو ابن البلد الفقير الذكى المثقف لا يجد فرصته. ويسأل السيد تابعه السابق ماذا تعمل هذه الأيام؟.. لقد طردت من عملى لأنهم يشكون فى أمرى، فأنا أكتب فى الصحف، وأكتب المسرحيات والسادة يريدون تابعا مستكينا.. أنت منهم وأنت تعرفهم.. إننى أعمل الآن حلاقا. ويضحك السيد ويقول لفيجارو إن لديه عملا له، وهو تدبير الزواج من هذه الفتاة التى تسكن فى المنزل المقابل. ويقول فيجارو إنه يعرف أمر هذا المنزل، والفتاة هى (روزين).. يتيمة مسكينة واقعة فى براثن عجوز، متصاب، تولى إثباتها وتربيتها وحينما أينعت يريد قطفها.. يريد الزواج منها. ويستطيع فيجارو بذكائه وحيله إنقاذ الفتاة وتزويجها من الكونت.. ولكن تبدأ مشكلة (فيجارو) نفسه. لقد أحب الفتاة (سيزان) تابعة السيدة (روزين) التى تزوجها الكونت ولكنه يعرف من حبيبته أن الكونت لا يهمد عن مطاردة الفتيات... لقد طمع السيد فى حبيبة فيجارو، وبالتالى جاء دوره لينال نصيبا من ألاعيب فيجارو. جعل السيدة تقابل الكونت فى ملابس خادمتها، فيطارحها الغرام، ثم يرى الكونت الخادمة التى تلبس ملابس سيدتها تقابل «فيجارو» فيشك فى زوجته. ويكشف فيجارو أمام الجميع اللعبة.. لعبة الذكاء أو البطولة الفردية، فى حل المشاكل.. ويهمد الكونت.

هذه هى مسرحية أو أوبرا «زواج فيجارو» أو «حلاق أشبيلية» التى كتبها «بومارشيه» قبيل الثورة الفرنسية إسقاطا من قصة تدور أحداثها فى إسبانيا على الوضع فى فرنسا.. ابن البلد الذى يحل المشاكل بالحيل والذكاء، والبطولة الفردية. ويبث إحدى محطات التليفزيون ذات مرة إعلانا يعرض فى مقدمته لمحة من هذه الأوبرا، ثم ينتقل إلى عرض لتصنيع سيارات الفيات الإيطالية، بصورة آلية تماما، دون تدخل من عمال، أو مهندسين، أو موظفين. وكأنه يقول إن هناك «فيجارو» جديدا فى هذا العصر.. هو العلم.. هو شريحة السليكون، أو السر فى التصنيع الآلى الكامل. ■

شريحة السليكون المعدنية لها مواصفات علمية خاصة، لا يتعدى حجمها عقلة الإصبع لكنها تستطيع أن تقوم مقام غرفة كاملة من أجهزة الكمبيوتر البدائي. ويقال إن لوح السليكون سيؤدى فى المستقبل إلى الاستغناء الكامل عن رجال الرياضيات أو المحاسبين، والمراجعين وسعره غير مرتفع، تستطيع أن تحصل على لوح به خمسة آلاف معلومة بدولار واحد.

وعندما ظهر النول الآلى فى القرن التاسع عشر أضرب العمال، بل قاموا بعمليات تخريب لهذه الشياطين التى التهمت أرزاقهم. وانتهى الأمر إلى المصالحة بين الإنسان والآلة. وفى العصر الحديث تحاول نقابات العمال أن تهيئ نفسها لمستقبل أسوأ من مستقبل النول الآلى. يقول اقتراح إن الدولة تستطيع أن تقدم معاشا مناسبا لكل صاحب خبرة كل حسب مستواه، ويقام لذلك صندوق خاص يمول من فارق الربح الهائل الذى ستحصل عليه الصناعة من استخدام لوح السليكون. وهذا معناه أن العمال سيصبحون عاطلين بالميراث من الدولة، وبالتالى سيصبح تعبير العمل اليدوى شرفا غير ملائم. وسيصبح من يريد عملا خاملا عليه بالدراسات العلمية أو العملية. وستصبح الدراسات النظرية أكثر إرهاقا. وسيهجر كما تأمل حاليا - ولكن فى غير حينه - طلبة القسم الأدبى فى الثانوية العامة إلى القسم العلمى بحثا عن راحة البال.. وسيصبح.. وسيصبح

ولكن للوح السليكون مهمة أخرى أكثر خطورة، إنك تستطيع أن تزرعه فى جسم الإنسان لصغر حجمه دون أن يدرى، ويصبح بالتالى رقيبا عليه أينما سار أو قام أو نام، يسجل خطواته وأحاديثه وينقلها إلى جهاز استقبال. ولك أن تتصور أى الأنظمة ستسارع إلى الإكثار من إنتاج هذه الألواح السحرية.. وما هى النتائج ؟

لوح السليكون كما قلت هو «فيجارو» هذا العصر. هو البطولة الفردية لهذا العصر. يحل المشاكل وحده، بذكائه وألاعيبه وحيله. الفارق أن حيل السليكون معدة ومهيأة لكل الاحتمالات، ورغم أنه من صنع الإنسان فإنه من الصعب على الإنسان طعنه بالسيف، أو القضاء على بطولته بقرار إدارى، أو أمر اعتقال، أو محاكمة ثورية. ولكن يمكن احتكاره (وادى السليكون بولاية كاليفورنيا). أما فيجارو القديم فإنه إذا تجاوز حدوده من الطرافة والذكاء إلى الجدل والتحدى لسيده، فإنه يستطيع أن يلغيه بتوقيعه، أو يعجنه بحقده. وهذا ما دعا الإنسان لاكتشاف البطولة الجماعية فى المنظومة الاشتراكية. فيجارو.. وفيجارو.. وفيجارو.. وهكذا.

ولكن ماذا عن فيجارو الجديد ؟ ماذا عن شريحة السليكون ؟ لقد التهم فيجارو الكبير فيجارو الصغير، وصار الصغير كبيرا، بل أكبر، ووقف الابن يتحدى الأب. وكأننا عدنا إلى أيام البطولة الفردية. ولكنها ليست بطولة اللحم والعظم، إنما بطولة اللوح والسلك.

ونعرف الممثلة «سارة برنار» Sarah Bernhardt. قرأت مؤخرا تفاصيل رحلتها إلى أمريكا، حدث هذا منذ أكثر من قرن وربع بالضبط عام ١٨٨٠، أى فى زمان عبادة البطولة الفردية فى السياسة والأدب والفن والاقتصاد.. و.. زمان بقايا الفيجارو وكتاب «كارليل» الأبطال، وتفسيره التاريخ بكل طوله وعرضه وعمقه على أساس من البطولة الفردية. قصة (سارة) فى أمريكا تجرى فى زمن تحولات مفصلية تحمل ملمحا مبكرا للنهج الأوروبى الهادئ الوقور، مفارقا وناقدا للنهج الأمريكى السطحى العجول.







سارة
برنار
في أمريكا

دعـــوة أمـــريــكـــيـــة

يبدأ السيناريو كما جاء في مذكراتها عندما عرض عليها رجل أعمال يدعى جاريت Jarrett، مشروع رحلة فنية إلى أمريكا لتقديم عروضها المسرحية الشهيرة «باللغة الفرنسية». مقابل خمسة آلاف فرنك، بالإضافة إلى نصف دخل الحفلات الذي قدر بخمسة عشر ألف فرنك، مع ألف فرنك أسبوعيا لتكاليف الفنادق. ولها الحق في اختيار العروض والممثلين المشاركين.

وتقبل سارة. فيبلغها رجل الأعمال ببقية التفاصيل قائلا: «ليس هذا كل شيء؛ لقد خصص لك قطار خاص لرحلاتك الفنية داخل أمريكا يشمل العديد من الغرف والملاحق مع صالون به بيانو خاص. ولك في هذا القطار أربعة أسرة، وأربعة طباخين لإعداد الطعام الخاص أثناء الرحلة».

وقعت سارة العقد. وبدأت حملات الدعاية الأمريكية تتركز حول سارة برنار الممثلة، والشخصية، والإنسانة، والفاجرة، والعاهرة. وكنوع من الدعاية التقط الأمريكيون قصة «سارة مع ذيل النمر». لقد صرخت سارة في لحظة من لحظات هذيانها الفني أنها تتمنى أن تركب ذيل نمر في مؤخرتها. واستمرارا في الهذيان بالبطولة، أو الإعجاب بسارة أعلن طبيب أمريكي بشكل جاد أنه يستطيع أن يركب لسارة ذيل نمر بعملية جراحية «زرع الأعضاء قبل الأوان». واشترك أحباء سارة وأصدقاؤها في الحوار وكان أشد ما يخشونه هو أن تفسد العملية الجراحية ظهر أو مؤخرة نجمتهم الفريدة. أما سارة فقد قالت:

إن ذلك سيكون مسليا، أستطيع في بعض الأحيان أن أجره «الذيل» بهدوء ودلال تحت ثوبي. وعلى العكس فإنني أستطيع في لحظات الغضب أو الثورة أن أرفعه في فخر وتحد، سيرتفع معه طرف ثوبي وكأنه سيف مشرع.

وأخذت سارة تناقش ماذا ستقدم من عروض. وكان التركيز على دورها «غادة الكاميليا» La dame aux camélias. بدأت الرحلة، واستغرقت اثني عشر يوما في البحر. وصحبت أو اختارت الشاب «انجلو» le bel angelo ليقوم معها بدور الفتى الأول في عروضها، وليقوم معها بدور العشيق في لحظات الراحة. وقضت الرحلة داخل غرفتها تدرس وتعيد أدوارها بالجدية التي جعلت منها الأسطورة الفريدة آنذاك.

بدأت الدعاية في أمريكا بكتاب كان ينادي عليه الباعة ليل نهار «اقرأوا قصص حب سارة برنار.. الجزء بـ ١٥ سنتا». وتعرف أهل أمريكا على سارة العاشقة قبل سارة سيدة المسرح. تردد أن لها أربعة أطفال من أربعة آباء. البابا «بيو» الرابع، ونابليون الثالث، وحلاق مجهول، ومحكوم عليه بالإعدام لاتهامه بقتل أبيه. وفي مؤتمر أثارت صحفية هذا الموضوع فقالت سارة:

- إنه شيء عجيب، أليس ذلك أفضل مما يحدث في هذا البلد.. أربعة أزواج للمرأة دون أطفال!

وظهر إعلان كبير يصور سارة في صورة هيكل عظمي كتب عليه «سارة عند وصولها أمريكا». وعلى الجانب الآخر يصورها في صورة ممتلئة كتب عليه «سارة بعد استخبائها منتجاتنا لمدة ستة أشهر». كان استقبالها عند الوصول استقبال الملوك والملكات. سفينتان محملتان بالصحفيين. وضجة عظيمة يختلط فيها نثر الزهور، بالأصوات. يعزف المرسيليز، اللحن الوطني الفرنسي، بالعديد من الأيدي تمتد تريد مصافحة سارة. ووابل من الأسئلة المختلطة المتداخلة.. هل تتشاءمين؟ هل تتفاءلين؟ بكم تقدر مجوهراتك؟ هل صحيح أنك لا تحفظين أدوارك إلا في حمام يغلي؟.. هل.. هل.. وأغمي عليها، ولحقتها مساعدتها بزجاجة «الثير».. وأفاقت ولكن رائحة الأثير انتشرت في القاعة فكادت أن تفرغ معدتها، أبعدوا الصحفيين وقام «جاريه» منظم الجولة بتصفيتهم. أو «اختيار خمسين منهم لتقابل كل واحد على انفراد. و«جاريه» هذا أو ما أصبح رجل الأعمال في زمانه كان متشردا، اختلف ذات مرة مع مفاوض لأحد الممثلين فقال له «جاريه» أن هذه العين تستطيع أن تقرأ ما لا تصرح به. فأجابه المفاوض بأن أخرج مسدسه وأطلقه قائلا: إن عينك سيئة الرؤية لأنها لم تر هذا وجاءت الطلقة في صدغ جاريه. فأخرج بدوره مسدسه قائلا: هكذا يجب أن يكون الرد حتى ينتهي كل شيء. وأطلق مسدسه في جبهة غريمه وأرداه قتيلا.

الدعاية والعروض

تولى «جاريه» تنظيم الدعاية واستغلال الفرص، وإثارة خيال الجماهير المجنونة بالنجوم. كانت مرحلة تعرف إعلاميا بالصحافة الصفراء، أو الصحافة المعتمدة على السؤال الفاجئ، والأفضل السؤال الجارح، والإجابة السريعة اللافتة للتظر، أو الخفيفة الظل، والأفضل الجارحة أيضا. كان اتجاه لا تزال بقاياه تثير إعجاب الناس بالبريق الخاطف في المسلسلات الفجة أو اللقاءات السخيفة، مع من يسمون بالنجوم والكواكب والأفلاك والمجرات بطريقة صاروخية استعراضية.

وانبرت صحفية وطرحت سؤالا أو استعرضت كلمة طويلة جدا تتكون من ستين حرفا تريد بها إرباك سارة. وارتبكت سارة وتوقف العرض «الصحفي» الاستعراضي، وانبرى صحفي متطوع وشرح لسارة معنى الكلمة الطويلة، أو التساؤل.. هل أنت يهودية، كاثوليكية، بروتستانتية، إسلامية، بوذية، ملحدة، موحدة، أو مؤمنة بعدة آلهة؟

وكل ما استطاعت أن تعلق به سارة هو: أهكذا ستسير الأمور في كل مدينة أزورها؟ وأجاب رجل الأعمال: لا تنسى أن إجابتك توزع في الحال تلغرافيا في كل أنحاء أمريكا.

وفي يوم دخلت سارة إلى المسرح فوجدت مجموعة من رجال في هيئة زرية يقفون استعدادا لتفتيش حقائبها. أفرغوها جميعا في همجية، واختلط الفراء، بالستان بالمخمل، بالدانتيل... وخرجوا. لقد كانوا رجال الجمارك جاءوا يراجعون محتويات حقائب سارة بعد دخولها، واشترت سارة خمسمائة متر من الشاش جمعت فيها محتويات الحقائب وألقتها في الزبالة.

وكانت قصة أعجبت رجال الدعاية في أمريكا.

ووقف أحد رجال الدين وبدأ سلسلة من المواعظ أعلن فيها أن «هذه العاهرة الفرنسية جاءت إلى أمريكا لتقوض دعائم أخلاق اليانكي، أي الأمريكي». وأرسل إليه «جاريه» قائلا: «لقد اعتدت أن أنفق على الدعاية في هذه المدينة ٤٠٠ دولار، وبما أنك قدمت لي هذه المرة الدعاية الواجبة فإنني أرسل لك ٢٠٠ دولار لفقرائك». وبدأت لحظات الجنون الجماهيري بعد أن قدمت سارة عروضها. قدمت في المرحلة الأولى ٢٦ عرضا. وكانت الجماهير التي لم تشهدها على المسرح تنتظرها في البرد أمام مدخل الفندق بالورود والهتاف والمارسيليز. ولا تنصرف إلا عندما تخرج إليهم سارة وتطل عليهم من شرفتها فيرتفع هتافهم. مساء الخير يا سارة. مساء الخير يا سارة. جنان. ارتفع أكثر بعد عرض مسرحيتي «فيدر» ثم «غادة الكاميليا». وظهرت في الأسواق ماركة «س. ب» سارة برنار... قفازات سارة برنار. مشابك كرفتات سارة برنار. نظارات سارة برنار.. وأشياء أخرى ماركة «س.ب».

وخرجت سارة ذات مرة من المسرح فوجدت خمسة آلاف شخص في انتظارها للتحية والهتاف. وتراجعت، وخرجت بدلا منها أختها بملابسها حتى ينصرف المجانين.

في بدء جولة سارة بقطارها الخاص المزين بالورود والأعلام، اتجهت إلى مدينة بوسطن. توقف القطار عند قرية صغيرة اسمها «منلوبارك» Menlo-park في منتصف الليل. حيث كان يقيم «توماس اديسون». استضاف رجل الاختراع الأمريكي الشهير أشهر شخصيات العصر المسرحية. وقدم لها عرضا خاصا لمخترعاته، المصباح الكهربائي، وانبهرت. وبعد فتح الشهية قدم الطبق الأول. أمسك بكأس فضية وقربها من فمه قائلا: هالو. وأجاب صوت آخر خرج من كأس آخر: هالو. هكذا تروي سارة تجربتها مع جهاز التليفون. ثم جاء الاستعراض الكبير. قرب «اديسون» فمه من بوق وأطلق صوته بنشيد حزين، ثم أشار لبعض مساعديه فانطلقوا معه في غناء مرثية أمريكية معروفة لديهم باسم جثة «جون براون» John. Brown's, body وحبست سارة الرغبة في الضحك. ولكن حينما وصل اديسون إلى المقطع الأخير قام وجماعته يرقصون رقصة وطنية.. وضحكت سارة ثم ابتلعت ضحكتها وتحولت إلى الاندهاش أو الذهول بعد أن سمعت صوت اديسون وأعوانه يتردد في الجهاز مسجلا كل ما دار. صدر الصوت «حادا، مثقوبا، مشروخا يذكر بصوت القراقوز».. وكان هذا استعراضا لجهاز الفونوجراف. واختلطت الأصوات بالأضواء في رأس سارة وداخت.. وغابت عن الوعي.

السخافة الأمريكية

أثناء استئناف الطريق إلى بوسطن بالسيارة فوجئت برجل يتعلق بالسيارة وتدفعه فيكاد أن يسقط. ثم يلتقط أنفاسه، ويلح في محادثتها. ويقول بفرنسية سليمة: متى تذهبين غدا لتركبي الحوت. ما هذا الجنون.. أي حوت.

يجب أن تذهبي إليه غدا قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة. إنه شيء عجيب. بل يجب أن تذهبي الليلة. وبعد قليل قفز رجل آخر إلى السيارة بملابس بهلوانية وجلس في صمت. وعند وصولهم الفندق

فهمت القصة. الرجل الثاني هو هنري سميث، (Henry Smith) متخصص في صيد الأسماك، اصطاد آخر مرة حوتا ضخما.. سحبوه عدة أميال ووضعوه في الميناء، ينزف باستمرار من خطافين في جنبه، ويلح الرجل على سارة لتشاهد أعجوبته قبل أن تستنفد دماءها وتموت. وتذهب سارة وتعتلي ظهر الحوت، ويلح عليها من جديد حتى تسحب من جسد الحوت إحدى صفائح فكه التي يصنع منها عادة مشدات السيدات. وتفعل سارة بعد تردد وخوف.

بعد عدة أيام تلتقي بالرجل في مدينة «نيوهافن»، وتسأله عن سبب وجوده بالمدينة، وقبل أن تتلقى الرد تسمع ضجة قوية، وأصواتا موسيقية متنافرة عنيفة، وتطل من النافذة فتكاد أن تفقد الوعي. وجدت سيارة ضخمة مجللة بالسواد عليها إعلان ضخم جدا ملون، يعرض صورة سارة واقفة فوق ظهر الحوت، حوت ملئ بالحيوية والنشاط، وهي تنزع إحدى صفائح فكه. يقول الإعلان (تعال لتشاهد الحوت الذي قامت سارة برنار بنزع صفائح فكه، لتصنع منها مشداتها وتقوم السيدة ليلي نويل بهذه الصناعة في مقرها في...) وقام بعض الرجال المصاحبين للحملة الدعائية بتحريك أعلام بأيديهم، فتقرأ سارة في إحداها (الحوت في حالة نضرة.. إنه حي. في داخل معدته ٥٠٠ دولار من الملح. وكل يوم يتم تغيير الثلج الذي يرقد فيه بمائة دولار).

التفتت سارة في عصبية إلى سميث وصفعته كفين، وتحركت صارخة معلنة أنها تريد العودة حالا إلى أوروبا.. لقد سخر الرجل منها، وأهان ذكاءها سخرية مهينة بادعاء أن حوته ميت، وسخرية مريرة باستغلال اسمها في الدعاية والمكسب. وبعد أن هدأت لم يرحمها الرجل. فقد كان يتبعها بسيارته السوداء، وحوته، وإعلانه وضجته أينما ذهبت تقدم عروضها.. وربح من ذلك الآلاف. وفي كل مرة كان يرسل إليها باقة ورد تحمل كلمة الود. وكادت تجن، وعرضت الكثير حتى تتخلص منه دون فائدة. ولم ينزعج كثيرا ممولو مسرحها وعروضها، ففي الأمر دعاية طريفة أسطورية تلهب خيال الجماهير المسعورة بالنجوم.

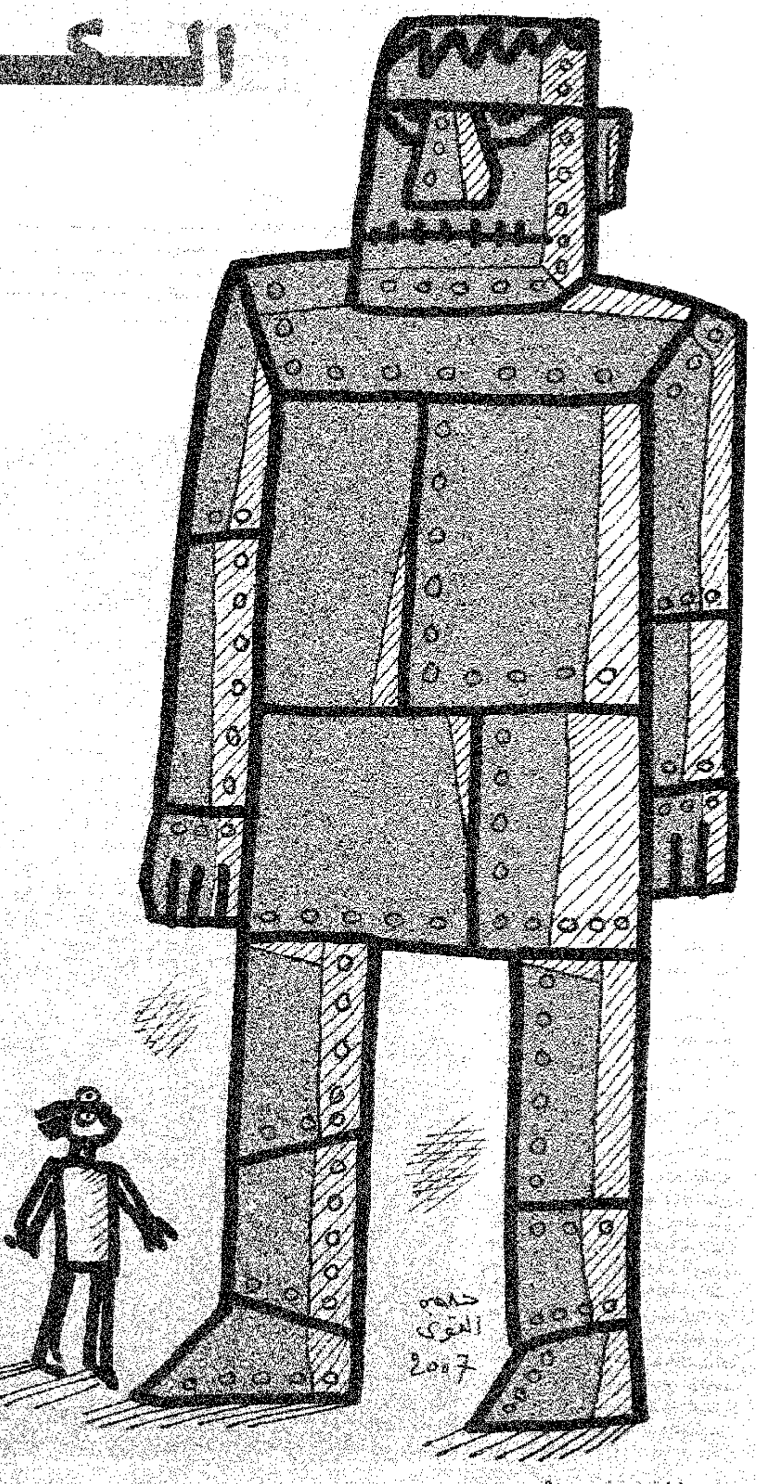
وتتعرض سارة لمحاولة سرقة فيها خيال أو افتعال، وتدخل مغامرة مع قطارها الخاص، وتنهي رحلتها بعد تقديم ١٥٦ عرضا خلال ستة أشهر، وتكون الحصيلة ٢,٧٦٦,٠٠٠ فرنك، نصيب سارة منها ٦٢٠,٠٠٠ فرنك.

سارة برنار نموذج لنجومية القرن قبل الماضي، أو نغمة من العزف المنفرد التي ذهبت مع قفزات القرن العشرين والواحد والعشرين المتسارعة، لا تستمر سوى شهور وفي تكرار فج في أكثر من مكان.. لقد غابت النجوم الأرضية في عصر الكواكب الكونية.. ذهب فيجارو الهادئ الواثق وجاء عصر الجماهير القلقة المتعجلة، ذهبت سارة برنار الأوروبية الوقورة وجاء السينيكون الأمريكي العجول وعلى الجماهير في الغرب أن تدبر أمرها مع البطل الجديد. ■

بريشة روبرت جوند



الكـو



■■ من الصعب أن نتخيل العالم بدون وسائل المواصلات الحديثة، بدون الصناعات العديدة التى تنتج آلاف السلع ويستخدمها الملايين من البشر، بدون السينما والتليفزيون والكومبيوتر، وبدون الأجهزة الطبية والعقاقير، أو حتى بدون مطاعم الوجبات السريعة. لقد ساهمت «الكوربوريشن» فى كل ذلك، وأكثر من ذلك بكثير. لقد ذهب البعض إلى القول بأن «الكوربوريشن» هى أهم اختراع فى العصور الحديثة. هذا هو الوجه الوردى «للكوربوريشن»، ولكن كل ربح وراءه خسارة، وكل إنجاز يصحبه ضياع. الوجه الآخر «للكوربوريشن» هو موضوع هذا المقال.

ما أعنيه «بالكوربوريشن» هو الشركات الكبرى التى لها أسهم تُتداول فى بورصة الأوراق المالية وتخضع لقوانين معقدة. هناك أنواع أخرى كثيرة من «الكوربوريشن» ولكن هذا لا يعنينا فى هذا المقال. بعض هذه «الكوربوريشن» لديها ميزانيات وتأثير أكبر من الكثير من دول العالم. العديد من هذه الشركات تدير أعمالاً وتملك شركات أخرى فى عديد من بلاد العالم، وهذا يختلف عن العولمة والتى تعنى أساساً تسهيل عمل تلك «الكوربوريشن» فى العالم وإسقاط الحواجز المعيقة لذلك. مسئولية أصحاب «الكوربوريشن» أو مديريها تجاه الشركة مسئولية محدودة، فمثلاً قد تُفلس الشركة لسبب أو لآخر، ولكن الأملاك الخاصة لأصحابها أو المسئولين عنها لا تُمس. فى هذا المقال سأستخدم «الكوربوريشن» أو «الشركة» ليؤديا نفس المعنى، رغم ما فى ذلك من تجاوز.

لقد أصبحت تلك الشركات تتحكم فيما نأكل ونشرب ونلبس، ما نقرأ من أخبار، ما نشاهد على شاشات التليفزيون وفى السينما، وباختصار أصبحت تلك الشركات تؤثر فى العديد من أنشطة الإنسان فى كل مكان. ولم يكن ذلك التأثير كله جيداً، بل إن العديد منه لم يكن ضرورياً، بل حتى إن بعضه ذو أضرار جسيمة. لقد خلق البعض هذه «الكوربوريشن». لويس برانديس Lewis Brandis سنة ١٩٣٣ (وهو أحد قضاة المحكمة الدستورية العليا بأمريكا) شبه «الكوربوريشن» بالوحش «فرانكنشتين» الذى خلقه أحد العلماء وانتهى الأمر بالمخلوق إلى قتل خالقه. لقد خلقت «الكوربوريشن»

The Corporation

(الشـركة)

Joel Bakan

Free Press, 2003

ربوريشن

فكرى أندراوس

الحديثة فى أحضان النظام الرأسمالى والصناعى منذ حوالى ١٥٠ سنة وتحولت بمرور الزمن - رغم العديد من منافعها - إلى وحش يدمر البيئة ويستنزف العديد من الموارد الطبيعية ويكاثر العديد من الأمراض المستعصية ويزيد من ثراء قلة ومن فقر الكثيرين. هذا ما كان عناه «لويس برانديس» سنة ١٩٣٣، أما الآن فالوضع قد يكون أسوأ - وإن أصبح هناك دراية أكثر بما يحدث - وهناك اتجاه لتحسين مسار ذلك «الوحش» وترويضه ليخدِم دون أن يَستَخدِم.

فى هذا المقال سنستعرض كيف بدأت هذه الشركات، كيف استخدمت النظام الديمقراطى لصالحها لتحقيق الربح وغالبًا دون سواه، بعض الأضرار التى سببتها تلك الشركات، كيف حاربها البعض بغرض ترويضها، ما هو دور تلك الشركات فى الدول الفقيرة، كيف أثّرت الكوربوريشن على الإعلام، وأخيراً كيف أثّرت الكوربوريشن على الاقتصاد .

تنشأ «الكوربوريشن» نتيجة عقد بين مجموعة أشخاص وبين الحكومة لمزاولة أعمال معينة فى حدود معينة وتخضع لأحكام الحكومة. أُنشئت «الكوربوريشن» فى القرن الثامن عشر لأجل المنفعة العامة مثل إقامة الطرق والكبارى وشق القنوات ولم تنشأ لغرض الربح . بدأ الترخيص «للكوربوريشن» التى تعمل بغرض الربح بعد ذلك. مشاريع إنشاء وتشغيل السكك الحديدية فى إنجلترا وأمريكا فى منتصف القرن التاسع عشر كانت من أوائل «الكوربوريشن» التى أُنشِئت بغرض الربح. كانت السكك الحديدية تخضع لأحكام الحكومة فيما تتقاضاه نظير خدماتها، ولم يكن ذلك محل رضا أصحابها رغم ما كانت تحققه من أرباح. بدأ أصحاب السكك الحديدية يلجئون للقضاء للتحرر من قيود الحكومة. وقد قال «توماس جيفرسون» (أحد واضعى الدستور ورئيس أمريكا) : «أتمنى أن تُسحق هذه «الكوربوريشن» أثناء ولادتها . إنها تتحدى قانون الدولة».

بعد الحرب الأهلية لتحرير العبيد فى منتصف القرن التاسع عشر، والتى لم تكن بعض الولايات راضية عنها ، أضيف بند للدستور الأمريكى ليكفل حقوق الإنسان (المقصود هنا بإشارة حقوق الإنسان أى العبيد المحررين. البند المضاف هو البند رقم ١٤) بذلك يُمنع تشريع أى قانون يحد من حرية الإنسان والتى أصبح يكفلها الدستور للجميع. حتى ذلك الوقت كانت صفة «الكوربوريشن» القانونية صفة غير شخصية - وإن كان لها كيانٌ قانونى. استغل المحامون الإضافة رقم ١٤ وطالبوا أن تحصل «الكوربوريشن» على الصفة الشخصية الاعتبارية، حيث إنها تبيع وتشترى وتدفع ضرائب كأى إنسان. خلال سنين قليلة تمكنوا من تحقيق بعض من ذلك، بذلك تمكنت السكك الحديدية مثلاً من أن تتقاضى ما تراه مناسبًا نظير خدماتها دون أية مضايقة من مُشرِعى الولايات.

استغل الإضافة رقم ١٤ فى أوائل عهدها (١٨٩٠-١٩١٠) ١٩ من السود و٢٨٨ من الشركات الكبرى. ما زالت الصفة الشخصية «للكوربوريشن» محل نقاش وعرض على القضاء، حيث إنه إذا كان «للكوربوريشن» صفة شخصية فهل يعطيها هذا الحق فى أن تدفع الملايين للمرشح الذى تريده (أو بالأحرى الذى تشتريه)؟ وإذا كان لها صفة شخصية لماذا لا يفلس أصحابها أو المسئولون عنها إذا أفلست الشركة كما يحدث للأشخاص؟ سنة ١٩٠٧ منع الكونجرس «الكوربوريشن» من تمويل الحملات الانتخابية؛ إلا إنه كانت هناك . ولا تزال. طرق كثيرة للتلاعب بذلك. ورغم إعطاء الصفة الشخصية الأعتبارية «للكوربوريشن» فمازال من حق الولاية أن تلغى قرار إنشاء «الكوربوريشن» أو أن تحولها للمحكمة أو أن تحولها لقطاع عام، أحيانًا يحدث ذلك، ولكن غالبا مع الشركات الصغيرة والتى ترتكب مخالفات قانونية جسيمة.

كبرت الشركات وترعرعت وطرحت الأسهم فى الأسواق وساهم فيها الكثير من صغار المستثمرين ومتوسطو الدخل، أصبح «للكوربوريشن» الكثير من النفوذ السياسى وآزاحت عن طريقها بعض المشاكل وجعلت آخرين - أو العالم أجمع - يتولونها ! مثل تلوث البيئة وانتشار أمراض السرطان وأمراض ضعف المناعة وأشياء أخرى من هذا القبيل. فالهدف الأول - والأخير فى أحيان كثيرة - كان - وغالبا لايزال - هو الربح المادى. وحيث إن الهدف الأول لتلك الشركات هو تحقيق الربح، ارتكب بعض رؤساء الشركات أعمالاً قد تكون قانونية ولكنها غير أخلاقية يظهر بعضها أحيانًا على السطح مثل المكافآت الفلكية التى يحصل عليها البعض: أو فصل أعداد كبيرة من العاملين، أو قد يرتكب بعضهم أعمالاً غير قانونية بل تدخل فى نطاق النصب والاحتيال والتزوير مثل ما حدث مؤخراً مع شركة (إنرون) للطاقة والتى أفلست بين يوم وليلة رغم حجمها الهائل.

فى بداية حياة «الكوربوريشن» تداركت إنجلترا مدى إمكانية فساد هذه المؤسسات حين انهارت بعض الشركات ومن ضمنها الشركة الكبيرة South Sea Company فمنعت منح تراخيص للكوربوريشن ما بين عامى ١٧٢٠ و١٧٧٠! وقد قال الاقتصادى والعالِم الشهير فى ذلك الوقت «آدم سميث» : «إن تصميم «الكوربوريشن» يؤدى إلى الفساد»، وقد حذر فى كتابه الشهير (ثروات الأمم) من أن رؤساء الشركات لا يمكن أن يوثق بهم لما لديهم من نفوذ. بدأت إنجلترا تمنح تراخيص «الكوربوريشن» مرة أخرى تحت ضغط ذوى النفوذ.

إذا نظرنا باختصار شديد إلى بعض الأعمال الضارة التى زاولتها أو تسببت فيها بعض الشركات الكبرى فى أمريكا مثلاً نجد أنه فيما بين عامى ١٨٧٨ و١٩٠٨ قُدِّرَ عددُ الموتى فى حوادث الصناعة بحوالى ٧٠٠,٠٠٠ قتيل؛ أى بمعدل ١٠٠ عامل فى اليوم فى زمن لم يكن فيه للعمال نقابات أو أية قوة تذكر. إذا نظرنا لبعض الشركات الأمريكية المعاصرة نجد أن شركات التبغ أضافت مواد كيميائية إلى السجائر لتزيد من إدمان المدخنين رغم علم الشركات أن التدخين يُسبب سرطان الرئة، وقد تمكنت تلك الشركات من إخفاء ذلك عن العامة وعن الكونجرس الأمريكى لمدة طويلة إلى أن قام بعض العاملين بالشركة بإفشاء السر. دفعت شركات السجائر تعويضات هائلة نتيجة تضليل الناس ولكنها لم تدفع أى تعويض لمن هم خارج أمريكا. إن مصاريف علاج السرطان باهظة ولا يقدر عليها الفقراء داخل أو خارج أمريكا. شركات الكيماويات تسبب العديد من المشاكل الصحية وخصوصاً أمراض السرطان وتدهور المناعة وولادة أطفال مشوهين أو معاقين عقلياً، بالإضافة إلى تلويث البيئة. المبيدات التى تستخدم فى الزراعة والهرمونات التى تُعطى للمواشى أو الدواجن للتسمين أو لزيادة إنتاج الألبان ينتقل جزءٌ منها للإنسان مُسبِبًا العديد من الأمراض. أمراض السرطان والتى تعود للتدخين وللكيماويات التى صنعها الإنسان تصيب حوالى ٣٥٪ من البشر. هذا خلاف ٤٥٪ من الرجال يصابون بسرطان البروستاتا نتيجة كِبَر السن. النباتات المُعدلة وراثيًا تسارع الشركات بتسويقها دون معرفة تأثيرها على المدى الطويل، وفى أمريكا لا يُعلَن عن وجودها فى قائمة المحتويات وحاش لله أن يُذكَر ذلك فى الدول النامية! أما فى أوروبا وكندا وبعض الدول الأخرى فالقانون يُلزِم المنتج بإعلان وجود المواد المُعدَّلة وراثيا للمستهلك رغم معارضة أمريكا الشديدة لذلك. أما البذور المُعدَّلة وراثيًا، فحتى تُمتِّع الشركة المنتجة من استخدامها مرة ثانية يُضاف إليها ما يُسمى «جين الانتحار» والذى يجعل البذور تنتج محصولاً مرة واحدة. بذلك يصبح المزارع معتمداً على الشركات المنتجة ليزيد ربحها ويقل ربح المُزارع. إذا انتقل «جين الانتحار» أو بعض الجينات الأخرى المضافة إلى نباتات أخرى عن طريق حبوب اللقاح التى ينقلها الهواء قد تسبب كارثة فظيعة لبعض المحاصيل.

شركات الأدوية تحقق أرباحاً عالية، ومع ذلك فبعض الأدوية لا يستطيع محدودو الدخل شراءها، ولا يهم تلك الشركات أن تبتكر وتنتج أدويةً خاصة بالبلاد الفقيرة ؛ حيث إن ذلك لن يكون مربحاً، هذا بالإضافة إلى الإعلان المباشر للمستهلك عن بعض الأدوية والتى تمارس شركاتها المنتجة ضغطاً على الأطباء لوصفها للمرضى. العالم المتقدم ينفق حوالى ٤٠٠ بليون دولار على الإعلان للتأثير على القوة الشرائية. لقد أصبحت شركات الإعلانات شيئًا من الصعب الاستغناء عنه

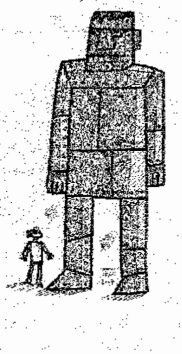
كبرت الشركات وترعرعت وطرحت الأسهم فى الأسواق وساهم فيها الكثير من صغار المستثمرين ومتوسطو الدخل وأصبح للكوربوريشن الكثير من النفوذ السياسى

خصوصا بالنسبة للمنتجات الجديدة.

أما شركات الوجبات السريعة مثل ماكدونالد وما على شاكلتها فبالإضافة إلى استخدامها مواد غذائية معدلة وراثياً وبها هرمونات ضارة، فإن ما تقدمه من مأكولات يعد غير صحي، وبسبب السمنة المفرطة وما يتبعها من أمراض، وجوما يعد من أبرز المشاكل الصحية التي تواجه المجتمع الأمريكي والمجتمعات الأخرى التي يكثر بها ذلك النوع من المطاعم. هذه بعض الأمثلة لما يحدث في بعض الشركات بغرض الربح السريع. هناك آلاف المقالات والكتب والأفلام التسجيلية عن هذا الموضوع.

لقد حذر ثلاثة من أفضل أساتذة التجارة ومفكريها في بيان مشترك عام ٢٠٠٢ (R. Simon، من هارفارد، H. Mintzberg، من McGill، وK. Basu، من أكسفورد) من أن النظام الرأسمالي يواجه أزمة اقتصادية تهدد بتدمير نظام التجارة ذاته. إن رؤساء الشركات لا يأبهون سوى بتحقيق أقصى ربح ممكن. ورغم الربح الهائل الذي تحققه بعض الشركات - خصوصاً في أمريكا - فإن سدس أطفال أمريكا يعدون فقراء، ٢٦٪ من القوى العاملة تحقق دخولاً ضئيلة، تجعلهم يعيشون على خط الفقر أو بالقرب منه، و٣٠٪ من الأمريكيين لا تتعدى ممتلكاتهم أكثر من ١٠٠٠٠ دولار، بينما قلة قليلة تتمتع بثراء يصعب تصديقه. إن متوسط دخل رؤساء أكبر ٢٣ شركة ما بين عامي ١٩٩٩ و٢٠٠١ هو ٢٠ مليون دولار في العام لكل منهم، Lawrence Ellison، رئيس شركة Oracle كان دخله في عام ٢٠٠١ حوالي ٧٠٦ ملايين دولار أي بمعدل ٢ مليون دولار في اليوم. والغريب حقا أنه حتى عندما يفشل رئيس الشركة في مقابلة ما هو متوقع من تحقيق أرباح ويضطر إلى الاستقالة، فإن بعضهم يحصل على مكافآت خيالية: رئيس شركة Home Depot وهي شركة لأدوات البناء، ورئيس شركة فايزر للأدوية حصل كلاهما على حوالي ٢٠٠ مليون دولار نظير تقديم استقالاتهم!! هذا هو الحال في أغنى بلد في العالم وأقواها، ولك أن تتخيل باقي العالم وأغلبه فقير! هذا نظام لا يمكن أن يستمر.

الرئيس إبراهام لنكولن (١٨٠٩-١٨٦٥)، والذي خاض الحرب الأهلية ليحرر العبيد، قال قبل اغتياله بفترة قصيرة: «لقد تُوِّجت مجهودات الكوربوريشن، تزامن ذلك مع فساد بعض المناصب الكبرى بالحكومة، سوف تحاول قوة المال أن تسيطر على الناس حتى يتجمع المال في أياد قليلة لينتهي الأمر بتدمير الجمهورية». لقد قال الرئيس الأمريكي «رادرفورد هايس» Rutherford Hayes (1822-1893): «لم



دفعت شركات السجائر تعويضات هائلة نتيجة تضليل الناس ولكنها لم تدفع أي تعويض لمن هم خارج أمريكا. إن مصاريف علاج السرطان باهظة ولا يقدر عليها الفقراء داخل أو خارج أمريكا

تعد هذه الحكومة من الشعب بالشعب للشعب، لقد أصبحت حكومة الكوربوريشن بالكوربوريشن للكوربوريشن». لقد حذر الرئيس «دوايت أيزنهاور» في خطاب انتهاء مدة رئاسته (١٩٥٩) من سيطرة الشركات الكبرى المنتجة للسلاح وبسط نفوذها على الحكومة! تلك الشركات هي نفسها التي تنتج الطائرات والعربات التي يستخدمها المدنيون (مبيعات شركات الأسلحة تقدر بحوالي ٤٠٠ بليون دولار، أمريكا وحدها تصدر ما يقرب من نصف الأسلحة المباعة في الأسواق العالمية).

كيف تحصل الكوربوريشن على هذه القوة الهائلة والتي لا يستطيع حتى بعض الرؤساء حيالها شيئا؟ وهل هذا معقول؟ لقد قال الكاتب الأمريكي الشهير «مارك توين» (١٨٣٥-١٩١٠): «إن أمريكا لديها أفضل كونجرس يشتريه المال». أعتقد أن هذه هي الإجابة. إن هناك خللاً كبيراً في النظام الديمقراطي الأمريكي، إن نظام الانتخابات والذي يموله ماديا أصحاب المصالح ويتحكم فيه الإعلام بدرجة كبيرة -والذي تملكه أيضاً الشركات الكبرى- هو أس البلاء. إن ٩٦٪ من الأمريكيين لا يساهمون في تمويل الانتخابات. فإذا علمنا أنه في عام ٢٠٠٠ صرف المرشحون حوالي ٣ بلايين دولار على الحملات الانتخابية، فلك أن تتخيل من دفع هذه المبالغ وما تأثير ذلك على النظام الديمقراطي.

إن رؤية رؤساء أمريكا المعاصرين تكاد تماثل رؤية رؤساء «الكوربوريشن». ويرجعنا ذلك إلى ما قاله الرئيس الأمريكي رادرفورد: «ولقد أصبحت حكومة الكوربوريشن بالكوربوريشن للكوربوريشن». أصبحت «الكوربوريشن» هي الكاهن الأكبر، أما الإله فهو الدولار - كما قال الشاعر «أحمد فؤاد نجم».

إن ٧٠٪ من الأمريكيين يعتقدون أن «الكوربوريشن» تسيطر على أوجه عديدة من حياتهم، وأن رؤساء الشركات يحصلون على أكثر مما يستحقون ويزاولون سلطتهم على الحكومة، ولذلك فإن ثقة الأمريكيين في الكونجرس ضعيفة للغاية. لا أعتقد أن الأمريكيين يختلفون في كراهيتهم «للكوربوريشن» عن باقي شعوب العالم، بل قد يكونون أكثر كراهية لها لأنهم أكثر دراية بها. يبدو أن القيادات السياسية - ليس في أمريكا فقط، بل في كثير من بلاد العالم- لم تعد قادرة على أكثر من انتقاد القيادات المعارضة.

في أوائل الثلاثينيات كان النظام الرأسمالي مهدداً من الداخل، فكان الانهيار الاقتصادي. لجأ الرئيس «فرانكلين روزفلت» Franklin Roosevelt إلى الحد من نفوذ «الكوربوريشن»، وأصدر قوانين لحماية العمال وإعفاء المزارعين من بعض الديون، وتولت الحكومة بعض الإنشاءات لتشغيل العمال بنفسها بدلاً من «الكوربوريشن»، وأصبح هناك شفافية في أداء الحكومة بعد أن كانت هناك كما قال «روزفلت»: «أياد خفية تتلاعب بالاقتصاد». وافق بعض الرأسماليين على برنامج «روزفلت»، والذي سمي صفقة جديدة New Deal، ولكن البعض الآخر لم يكن راضياً، ودبروا مؤامرة للخلاص من «روزفلت»، ولأن هذه القصة قد يصعب على الكثيرين تصديقها - ومن ضمنهم الأمريكيون - فإنني سأذكرها باختصار شديد، وهي منشورة في مرجع رقم ١ ص ٨٥-٩٥:

كان بعض الرأسماليين معجبين بالنظام الفاشي في إيطاليا والنازي في ألمانيا. لقد أعطت تلك النظم حرية كبيرة للشركات ومنها IBM وجنرال موتورز، وقد حققت تلك الشركات أرباحاً كبيرة. حاول البعض من كبار رجال الصناعة والمال استمالة جنرال متقاعد اسمه «سميدلي بتلر» Smedley D. Butler، وكان ذا شهرة واسعة وعلى اتصال بكثير من العسكريين؛ ليساعدهم في الخلاص من «روزفلت». من بين من تورطوا في هذه المؤامرة رئيس بورصة نيويورك، ورؤساء شركات مورجان تروست، جود يير، دوبونت، حديد بيت لحم، وآخرون. طُلب من «بتلر» أن يجهز نصف مليون عسكري وكان هناك حوالي ٣٠٠ مليون دولار جاهزة لتلك العملية. إلا أن «بتلر» لم يكن الشخص الذي يقبل الاشتراك في مؤامرة من هذا النوع. كان «بتلر» قد دخل حروباً عديدة وحاز الكثير من التقدير، ولكنه اكتشف أنه كان يخوض تلك الحروب لصالح بعض الشركات وبيوت المال. قال «بتلر»: «لقد دخلت المكسيك لصالح شركات البترول، والدومينيكان لصالح شركات السكر، وهاييتي وكوبا ونيكاراجوا لصالح البنوك، وهندوراس لصالح شركة الفواكه الأمريكية». قال الجنرال بتلر: «لقد اغتصبت ستاً من دول أمريكا اللاتينية لصالح رجال بورصة المال، أما الصين فقد دخلتها لصالح شركات الغاز».

في ١٣ فبراير سنة ١٩٣٥ كشف «بتلر» عن المؤامرة للكونجرس. هذا ما حاول بعض الرأسماليين عمله ولكنهم لم يوفقوا. لقد أوضح الجنرال «بتلر» دور الجيش الأمريكي في خدمة الشركات الأمريكية، ومازال هذا يحدث للآن. قبل انتقال السلطة (؟) من جيش الاحتلال الأمريكي إلى الحكومة العراقية، قام «بريمر» الحاكم الأمريكي للعراق (كان قبل ذلك مدير Kissinger &Associates) .. فرض حوالي ١٠٠ قرار على الحكومة العراقية لضمان التحكم في جميع مفاصل الحياة الاقتصادية العراقية لصالح الشركات الأمريكية.

استمر «روزفلت» في سياسته الإصلاحية، ولقي قبولاً كبيراً من الأمريكيين وتخطت أمريكا الانهيار الاقتصادي. استمرت بعض قرارات تلك الفترة إلى أن جاءت «مارجريت تاتشر» في إنجلترا عام ١٩٧٩ و«رونالد ريجان» في أمريكا عام ١٩٨٠ ليزيلا العديد من العقبات من أمام «الكوربوريشن» لتندمج العديد من الشركات ولتقل المنافسة، ليحقق بعضها أرباحاً خيالية ويختفي البعض الآخر تحت راية «تحرير الاقتصاد».

بعد سقوط الحواجز من طريق «الكوربوريشن» بدأت الشركات تنظر لأفضل أماكن التسويق والعمل، من بعض العوامل التي تؤثر في ذلك رخص العمالة، وتوافر الكوادر الفنية، والميزات المادية من ضرائب وأسعار الأراضي، وسهولة التخلص من

نقابات المصانع ومدى الالتزام بقوانين البيئة، المناخ، ووجود نقابات للعمال أو عدمه، والاستقرار السياسي. شركة BMW للسيارات أرادت بناء مصنع جديد فبحثت في ٢٥٠ موقعاً في ١٠ بلاد، استقرت الشركة على ولاية شمال كارولينا بأمريكا. الولاية من ناحيتها أخلت ١٠٠٠ فدان بتكلفة قدرها ٣٧ مليون دولار من المال العام وأجرتها للشركة بدولار واحد في العام، بالإضافة إلى تحمل مصاريف تدريب العمال والموظفين. مكسب الولاية يعود من الضرائب التي تحصل من الشركة والعاملين بها. هذا ما يحدث إذا اختيرت الشركة في دولة متقدمة، أما إذا اختيرت في إحدى الدول النامية فالأمر يختلف. بعض الشركات الأمريكية انتقلت للعمل قرب الحدود المكسيكية ومنها جنرال إليكتريك، فورد، RCA وهاني ويل، استخدمت تلك الشركات حوالي نصف مليون عامل مكسيكي. كان أجر العامل في بعض هذه الشركات في أمريكا هو ١٦ دولار في الساعة، أما في المكسيك فأصبح أجر العامل ١.٦ دولار في الساعة، كانت مساكن العمال متواضعة للغاية وكان بعضها خالياً من المياه الصالحة للشرب ودورات المياه، واعتبرت الشركة ذلك ليس من مسئوليتها. ولم تكن المكسيك ملتزمة بقوانين البيئة كأمريكا. كانت بعض الشركات تستخدم أطفالاً في بعض الأعمال وهو ما لا يسمح به القانون الأمريكي أو الدولي. قررت شركة فورد في المكسيك أن تفصل ٣،٤٠٠ عامل، وأن تخفض رواتب باقي العمال بنسبة ٤٥٪، فثار العمال. أرسلت الحكومة عساكرها ليطلقوا الرصاص بطريقة عشوائية على الثائرين، وهكذا أصبحت وظيفة الحكومة حماية الشركات بدلاً من حماية شعوبها.

إذا نظرنا إلى السلفادور والدومنكان مثلاً نجد أن عمالة القميص تتكلف ٣ سنت (حوالي ١٨ قرشاً) ويباع للمستهلك الأمريكي بحوالي ١٥ دولاراً ويصنع في ٦،٦ دقيقة. الجاكت يتكلف ٧٤ سنتاً ويباع للمستهلك بمبلغ ١٧٨ دولاراً. النمو السريع في البلاد الفقيرة يؤدي إلى تحسين المطارات والطرق ومكيفات الهواء ووسائل التصدير. هذا النوع من التقدم يتم لخدمة التصدير الذي يعود بالعملة الصعبة والتي تنعكس في المحلات الكبيرة والأزياء الحديثة والفنادق والمطاعم الفاخرة التي تخدم القلة المقتدرة. التفاوت الكبير في توزيع الثروة - وخصوصاً في الدول الفقيرة - يؤدي إلى الانحلال، والذي يظهر بعض أعراضه في الهجرة العشوائية وانتشار الدعارة. يقدر عدد من يتعيشون من الدعارة من الأطفال فقط في كل من تايلاند وسيريلانكا والفلبين بحوالي نصف مليون طفل بعضهم يعول عائلاتهم.

يعتقد العديد من السياسيين والبنك الدولي، وصندوق النقد الدولي، منظمة التجارة العالمية، منظمة التعريفة الجمركية والتجارة، وبعض الاقتصاديين والشركات الكبرى أن التنمية الاقتصادية هي المفتاح لحل مشاكل الفقر. بعض من يعارض هذا الرأي لا يُعتد بهم كثيراً. ولكن هناك حدوداً للتنمية الاقتصادية. التنمية الاقتصادية مهمة إذا أنتجت سلعاً ذات فائدة حقيقية، وإن لم تعمد إلى استنزاف مواردنا الطبيعية. الحقيقة أن معدل النمو GDP (أي معدل سريان المال في الاقتصاد) لا يأخذ في الاعتبار أياً من ذلك، حيث إن معدل النمو قد يزاد دون أن يؤثر ذلك على الفقراء. في كتاب (Common Good) وجد المؤلفان (H. Daly & J. Copp) أنه بين عامي ١٩٦٩ و١٩٨٦: وبعد الأخذ في الاعتبار الزيادات التي أدت إلى زيادة حقيقية في تحسين المعيشة: أنه لم تحدث زيادة حقيقية في دخل الأمريكيين، بل إن الدخل الحقيقي لأغلب الأمريكيين قد قل. (مرجع رقم ٤ صفحة ٤٦). ومن ناحية أخرى وجدت منظمة الأمم المتحدة للتنمية أنه ليس بالضرورة أن ينعكس تحسن الاقتصاد على احتياجات الإنسان الضرورية، فمثلاً نسبة الأمية في سيريلانكا أقل من المملكة السعودية رغم أن معدل الدخل في السعودية أكبر من سيريلانكا ١٥ مرة. ومعدلات الوفيات في البرازيل أربعة أضعاف تلك التي في جامايكا. لقد قال الاقتصادي البريطاني «R. Butler» عام ١٩٥٤: «إنه بزيادة سنوية قدرها ٣٪ سيتضاعف الاقتصاد خلال ٣٠ عاماً». وفي عام ١٩٨٩ حاول «R. Douthwaite» أن يدرس كيف أدت مضاعفة الدخل إلى تحسين أحوال الناس؟ ووجد أن كل المؤشرات الاجتماعية قد انحدرت: الأمراض زادت، الجرائم زادت، البطالة زادت، ونسب الطلاق زادت أيضاً، رغم العديد من مظاهر التقدم التكنولوجي. وينطبق هذا على أغلب بلاد العالم.

إن مجرد النظر إلى معدل النمو الاقتصادي لا يعكس بالضرورة واقع معيشة الناس واحتياجاتهم المعيشية من مياه صالحة للشرب، صرف صحي، معدلات استهلاك الأطعمة، مستوى التعليم والصحة العامة. ولكن معدل النمو قد يعكس مدى توفيق «الكوربوريشن» في التجارة والصناعة وتحقيق الأرباح. لقد تعرض «جلال أمين» في كتابه (خرافة التقدم والتأخر) لبعض مما تحاول الدول الغنية فرضه على الدول الفقيرة بحجة التنمية.

هناك مشاريع كثيرة لتحسين أحوال الفقراء، ليس بالضرورة عن طريق العمالة لدى الشركات الكبرى: لقد كرمت لجنة نوبل هذا العام الاقتصادي «محمد يونس» لتبنيه مشروعاً لمساعدة النساء عن طريق منحهم قروضاً بسيطة مصحوبة ببعض المساعدات التكنولوجية. بدأ المشروع في بنجلاديش، بعد عشر سنوات أعانت تلك المشاريع ٢.٧ مليون عائلة في ٢٢ بلداً. هناك مشاريع أخرى مشابهة تتبناها مؤسسات مختلفة. «الكوربوريشن» لن تحسن حال الفقراء، فهذا ليس من ضمن أهدافها.



قال الرئيس الأمريكي الراحل «رادرفورد هايس»: لم تعد هذه الحكومة من الشعب بالشعب للشعب، لقد أصبحت حكومة الكوربوريشن بالكوربوريشن للكوربوريشن

أهم ما يؤثر في قيمة «الكوربوريشن» هو أرباح الشركة الحقيقية والمستقبلية. إذا انخفضت قيمة الأسهم كثيراً تبدأ الشركات الأقوى في الاستيلاء على الشركات الضعيفة بالاتفاق أو بشراء قدر من الأسهم يكفل ذلك. إنها حرب ضروس يستولي فيها القوي على الضعيف. لهذا لا تستطيع بعض الشركات أن تخطط للمستقبل البعيد لأن هذا مكلف ويؤثر على أرباح الشركة والتي تُعلن كل ثلاثة أشهر. وهنا يجب أن نلاحظ أن الشركات في الماضي كان مؤسسوها يمتلكون جزءاً كبيراً من أسهمها، وكان في إمكانهم أن يخططوا للمستقبل أما الآن فأغلب الشركات تُدار بكوادر فنية نمت في أحضان تلك الشركات، وهؤلاء لا يملكون من أسهم الشركة ما يجعلهم ذوي نفوذ قوي. إن قوتهم تعود إلى ما يحققونه من أرباح، ورواتبهم ومكافآتهم تعتمد على ذلك، وبقاؤهم كرؤساء للشركة غالباً لا يزيد كثيراً على خمس سنوات.

نتيجة عدم قدرة العديد من الشركات على التخطيط ينتهي الأمر بذوبانها في شركات أخرى. عادةً ما يكون ذلك مصحوباً بالاستغناء عن بعض أو كثير من العاملين. في العقدين السابقين أصبحنا نسمع عن شركات تذوب في كيانات أخرى أو تختفي تماماً كما اختفت شركتا (بان أميريكان) و (TWA) وقد كانتا من أكبر شركات الطيران في العالم. ومن الطبيعي أن يعاني من ذلك كثير من العاملين.

نتيجة ضعف بعض الشركات الأمريكية تلجأ بعض تلك الشركات إلى الاستغناء عن كثير من العاملين فيما يسمى بالتصغير (Down Sizing) لأن ذلك يزيد مما يبدو ربحاً فورياً للشركة. ولا يعتبر ذلك في نظر البورصة دليلاً على فشل الشركة بل على العكس تزداد قيمة الأسهم. في عام ١٩٩٦ قررت شركة التليفونات (AT&T) أن تفصل ٤٠،٠٠٠ من العاملين فزادت قيمة الأسهم وارتفعت قيمة أسهم رئيس الشركة إلى ٤٥ مليون دولار، وكان راتبه السنوي خمسة ملايين دولار. أمثلة أخرى من هذا القبيل أصبحت جزءاً من النشرات الإخبارية، أي أنها أصبحت شيئاً عادياً في المجتمع الأمريكي رغم أن الشعب الأمريكي لا يتقبله. هذه هي الديمقراطية الأمريكية.

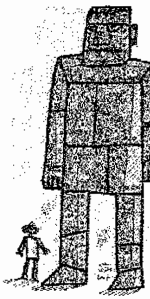
يجب أن نلفت النظر هنا إلى أن بعض «الكوربوريشن» الأمريكية بدأت تفقد قدرتها على الابتكار والجرأة في تمويل مشروعات كبيرة - عكس نظيرتيها الأوروبية واليابانية. حتى عام ١٩٦٩ كانت أمريكا تملك ٨١٪ من أكبر ٥٠ شركة في العالم، عام ١٩٧٤ أصبحت تملك ٥٧٪ وفي عام ١٩٩٣ أصبحت تملك ٣٦٪ فقط. يتضح هذا أيضاً من مبيعات أوروبا واليابان التي تزداد، بينما مبيعات أمريكا تنكمش. ومع ذلك فمرتب ومكافآت رؤساء الشركات الأمريكية أعلى بكثير من نظرائهم في أوروبا واليابان، بل وتستمر في الزيادة. في تقرير لمجلة (Business Week) كان راتب رئيس الشركة في المتوسط هو ٦،٩ مليون دولار عام ١٩٩٠ ثم قفز إلى ١٠،٦ مليون دولار عام ١٩٩٨. في نفس الفترة تضاعفت قيمة

الشركة مرة واحدة ولم ترد أجور العاملين الحقيقية.

وهـنـاك مـشـكـلـة أخـرى فـى «الكوربوريشن» الأمريكية. ذلك أن العديد من رؤساء الشركات يكون اهتمامهم الأول بالشئون المالية والقانونية، وقليل منهم لهم اهتمامات بشئون الإنتاج. أهم مركز بعد رئيس الشركة الأمريكية هو رئيس الشئون المالية والمهتم بقيمة الأسهم ببورصة المال، وكذلك المكافآت والعلاوات. إذا قارنّا ذلك باليابان نجد أن أهم مركز بعد رئيس الشركة هو لشئون الأفراد والاهتمام بشئون العاملين. أما فى ألمانيا فأهم مركز بعد رئيس الشركة هو للإدارة الفنية التى تبنى وتُطوِّر المصانع.

الإعلام الذى تملكه الدولة أو الذى تسيطر عليه الشركات الكبرى أصبح يمثِّل من يملكه أكثر من أن يُقدم أخباراً حقيقية تهم الناس وتكون غير منحازة. فإذا نظرنا إلى أمريكا مثلاً نجد أنه فى عام ١٩٤٦ كان ٨٠٪ من المؤسسات الصحفية يكاد أصحابها أن يكونوا مستقلين. أما الآن فأصبحت ٨٠٪ من الصحافة تملكها شركات كبرى. أما شركات التليفزيون فأصبح يملك أغلبها شركة جنرال اليكتريك أو شركة ديزنى (Disney). إن رؤساء شركات الإعلام يحققون دخولاً فلكية والإعلام الغنى ماديا يتبعه فقر الديمقراطية. شركة فوكس FOX مثلاً والتى يملكها «روبرت موردوش» Rupert Murdoch تملك العديد من محطات الراديو والتليفزيون فى بلاد عديدة، خلاف الصحف والمجلات. «موردوش» له اتجاه سياسى يمينى قوى ينعكس فيما تبثه وتنشره شركاته الإعلامية. عندما حاول بعض مخرجى البرامج من العاملين فى فوكس أن يعرضوا فيلماً تسجيلياً عن أضرار استخدام الهرمونات التى تزيد من إدرار المواشى للألبان والذى تنتجه شركة «مونسانتو» تحت اسم (Posilac)، لم تسمح الشركة بعرض الفيلم تحت ضغط من مونسانتو. انتهى الأمر بفصل المخرج وفصل كل من رفض الإذعان لقرار فوكس Fox بعدم العرض. لم تعرض الفيلم أية محطة تليفزيون، رغم أن العديد من البلاد الأوروبية ترفض استخدام هذه الهرمونات لما تسببه من أضرار للإنسان.

رغم قوة الشركات الكبرى وتأييد العديد من الحكومات لمطالبها، إلا أنه هناك مقاومة تتماسك وتقوى بمرور الزمن فى عديد من الدول - سواء الغنية أو الفقيرة - وإن كانت تلك المقاومة تبدو غالبا فى صورة مظاهرات سلمية تتجه للعنف أحياناً إلا أنها وسيلة ديمقراطية لإبداء الرأى لا يستهين بها المسئولون وتزيد وعى عامة الناس. ينتج عن هذه المظاهرات أيضاً تكوين جمعيات غير حكومية، وهذا فى غاية الأهمية. لقد كان الناس يلجئون



٧٠٪ من الأمريكيين يعتقدون أن «الكوربوريشن» تسيطر على أوجه عديدة من حياتهم، وأن رؤساء الشركات يحصلون على أكثر مما يستحقون ويزاولون سلطتهم على الحكومة

للحكومة فى الماضى لتخفيف حدة معاناتهم، أما الآن فيصر رجال الأعمال وبعض الاقتصاديين أنه لا دخل للحكومة فيما يختص بالصناعة والتجارة. فإذا كان الحال كذلك فلابد للمنظمات غير الحكومية أن تكتسب قوة للضغط على المسئولين. هناك أمثلة عديدة ناجحة لمقاومة سيطرة الكوربوريشن منها بعض الهيئات الحكومية، مئات الجمعيات والمؤسسات التى تراقب وتقاضى تلك الشركات. ما بين عام ١٩٩٩ وحتى عام ٢٠٠١ كان هناك ٢٤ قضية كبيرة ضد شركة جنرال اليكتريك كلفت الشركة أكثر من ٥٠٠ مليون دولار. هناك قضايا مماثلة ضد كل الشركات الأمريكية الكبيرة تقريباً وإن كان أشهرها قضايا شركات التبغ والتى سبق الإشارة إليها.

فى بوليفيا كانت شبكة المياه متآكلة ويلزم تجديدها، تحت ضغط من البنك الدولى خصخصت الحكومة شركة المياه للحصول على قرض لتجديد شبكة المياه. بيعت شركة القطاع العام لشركة (باكتل) الأمريكية. رفعت الشركة الجديدة سعر المياه ثلاثة أضعاف وتحت ضغط من الشركة أصدرت الحكومة قرارات بمنع الناس من تجميع مياه الأمطار أو استخدام مياه البحيرات والأنهار!! بدأت الجماهير معارضة منظمة تحت قيادة واحد منهم اسمه «أوسكار أوليفيرا» التف حوله حوالى مائة ألف مواطن، وطالبوا الشركة بمغادرة بوليفيا بعد مواجهات عديدة مع القوات الحكومية راح ضحاياها البعض، اضطرت الشركة لمغادرة بوليفيا وسقطت الحكومة التى تورطت مع الشركة. قال «أوسكار»: «إن الناس شعروا بقوتهم وقدرتهم على اتخاذ القرار، إن قدرة الجماهير على اتخاذ القرار هى الديمقراطية». أعيدت شركة المياه للقطاع العام، وكُوِّن مجلسُ إدارةٍ جديد به ممثلون من المسئولين ونقابات العمال.

الهند تعطينا مثالاً آخر لمقاومة الشركات الكبرى: تحاول «مونسانتو» والتى تملك ٧٠-١٠٠٪ من سوق البذور المُعدَّلة وراثياً أن تغزو السوق الهندية، الفلاح الهندى الفقير غير قادر على دفع ما تطلبه الشركة. لقد انتحر بعض الفلاحين الهنود لعدم قدرتهم على دفع الديون. نظَّم بعض الهنود جمعيات غير حكومية لمقاومة مونسانتو. كانت المقاومة فعَّالة، واستطاعت أن توقف أحياناً نشاط الشركة بالهند. أوقفت الهند استعمال بذور القطن المُعدَّل وراثياً وبعض بذور الغذاء. إن قانون براءة الاختراع يمنع إعادة تشكيل الحياة، ولكن الحكومة الأمريكية لا تعترف بذلك لصالح الشركات. إن ضغط الحكومة الأمريكية لصالح مونسانتو لا يحتمله البعض. لقد قال بوش «إن من يقف فى طريق البذور المُعدَّلة وراثياً يقف عقبةً فى طريق القضية العظمى لإنهاء الجوع»!! رغم الضغط الأمريكى إلا أن بعض الدول تعارض - ولأسباب جيدة - ولا تستخدم الأغذية المُعدَّلة وراثياً. من ضمن هذه الدول كل الدول الغنية وبعض الدول الفقيرة مثل البرازيل، زامبيا، الهند والمكسيك. قد تكون البذور المُعدَّلة وراثياً ذات فائدة جليلة، ولكن يجب ألا تُترك فى أيدى الشركات التى تسعى للربح السريع دون تقدير لما قد يحدث فى المستقبل.

قد تضطر الكوربوريشن لدفع تعويضات نتيجة ما تسببه من أضرار. شركة PG&E الأمريكية دفعت ٣٣٣ مليون دولار تعويضا إلى ٦٣٤ عائلة تقطن بجوار الشركة التى لوثت المياه الجوفية بمادة كروميم ٦ وهى أحد منتجات الشركة. أما فى الدول الفقيرة فإنها قصة أخرى، شركة مونسانتو استخدمت المبيد Orange Green والذى تسبب عنه حوالى ٥٠٠٠٠٠ ولادة مشوهة و٥٠٠٠٠٠ حالة سرطان، دفعت الشركة لحكومة فيتنام ٨٠ مليون دولار فقط!! أعتقد أن ذلك لا يحتاج لتعليق.

نتيجة الشعور العام بعدم الثقة فى الشركات الكبرى بدأت بعض الشركات تحاول أن تُحسِّن من صورتها العامة. شركة التبغ (ABT) قررت أن تنشىء المركز الدولى للمسئولية الاجتماعية للشركات بتكلفة قدرها ٧ ملايين دولار. شركة شل أعلنت أنه يجب على الشركات أن تلتزم بمعاهدة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان. شركة الغاز البريطانية (P.B) أعلنت وجوب الالتزام ببروتوكول كيوتو للأمم المتحدة للإقلال من الغازات التى سببت ثقب الأوزون. وهناك أمثلة أخرى كثيرة من هذا القبيل: فالشركات تحاول بطرق مختلفة أن تُحسِّن من صورتها، ولكن هدف الشركة الأول من ذلك هو تحقيق الربح. بعض الشركات قد تكون جادة فى محاولتها للإصلاح - وهذه أعتقد أنها قلَّة، أما الأغلبية فينطبق عليها المثل الشعبى «تحلف لى أصدّقك، أشوف أمورك استعجب»!

أعتقد أن النظام الشيوعى فشل لعدم مرونة النظام للتغيير. ولقد اعتقد البعض أن النظام الرأسمالى نجح بسبب فشل النظام الشيوعى، ولكن فى رأيى أن النظام الرأسمالى أيضاً قد فشل: خصوصاً فى أمريكا، ولكن لوجود بعض المرونة وبعض الديمقراطية فإنه مستمر لفترة أطول. ولكن ما لم يتطور النظام الأمريكى للتغلب على مشكلة الرأسمالية الأساسية وهى الجشع فإنه سوف يدمر نفسه. إننا فى حاجة إلى ثورة أخرى لإصلاح العديد من مشاكل الثورة الصناعية، ثورة سلمية تبث روحاً جديدة فى نفوس البشر وعقولهم. ثورة تعتمد على ديمقراطية مستنيرة لا تستغلها «الشركات الكبرى».

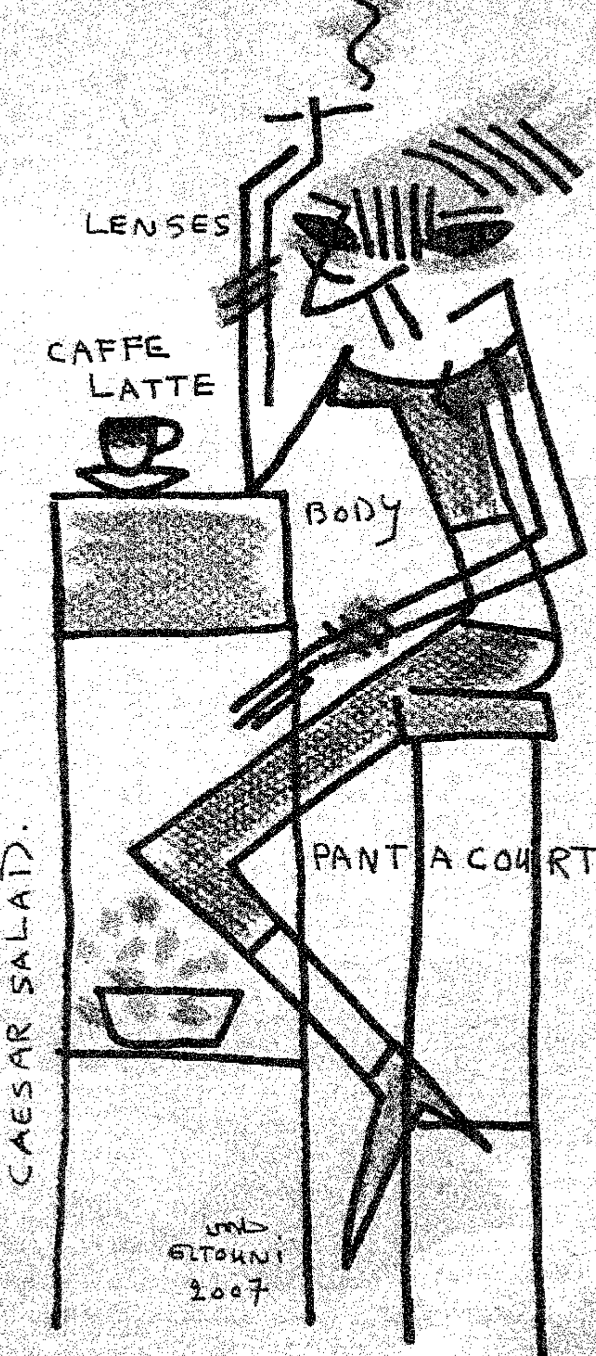
لقد قال «جبران خليل جبران» فى كتاب «النبى»: «إن الأرض تؤتيكم ثمارها فتكفيكم الحاجة، لو عرفتم كيف تملئون منها أيديكم. فإن أنتم تبادلتم نعمها نلتم الرخاء، وطابت بذلك نفوسكم، فإن لم يجر بينكم التبادل بالحب والعدل الرفيق شرهت منكم نفوس وجاعت أُخرى».

المـــــــراجـــــــع

1 - Colossus, "When the Corporation Changed America", Edited by Jack Beatty Broadway Books, 2001.
2 - "When the Corporation Rule The World", David C. Kurten, Kumarian Press, 2001.
3 - "How Corporations Hurts Us All, Dann Butts, Trafford Publishing, 2003


إحجز مكانك .. من مكانك
مصر للطيران
75

الانتماء الكوزموبوليتانى



في يوم عادى من صيف عام ٢٠٠٤ سألتقى بدينا وميساء فى مقهى ريترو بالمهندسين لإجراء حوار حول المقاهى. خلال بحثى كانت المقاهى الراقية مثل ريترو والتى أصبحت جزءاً أساسيا من الروتين اليومى لجميع أصدقائى ومعارفى المنتمين إلى الشريحة العليا من الطبقة الوسطى، قد أصبحت مألوفة بالنسبة لى. لقد غيرت المقاهى الراقية مثل ريترو من النسيج المدنى للأحياء المرفهة. إن الاستمتاع بكافيه لاتيه Cafe Latte أو سلطة القيصر Caesar salad قد أصبح روتيناً شبه يومى لعديد من الشباب القاهريين من أصحاب مستوى الحياة المرتفع نسبيا. هذه الأماكن يشار لها باللفظ الإنجليزى «كوفى شوب» ولا يمكن الخلط بينها وبين «القهوة البلدى» أو مقهى الرصيف الذى يسيطر عليه الرجال والذى تشتهر به القاهرة. لقد أصبحت المقاهى المتنوعة نقاط التقاء مكانية، بالإضافة إلى كونها محددات اجتماعية لانتماء ما وللإحساس ذاتى بالطبيعية.

لقد نشأت ثقافة ترفيه جديدة ومميزة فى تلك المقاهى وحولها يتبناها بشكل رئيسى مهنيون شباب غير متزوجين مثل دينا وميساء. ولكن المقاهى الكافيه ظاهرة جديدة. بدأت فى الظهور فى نهاية التسعينيات فى مناطق مركزية وراقية مثل الزمالك والمهندسين وفى ضاحيتى هليوبوليس والمعادى. تفتتح الكافيهات الجيدة بشكل دورى مما يسبب زحاماً فى الشوارع ويحول المناطق السكنية إلى وسط تجارى حيوى.

أجد دينا وقد اقتسمت طاولة مع صديقتنا المشتركة ميساء. إن هؤلاء النساء فى أوائل الثلاثينيات ولديهن وظائف فى قمة السلم الاقتصادى، وهن جزء من طبقة جديدة من المهنيين تتميز

فصل من: Cairo Cosmopolitan
Politics, culture and urban space in the new globalized Middle East
(القاهرة الكوزموبوليتانية.. السياسة والثقافة والمساحات المدنية فى شرق أوسط معولم جديد)
Ed. Diane Singerman and Paul Amar
AUC Press, 2006

ترجمة: نرمين نزار

فى مقاهى القاهرة

أنوك دى كوننج

بعلاقاتها وتطلعاتها الدولية. ومثل النساء الأخريات فى رترو، ترتديان سراويل قطنية ضيقة أو بنطلونات جينز وقمصانا مماثلة فى الضيق ومع ذلك فهن ضمن الحد الأدنى للاحتشام حيث إن جميع أجزاء أجسامهن مغطاة باستثناء الأذرع. تصميم المقهى الصغير، والأعمال الفنية المعروضة به وبألوانه الهادئة وأثاثه الخشبى الحديث، يعطيان إحساسا بالحداثة مع شعور دافئ يستعيد راحة المنزل. وتضع موسيقى تميل إلى الجاز منها أعمال لبونا فيستا سوشال كلوب Buena Vista Social Club ونورا جونز Nora Jones اللمسات النهائية.

قبل أن نبدأ فى حوارنا نطلب بعض السلطات والساندويتشات من قائمة رترو الطويلة من «المأكولات المبتكرة» (هكذا تقول دينا) ونعطى طلباتنا لأحد الشبان الذين يرتدون زى رترو: جينز أسود وبولو شيرت تحمل اسم المقهى. يتحول حوارنا بسرعة إلى المدى الذى تتيح به المقاهى مساحات لقاء علنية جديدة خاصة للنساء. يقولون «نجحت المقاهى فى أن تجمع الفتيات والنساء من بيوتهن والنادى». إن الوجود الطاغى للنساء فى أغلب المقاهى الراقية هو أحد الملامح الملحوظة للحياة الاجتماعية التى تتبدى فيها. الاختلاط الاجتماعى غير المراقب بين الجنسين ووجود نساء بمفردهن فى أماكن اللهو هى أمور عادة ما تحاط بالمحظورات والشكوك. ومع ذلك تمثل النساء المحجبات وغير المحجبات أكثر من نصف زبائن المقاهى الراقية. وقد اعتادت العديد من النساء المهنيات غير المتزوجات قضاء جزء كبير من وقتهن فى مقاهى مثل ريترو.

بعد نصف ساعة تتم مقاطعة حوارنا عندما تنضم للطاولة صديقتان ويصل عدد متزايد من الأصدقاء والمعارف الذين تتم تحيتهم بحماس. لقد بدأت الحياة الاجتماعية فى رترو تصل إلى ذروتها بعد انتهاء يوم العمل. يتحول حوارنا إلى خليط مرح من الحكايات الفردية والأخبار الشللية التى تميز التسلية فى المقاهى. لمقهى رترو الصغير نسبيا عدد كبير من الزبائن الدائمين مثل شلة (كلمة من النص الأصلى) ميساء التى تأتى بشكل شبه يومى ليلتقوا بأصدقاء ومعارف. تقول دينا التى تربطها صداقة بصاحب المقهى وتعرف أسماء كل العاملين فيه أن رترو يمثل لها منزلا ثانيا.

سبكترا كافيه هو مكان آخر ذو شعبية: يقع على بعد بضعة شوارع خلف جامع مصطفى محمود الشهير فى قلب المهندسين وقد زين بذوق رفيع بأثاث خشبى وينقسم إلى جزءين. يتيح الجزء الأمامى الهادئ أماكن جلوس للمجموعات الصغيرة بينما تحوى الغرفة الخلفية مساحات للمجموعات الكبيرة على طراز المطاعم الأمريكية بـBenches خشبية تسمح بجلوس ستة أشخاص على الأقل حول الطاولة. تعرض مجموعة من شاشات التليفزيون فيديوهات موسيقية من إحدى القنوات الموسيقية العربية الجديدة الشهيرة مثل ميلودى هيتس Melody Hits وام تى فى MTV اللبنانية. بينما تشكل أغان عربية وأجنبية مماثلة الخلفية الموسيقية.

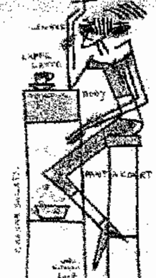
مساء أحد الأيام كان لدى موعد مع أحمد، مهنى شاب فى منتصف العشرينيات، للكلام حول الكافيات. عندما وصلت كان قد احتل طاولة فى الغرفة الخلفية مع أخته وصديقة واثنين من أبناء عمومته. كان المكان مكتظا بشلل مختلطة من الشباب. صمت الجميع فجأة عندما جلست بجوار أحد أبناء عمومة أحمد ثم جاءت أخته وطلبت منى أن أبتعد قليلا عن جارى. قالت لى إنه شخص شديد التدين ولا يرتاح لجلوسى بجواره. عندما أصبحت وحدى مع أحمد وصديقته أتيحت لنا الفرصة أن نتحدث عن الكافيهات. شرح لى أنه يحب سبكترا بسبب مستوى زبائنه «أشخاص نظيفين ومحترمين» وبسبب طبعه الراقى وجودة الطعام والخدمة. قال أحمد إنه لم يكن مقبولا أن يقضى الشباب وقته فى المقاهى: أما الآن وحتى إذا أصبحت الأزياء أكثر احتشاما فهناك المزيد من الحرية. وقد بدا أن الجمهور فى سبكترا يؤيد كلامه ملاحظاته. اختلف سبكترا عن ريترو فى أنه يجذب عدداً كبيراً من الزبائن المحجبات. قالت لى صديقة أحمد التى تغطى رأسها، بمرح، إن الحجاب هو ببساطة إلزامى للمسلمين. ولكن ذلك لا يعنى أن أسلوب حياتها يجب أن يكون مختلفاً عن زميلاتها ممن لا يرتدينه. فيما بعد لفتت انتباهى لفيديو كليب يتم فيه التركيز على ثلاث فتيات طويلات يرتدين ملابس كاشفة ويرقصن بإغواء لإرضاء المشاهدين. قالت لى «هذا هو المفضل عندى».

إن المعادلة الانتقالية للمقهى الراقى تقحم نفسها فى المجالات المهمة محليا والخلافية غالبا للترفيه والمجال الاجتماعى. فى القاهرة، وقد مثلت المعرفة بالخارج (بلاد برة) وتبنى الأساليب الكوزموبوليتانية الصريحة، مؤشرات للوضع الاجتماعى الراقى. إن الاختلاط الاجتماعى فى أماكن الترفيه هو إحدى علامات نمط الحياة الكوزموبوليتانى. ولكنه أيضا مصدر للقلق والخلاف. فى هذا الفصل أبحث فى الأسلوب الذى يخلق به المقهى الراقى مساحة للانتماء الكوزموبوليتانى. وهذه المساحات تعكس التفاوت الطبقى فى القاهرة الحديثة وتوضح كيفية تغير أنماط الاختلاط الاجتماعى بين الجنسين خاصة فى الشرائح العليا من الطبقة الوسطى.

المساحات المقسمة

فى بداية القرن الجديد تتميز القاهرة بدرجة عالية من التقسيم فى مجالات الإنتاج والاستهلاك. يجب على أغلب القاهريين أن يستهلكوا المنتجات والخدمات التى تتناسب مع قدراتهم الشرائية المحدودة فى وقت ترتفع فيه التكلفة وتنخفض الضمانات الاجتماعية، كما أن معدلات البطالة مرتفعة وفترات الركود ممتدة. فعلى القاهريين إما أن يبحثوا عن الضمانات الاجتماعية المتاحة فى نظام الدعم أو شراء منتجات عبر الأسواق غير الرسمية وعادة ما تكون تلك بضائع صينية رخيصة. مع ذلك وفى نفس الوقت تكشف أن المشهد فى المدينة يحكى عن وجود قاهرة أخرى بدأت فى الازدهار فى ظل الانفتاح (سياسة الانفتاح الاقتصادى التى بدأت فى منتصف السبعينيات) والتى شجعت الواردات والاستثمارات الأجنبية فى مصر. وقد نمت تلك القاهرة الأخرى بشكل كبير خلال فترة إعادة التكيف الهيكلى والسياسات النيو ليبرالية والسعى للاندماج فى الأسواق العالمية فى التسعينيات. فبينما يستمر معظم القاهريين فى مواجهة الانخفاض المستمر للأجور الحقيقية وانحصار الدعم الحكومى فى مجالات متنوعة مما يجعل الحياة مكلفة بشكل متزايد، تشهد القاهرة أيضا صعود برجوازية جديدة من المهنيين الأثرياء الذين ينتمون للشريحة العليا من الطبقة الوسطى. وفى وسط بطالة منتشرة بين خريجى الجامعة ومرتبات مبدئية شديدة الانخفاض، يعمل مهنيون شباب من أمثال دينا وميساء فى الجزء الصغير، ولكنه المميز وذو التطلعات الدولية، من سوق العمل. فى هذا الجزء من سوق العمل تكون المرتبات فى الغالب ثلاثة إلى خمسة أضعاف ما يتم دفعه للمهن المماثلة فى القطاعات الأقل حداثة من الاقتصاد الرسمى بما فى ذلك القطاع العام الواسع والخدمات الحكومية. إن العلامات على التحول إلى النيو ليبرالية والأسواق محفورة فى المشهد القاهرى. ترتفع فنادق الخمس نجوم والمبانى التجارية اللامعة فى الأحياء التجارية الجديدة. تبنى المجمعات السكنية المغلقة فى الصحراء حول القاهرة وتمتلئ شوارع القاهرة بالسيارات الفاخرة يتم استبدال منطقة وسط البلد تدريجيا بحى المهندسين الراقى كـ«وسط بلد» جديد لمن يملكون القدرة المالية. تقوم مناطق تتسم بالثراء مثل الزمالك والمهندسين وهليوبوليس والمعادى بخدمة المجموعات القادرة

> المشهد فى المدينة يحكى عن وجود
> قاهرة أخرى بدأت فى الازدهار فى ظل الانفتاح
> (سياسة الانفتاح الاقتصادى التى بدأت فى منتصف
> السبعينيات) والتى شجعت الواردات
> والاستثمارات الأجنبية فى مصر



ماديا. يقوم عدد متزايد من المدارس الخاصة والمؤسسات والجامعات والمستشفيات بتقديم خدماتها للعائلات التي تقدر على ترك الخدمات الحكومية المتداعية. في نفس تلك الأحياء توفر متاجر براقة مثل مترو وألفا ماركت المنتجات الضرورية لحياة مرفهة. يستطيع المرء أن يجد هنا محلات ملابس أنيقة لا تمتلئ عن آخرها توفيراً للمساحة كما هو الحال في محلات وسط المدينة التي لم تعد عصرية. على العكس فإن المحلات الراقية الحديثة تقدم منتجاتها وكأنها قطع فنية تنضح بالوعود بأناقة كوزموبوليتانية. تتميز كل تلك الأماكن الراقية بالمرجعية الكوزموبوليتانية للبضائع والخدمات المقدمة - من الكافية لاتيه إلى الأثاث الإيطالي والشهادات الدراسية الأمريكية- وبأسعارها المرتفعة نسبيا: أن المقاهي التي تخدم الشرائح العليا من الطبقة الوسطى تتقاضى أكثر من خمسة جنيهات لفنجان القهوة (بما في ذلك ٥ ٪ ضرائب و ١٢٪ خدمة) ويفرض أغلبهم حداً أدنى من الطلبات. قارن ذلك بالخمسين قرشاً أو الجنيه الواحد التي تتكلفها القهوة أو المشروب البارد في أي مقهى بلدي.

ملاعب الترفيه

لقد أخذ المقهى وضعا جديدا في خرائط الترفيه المتنوعة عبر العالم. إن طعم الكابتشينو أصبح علامة دولية قوية على الارتقاء بالأذواق في التقسيمات المتنوعة والمختلفة للأنماط الثقافية. ومع أن المكانة التي يحتلها المقهى في الخارطة المحلية وشكل التميز الذي يمنحه الاعتياد على الكافية لاتيه هي بالأساس أمور محلية إلا أن قدرتها على التحديد وإكساب التميز والخصوصية يرجع إلى تجذرها في التيارات العالمية. وبالرغم من أن للعديد من المقاهي ملاكاً محليين إلا أنها تحمل بوضوح الطابع الأمريكي بما في ذلك المأكولات والمشروبات المقدمة فيها. إن العديد من المقابلات مع الملاك والعاملين بالمقاهي تشير إلى أن المقاهي أنشأها في البداية شباب قاهريون من أصحاب الخبرة الواسعة بالغرب.

وكما أخبروني فإن المقاهي هي مشاريع قليلة التكلفة ولكن عالية الربحية وهو السبب الذي يؤكده انتشارها السريع في السنين الأخيرة. عبر التجربة والخطأ تحولت سلسلتا المقاهي الأكثر انتشارا، سيلنترو والروستري من فروع صغيرة متخصصة في القهوة الفاخرة والأطعمة الخفيفة إلى نمطهما الحالي بمقاعد وثيرة ومريحة وقائمة طلبات أوسع تشمل الأطباق والمشروبات غير الكحولية لتناسب المفهوم المحلي عن النزهة.

يعجب البعض بالديكورات المنزلية الطابع والنمطية نوعا ما بينما يفضل الآخرون حداثة واختلاف سيلانترو بلمعان المعدن الطاغي عليه والوسائد المربعة بألوانها الأساسية أو النمط الأنيق والشاب لريترو بدفئه وحميميته. ورغم اختلافها في الطراز وقوائم الطلبات والجمهور إلا أن المقاهي الراقية تمثل أبرز أماكن الترفيه التي يسهل التعرف عليها وتمييزها عن الأماكن الأخرى التي تقدم بدورها مأكولات ومشروبات. بيد أن هناك قوانين ضمنية وحداً أدنى من المتطلبات ينبغي توفرها لجذب زبائن معينين والحفاظ على المرتبة الراقية. من أكثر تلك المتطلبات أهمية وجود عاملين ونادلين من الشباب جيد التدريب ومهذب وأنيق كما يجب وجود أنماط وإشارات للانتماء إلى العالم الأول. تتميز وتبتعد تلك المناطق بشكل لا يقبل اللبس عن الأماكن الأخرى وعن محيطها بطرازها الغربي ونظافتها المفرطة والصيانة المدهشة لمساحتها الداخلية كما يميزها التكييف الذي يكسبها جوا مريحا بشكل مستمر. لقد أصبحت هذه الأماكن جزءاً لا يتجزأ من خرائط الأشخاص وحياتهم. يخدم بعضها المجموعات المميزة وتخدم أخرى المجموعات الأصغر سنا. بعضها يعتبر مناسبا بينما ينظر إلى أماكن أخرى من ضمنها على أن روادها جمهور جريء، وكما سأحلل لاحقا فإن تلك التقسيمات لا تعكس إشارات إلى تفضيل طراز معين أو اختلاف منبعه السن فقط ولكن أيضا قلق منبعه مفاهيم حول ما هو مناسب لكل جنس وبالذات ما يعتبر محترما فيما يخص النساء.

تحمل العديد من المقاهي أسماء أجنبية مكتوبة دائما بالحروف الأجنبية وتسيطر اللغة الإنجليزية على قوائم الطعام بدءا من قائمة بسيطة بالإنجليزية (تتضمن أخطاء مطبعية) حتى قوائم تكتب بالإنجليزية فقط مع شرح للأصناف يكتب بأسلوب شديد الكلاسيكية. وتشير تلك الاختيارات إلى نوع خاص من الزبائن يرغب صاحب المقهى في استقطابهم. استخدام اللغة الإنجليزية وادعاء ارتباط مباشر او غير مباشر بمنشآت مماثلة في أمريكا الشمالية يضفي إحساسا بالكوزموبوليتانية والخصوصية على المكان وطعامه وشرابه وزبائنه. يقول سميث إن تذوق أنواع معينة من القهوة في المقاهي الأمريكية ما هو إلا ثقافة جديدة يسهل الوصول إليها. وفي مقاهي القاهرة يظهر التناقض الكبير بين المأكولات والمشروبات الأجنبية والمحلية. إن الشخص الذي طور تذوقه بأي شيء من الكابتشينو إلى دوبل اسبرسو يقف على النقيض من هؤلاء المتمسكين بقهوتهم المضبوطة أو الزيادة. إن التميز هنا لا يكمن في معرفة وتذوق خصائص القهوة المتخصصة ولكن في الإحالة الكوزمبوليتانية للمأكولات والمشروبات وللمكان وزبائنه. وعلى نسق القوائم فإن اللغة المستخدمة في المقاهي هي هجين من العربية والإنجليزية والتي تميز المهنيين الشباب المنتمين إلى الشريحة العليا من الطبقة الوسطى فهي تختلط بشكل جيد بالديكور وقوائم الطعام التي تستمد إلهامها من العالمية.

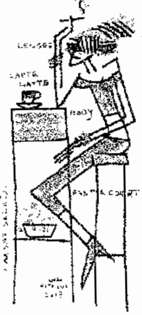
إن كل الإشارات الأمريكية للمقاهي والمطاعم تحدد مدى ارتباط تلك المساحات بالجغرافيا المتغيرة للسلطة. إن المكونات المحلية للانتماء الكوزموبوليتاني لها تاريخ طويل في القاهرة. في زمن أبعد كانت أوروبا وفرنسا تحديدا هي مقياس كل ما هو أنيق، وكانت محلات كثيرة من التي تخدم الشرائح العليا من الطبقة الوسطى تحمل أسماء فرنسية وتبيع أحدث المنتجات والأزياء الفرنسية. كانت المنشآت الراقية في ذلك الوقت مثل جروبي والأمريكيين توحي بالانتماء الكوزموبوليتاني والتميز المحلي وكانت باريس هي المقياس الذهبي لهم. أما اليوم وكما قال أحد أصحاب المقاهي «يرغب الشباب في الشرق الأوسط في الطراز الأمريكي».

لا يشير استخدام الإنجليزية في الأسماء وقوائم الطعام والتواصل الاجتماعي فقط إلى أن المقاهي تبتكر سلعا جديدة ولكن أيضا أنها تقسم. فبينما هي تخلق إحساسا بالانتماء الكوزموبوليتاني إلا أنها في نفس الوقت تزيد من ابتعادها عن الأماكن المحيطة بها وعن أغلبية القاهريين «إل.. ما عندكمش لغة» بمعنى أنهم لا يتحدثون بلغة أجنبية. في القاهرة الحديثة أصبح «امتلاك» لغة أجنبية وبالذات الإنجليزية يشكل انقساما كبيرا في صفوف الطبقات الوسطى المتعلمة. إن من درسوا في مدارس لغات ويتحدثون لغاتهم بطلاقة قد ولدوا وتربوا في عائلات «أفضل» ويستطيعون التطلع إلى العمل في الشرائح العليا من سوق العمل. ويتم إعادة إنتاج تلك الفروق على مستوى المدينة في أماكن مثل المقهى.

«كانك لست في مصر» تقول سيدة في الثلاثينيات وهي ترشح لي بحماس حانة في المهندسين وهي تزور أوروبا بشكل متكرر، فهي إذاً تعرف عما تتحدث. كان من الممكن فعلا أن تكون تلك الحانة في لندن الأنيقة أو في باريس أو نيويورك بديكوراتها القليلة والمقاعد الجلدية الزرقاء والإضاءة الخافتة وأنواع الكوكتيلات المعروضة. بينما لا يزال وجود حانة مصدرا للدهشة والفرح كونها تنتمي إلى العالم الأول في القاهرة، إلا أن العكس صار منتشرا. إن الأماكن والمتاجر الراقية التي تعرض كل الأصناف الموحية بالكوزموبوليتانية أو المجمعات التجارية الخاصة لم تعد تسبب أي تعجب أو تعليقات من شباب الشريحة العليا من الطبقة الوسطى الذين قابلتهم خلال بحثي. في خلال بضعة أعوام أصبحت تلك هي الأماكن التي تتكشف فيها حياة الشرائح العليا من الطبقة الوسطى. إن مقاهي مثل رترو وبينوز وتباسكو تشير إلى عضوية في مساحة كوزموبوليتانية تتسم بكونها محلية وقاهرية ومصرية وفي نفس الوقت جزءاً من مجال أوسع ينتمي للعالم الأول، هي أماكن لمشاريع طبقية محلية حيث تحدد دلالات كوزموبوليتانية واضحة الانتماء إلى الدوائر الأعلى من الإنتاج والاستهلاك.

أماكن جديدة، اجتماعيات جديدة

إن الاجتماعيات المختلطة وانفتاح المهنيين من الشرائح العليا من الطبقة الوسطى الذين يرتاحون للتواجد في مقاهي القاهرة تبدو غير متكلفة. إلا أن تلك الاجتماعيات المميزة - اختلاط الشباب والشابات- لا تمثل نمطا متفقا عليه. لقد شكلت ممارسات الصفوة الترفيهية بعض أوضح الإشارات التي توحي بالحداثة وبالانحلال، حسب



اعتقاد من يعلق. إن القضية الخلافية الأساسية فيما يتعلق بالممارسات الترفيهية لدى الصفوة هى طبيعتها المختلطة: اختلاط الرجال والنساء فى الأماكن العامة. لقد نجحت المقاهى فى جذب جمهور مختلط أوسع وإلى حد ما أقل خصوصية. إن تلك التجمعات تصبح مثيرة للاهتمام لو أخذنا فى الاعتبار الطبيعة الإشكالية للتجمعات المختلطة بعيدا عن رقابة العائلة والمحظورات المعتادة حول وجود السيدات وحدهن فى أماكن لهو عامة دون تبرير عملى من نوع العمل أو الدراسة.

بالمقارنة بالمقاهى فى البيئة الغربية والتى تختص بنوع محدود من النشاط ووقت محدد من اليوم فإن المقاهى القاهرية تستضيف ثقافة ترفيه شاملة شبيهة بثقافة الترفيه الليلية فى المدن الغربية. وبالنسبة للكثير من نساء الشريحة العليا من الطبقة الوسطى، فإن تلك هى الأماكن الوحيدة، التى يمكن وجود حياة اجتماعية بها خارج نطاق العائلة. فى مساء الخميس تصبح بعض المقاهى على نفس درجة زحام الحانات مساء السبت فى المدن الغربية. تلتقى «شلل» من الشباب لاستعراض آخر صيحات الملابس وتبادل الغزل الخفيف. لقد نجحت المقاهى إلى درجة كبيرة فى تقديم إحساس بالعالم الأول بين أفراد الشريحة العليا من الطبقة الوسطى بينما تتفادى أى ارتباطات مشينة بالترفيه الليلى فى المدن الغربية. إن غياب المشروبات الكحولية ووجود محددات طبقية وجنوسية متأصلة فى المعادلة الانتقالية تساعد على تحديد المقهى كمساحة محترمة ومتميزة. تعرف بأنها آمنة ومحترمة للاجتماعيات المختلطة.

وتستمر تلك التجمعات فى العادة حتى العاشرة أو الحادية عشرة ليلا وهو الوقت الذى يتوقع فيه عودة النساء غير المتزوجات إلى بيوتهن. قد قيل لى بمزاح «كلنا عندنا شبشب فى البيت» وهى عبارة شائعة تستدعى إلى الذهن صورة آباء غاضبين ينتظرون أولادهم بأحذيتهم فى أيديهم ومستعدون لضرب من تخالف موعد عودتها إلى المنزل. إن الرقابة العائلية هى سمة مهمة فى حياة نساء الشريحة العليا من الطبقة الوسطى غير المتزوجات اللائى يعشن مع عائلاتهن بلا استثناء تقريبا. إن المسئولية تجاه العائلة والمساءلة من قبلهم حول سلوكها هى أمور لا تنتهى بمجرد أن تصبح الفتاة بالغة أو تحصل على دخل مستقل. قالت لى العديد من الشابات إن مواعيد العودة إلى المنزل ليلا وضعت لتحمى سمعة العائلة أمام الجيران، وترى هذه الرقابة عامة كجزء أساسى من المسئولية العائلية فى حفظ البنت من الانحراف وبالتالى حماية سمعتها ومستقبلها.

بينما يملك الرجال بعض المساحة لاختيار الأماكن التى يقضون فيها أوقات الترفيه إلا أن هذا ليس هو الحال بالنسبة للنساء. إن حضور النساء فى الحياة العامة المهنية والترفيهية أصبح لازما بالنسبة لنمط حياة الشريحة العليا من الطبقة الوسطى، ولكنه حضور هش حدث فقط فى مساحات مغلقة تتضمن طبقة واحدة من المجتمع ويكون الاحترام والحماية هما شرطا دخول النساء هذه الأماكن. إن مسارات شابات الشريحة العليا من الطبقة الوسطى اللاتى تعرفت إليهن فى القاهرة تعتمد على خرائط طبقية. الأماكن المناسبة للنساء هى أماكن راقية. فقط فى هذه الأماكن يمكن للنساء أن يكن على «راحتهم» بما فى ذلك أن يرتدين ويختلطن اجتماعيا كما يشأن دون أن تتم مضايقتهن أو ينظر إليهن كسيئات السمعة.

إن الأسعار المرتفعة فى المقاهى والحد الأدنى للطلبات يساعدان على منع دخول من لا ينتمون إلى الطبقة «المرتاحة». إن هذا النوع من الاختيار الاجتماعى أساسى بالنسبة لمظهر المقهى. من المتوقع أن يكون كل الزبائن من مستوى ثقافى مماثل ويلتزمون بمعايير اجتماعية وأخلاقية مماثلة. لا يرغب العديد من الزبائن أن يشاهدوا فى أماكن تتردد عليها «ناس بيئة» وهو لفظ ازدرائى يطلق على من ينتمون إلى «طبقة اجتماعية أقل» بأذواقهم الرخيصة والقديمة. وعادة ما تدعم تلك المعايير الاقتصادية سياسة للدخول. ويعتبر أحد مديرى المقاهى تلك المعايير الانتقائية على أعلى درجة من الأهمية عندما قال «لدينا سياسة دخول لأننا لا نريد زبائن غير مؤهلين» وقال إنه يعنى بغير المؤهلين الشباب الذين يرتدون ملابس تبدو رخيصة أو من يغازلون الآخرين أو من مثيرى الشغب والصخب. إن الخوف المستمر من جذب من ينتمون لمستوى اجتماعى أقل لا ينبع فقط من أهمية الحفاظ على المحددات الطبقية ولكن يحركه أيضا الخوف من اعتقاد أن هؤلاء الرعاع لن يلتزموا بالقواعد الضمنية للاختلاط الاجتماعى. إن الشباب الذين يبهرهم وجود النساء قد يغازلون أو يتحرشون بالزبائن أو قد تأتى بعض النساء بهدف مصاحبة الزبائن الأثرياء. إن تلك المخاوف تعكس اعتقادات حول أماكن اللهو المختلطة الأقل نخبوية والتى يعتقد عامة أنها أسواق للعلاقات السهلة التى قد يتضمن بعضها تبادل النقود. إن الطابع الاجتماعى النخبوى للمقاهى يخلق مجتمعا مظهريا ويخلق إجماعا على عادية نخبوية غالبا ما تتكون من معايير طبقية للاختلاط الاجتماعى. إن المحددات الطبقية للمكان وزبائنه تحدد بالتالى قواعد الاختلاط الاجتماعى وتواجد نساء غير متزوجات والملابس العارية نوعا ما- مينى جيب وبودى (قميص ضيق) أو قمصان بدون أكمام- كجزء من سلوك طبقى معتاد وبالتالى محترم.

ولكن حتى ضمن نطاق المقهى فإن الاختلاط بين الرجال والنساء- وأنماط الأنثوية المصاحبة- ليست بالاعتياد أو الإجماع البادى فى أول وهلة. إن قراءة ما بين السطور فى الدردشات والأداء المعتاد فى المقاهى تساعد على ملاحظة قلق مستمر وتوتر حول مسائل الاحترام. فبينما توافق زبونات المقاهى اللاتى أعرفهن على أغلب المقاهى الراقية فإنهن يستمررن فى مراقبة تلك الأماكن لبيان أى خرق لقواعد الاحترام. فى ربيع ٢٠٠٢، كان مقهى ريترو الذى افتتح للتو حديث المدينة فى دوائر الشريحة العليا من الطبقى الوسطى التى كنت أتحرك ضمنها. فبينما خلقت المقاهى والمطاعم الأخرى جزءا من الخصوصية لتجتمع بها شلل مكونة مسبقا إلا أن التصميم الداخلى لريترو والذى تضمن طاولة طويلة ومساحة جلوس مريحة ومشتركة تسمح بالمزيد من الاختلاط العابر. قررت هالة، وهى آنسة فى نهاية العشرينيات وزبونة دائمة للمقاهى أن تتوقف عن زيارة هذا المقهى بالذات. كما قالت «هذا المكان يجذب الفتيات اللاتى يبحثن عن علاقات. انظرى كيف يتقربن من بعضهن البعض؟» إن استمرارها فى ارتياد هذا المكان سيضعها فى مواقف محرجة. فما الأمر بالنسبة لمن سيراها هناك؟ هل يظنون أنها أيضا منطلقة وسهلة. إلى هذه الدرجة وبالتالى أقل احتراما؟

تشارك هالة الكثيرات من غير المتزوجات فى هذه المخاوف حول الاحترام. إن سمعة الشابة الجنسية لها أهمية قصوى بالنسبة لمكانتها فى المجتمع وفرصها المستقبلية فى الزواج. إن هذه السمعة هى المضمون الأساسى للنميمة وللقلق الدائم. تقترب الحوارات فى المقاهى بشكل فكاهى من قضية الاحترام والعفة بالذات فى المجموعات المختلطة. إن تكرار الإشارات اللاهية إلى أمور مثل الأخلاق والقواعد المفترضة عند لقاء الأصدقاء من الرجال أو على سبيل المثال ارتداء السباحة مايوه مثير للدهشة بسبب طبيعتها العلنية المتعمدة. فهذه المواضيع تثار فى وجود أصدقاء ومعارف من الرجال لإيضاح المخاوف حول الاحترام علانية كى لا يعتقد هؤلاء الرجال أن وجود المرأة فى مجموعة مختلطة بالمساحة الترفيهية التى هى المقهى، يجعلها «متاحة» نوعا ما.

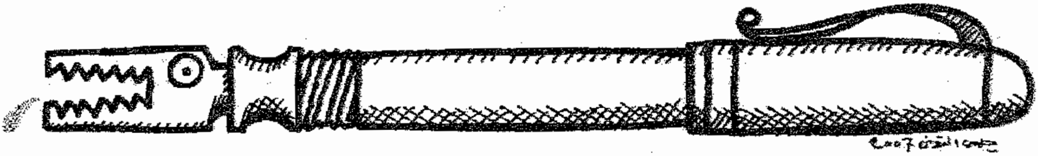
القرب والبعد

إن تكوين مجتمع محلى كوزموبوليتانى من المهنيين الشباب رواد المقاهى يعيد رسم خريطة الألفة والانتماء. إن رأس المال الكوزموبوليتانى ينال تقديرا عاليا كرأس مال ثقافى يفتح أبواب أفضل الوظائف والدوائر الاجتماعية ويؤكد أن الفرد ينتمى للرفاهية النسبية وسلاسة الحياة والأناقة الكوزموبوليتانى. إن المقاهى جزء من دائرة راقية أوسع من المنتجات والخدمات والأماكن والتى اصبحت بمثابة حقائق مكتفية ذاتيا داخل المدينة. بينما يتشكل من هم أدنى مباشرة فى المرتبة من حيث الثقافة أو القدرة المادية أكثر نقاط المقارنة وضوحا إلا أن أشخاص وأماكن القاهرة الأخرى تتحول إلى مجهول كامن وعالم خيالى خارجى. يمكن لمشاعر مثل الخوف والتجنب والقلق والتعاطف أن تكون جميعها جزءا من الموقف من هذا الآخر، وبغض النظر عن كونها إيجابية أو سلبية فإن هذه المواقف توحى بعدم تعارف ومسافة كبيرين جدا. إن أغلبية القاهريين الذين يرون قاهريا آخر «يركن» سيارته بجوار باب مطعم أنيق يبدون بعيدين جدا عن الاستمتاع بكوب الكابتشينو وهى تجربة تشترك أنت فيها، على النقيض، مع ملايين حول العالم. إن المنتجات التى تنتمى إلى الثقافة العالمية تأتى بمستلزماتها من البعد، تعيد تشكيل المساحات الأخرى جميعا وتحيلها إلى مجهول كامن وغير حقيقى. ※

الفساد.. الغش.. التجارة

وثقافة التعليم في مصر

أحمد عبد السلام سليم



يلعب التعليم بمراحله المختلفة دوراً محورياً في تكوين وتشكيل رأس المال البشري، ويعتبر رأس المال البشري بدوره من أهم عوامل النمو الاقتصادي والعنصر الحرج في عمليات الإنتاج. ولقد أوضحت الدراسات التي قام بها شولتز وبيكر في مجال الاقتصاد أن الموارد البشرية هي أحد عوامل الإنتاج الرئيسة التي تساهم بنسبة كبيرة في زيادة الإنتاجية وعلى مستوى المنظمات يلعب رأس المال البشري دوراً فعالاً في تحسين أداء المنظمات. كما يلعب دوراً مهماً في الرقي بالمجتمع وتحديد موقعه بين دول العالم.

وطبقاً لنظرية رأس المال البشري، فإن الاستثمار في العنصر البشري من قبل الأفراد والمنظمات والحكومات يعمل على زيادة الإنتاج والإنتاجية ليس فقط للعنصر البشري نفسه ولكن لبقية العناصر الإنتاجية الأخرى سواء في المنظمات أو على مستوى المجتمع ككل، ذلك أن الاستثمار في العنصر البشري يتيح مزيداً من فرص العمل أمام الأفراد، كما يسمح بزيادة حركية عنصر العمل نحو القطاعات الإنتاجية الجذابة (OEC 1996). ومن هنا تبرز أهمية التعليم في تشكيل وتكوين رأس المال البشري للنهوض بأداء المؤسسات ودعم الميزة التنافسية بها وكذلك تحسين الأداء الاقتصادي على المستوى القومي.

ورغم أن ما تنفقه الدولة على التعليم والبحث العلمي في مصر يعد هزيلاً للغاية، فقد بلغ الإنفاق على البحث العلمي في مصر ١.٧ مليار في عام ٢٠٠٤، والمفروض أن تصل إلى ٣ مليارات وهو ما يعادل ٣٪ من الدخل القومي. هذا ويعمل الأفراد والأسر في المجتمع المصري جاهدين على تعليم أولادهم والاستثمار في التعليم قدر المستطاع، إلا أن الملاحظ أن هناك ظواهر سلبية كثيرة قد أصابت قطاع التعليم بمختلف مراحله. وهو ما يقف عقبة في سبيل تحقيق التعليم للأهداف المرجوة منه في تحسين معدلات النمو الاقتصادي، وتحسين متوسط دخل الفرد والمساهمة في بناء مواطن صالح يعمل على خدمة الوطن وعلى مدار السنوات الماضية، أجريت العديد من الدراسات على الفساد في التعليم، وأجمعت تلك الدراسات على أن الفساد في التعليم يؤدي إلى ضعف في مخرجات العملية التعليمية. وقد أوضحت بعض الدراسات أن الفساد في التعليم يرتبط بظهور عدد من المؤشرات السلبية مثل تكرار رسوب الطلاب وزيادة معدل التسرب من المدارس وزيادة نسبة الأمية (Gupta. Davoedi, and Tiongson, 2002). كما أوضحت دراسة حديثة أجريت على بعض الدول مثل بلغاريا وكرواتيا ومولدوفا وصربيا أن الفساد في التعليم قد أدى إلى تخفيض جودة الخدمات التعليمية، كما أشارت الدراسة إلى أن تكلفة الفساد في التعليم العالي صاحبها تدهور في إنتاجية الجامعات، وأكدت ذات الدراسة على أن المستويات العالية من الفساد في التعليم قد أدت إلى تخفيض الآثار الاقتصادية للتعليم العالي في هذه الدول بنسبة ٥٠٪ (Heyneman, Anderson, and Nuraliyeva,2006).

مفهوم وأنواع الفساد

طبقاً لتعريف البنك الدولي، يشير الفساد بصفة عامة إلى سوء استخدام السلطة الممنوحة للموظفين العموميين لتحقيق مصالح خاصة (Mauro, 1998). ولهذا يشكل الفساد بمعناه الواسع انحرافاً على القواعد القانونية والأخلاقية وكذلك الثقافة المؤسسية السوية بصفة عامة. ويشير الفساد في مجال التعليم إلى مجموعة التصرفات أو الأفعال غير القويمة التي تقوم بها الأطراف المشاركة في العملية التعليمية بهدف تحقيق مصالحها الخاصة. وهناك نوعان من الفساد هما الفساد الكبير Grand Corruption والفساد الصغير Petty Corruption، ويعد الأخير هو الأكثر شيوعاً بين أطراف العملية التعليمية، ويظهر في بعض التعاملات اليومية والروتينية التي تتم إبان التفاعلات والمعاملات بين هذه الأطراف.

وترى دراسة قام بها البنك الدولي في روسيا (Indem Foundation, 2001) أن الفساد الصغير ينقسم إلى فساد في أوجه الحياة اليومية Everyday Life Corruption ويزداد في مجال الصحة والتعليم والإسكان والتأمينات الاجتماعية وغيرها من الخدمات، والفساد في مجال الأعمال Business Corruption ويتعلق بالتعامل مع الأجهزة الحكومية وغيرها لإنجاز وإتمام الصفقات والمعاملات مع هذه الجهات. ويضيف البعض (Amundsen,) أن الفساد ينقسم إلى فساد الحاجة Corruption of Need، وفساد الجشع Corruption of Greed ويأخذ الفساد أشكالاً عديدة ومتنوعة مثل الرشوة والمحسوبية والابتزاز والإكراه والاختلاس والتواطؤ. علاوة على المحاباة أو التمييز وما يتضمنه ذلك من تهاون في تطبيق معايير الكفاءة واستبدال المعايير الموضوعية بمعايير شخصية إذا تعلق الأمر بالأصدقاء أو الزملاء أو الأقارب (Ashour, ٢٠٠٤).

ومن منظور التنمية المجتمعية، يعد الفساد في التعليم هو الأخطر على الإطلاق مقارنة بممارسات وصنوف الفساد في قطاعات أخرى مثل الجمارك والضرائب والبوليس أو غيرها، ذلك أن معظم الفساد في مجال التعليم يقع ضمن فئة سوء السلوك المهني Professional Misconduct، وهو سلوك ينطوي على كسر وخرق للمعايير المهنية وهو ما يشكل اهتزازاً كبيراً للمنظومة المهنية والأخلاقية الحاكمة لكافة مؤسسات المجتمع الأخرى، على اعتبار أن المؤسسات التعليمية تغذي هذه المؤسسات بالخريجين الذين يعملون كقادة وموظفين وغيرها (Braxton and Bayer, ١٩٩٩).

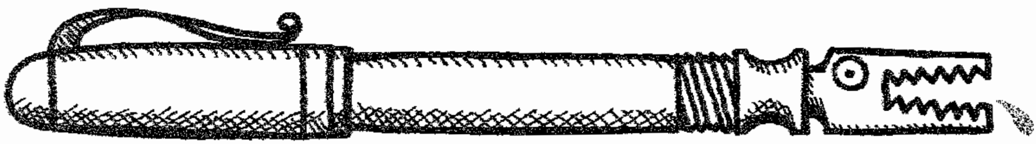
عينة الدراسة

يتمثل مجتمع الدراسة الحالية في طلاب جامعة الإسكندرية ويبلغ عدد طلاب جامعة الإسكندرية ١٥٧١٧٨ طالبا وطالبة في عام ٢٠٠٥، كما يبلغ عدد أعضاء هيئة التدريس ٣٩١٥ عضو هيئة تدريس، ويبلغ عدد المدرسين المساعدين والمعيدين ٢٤٠٢ عن نفس العام، ويبلغ عدد مفردات العينة التي شاركت في الدراسة الحالية ١٩٨ طالبا وطالبة من طلبة المجتمع النظري (الآداب والتجارة والحقوق والتربية والسياحة) البالغ عددهم ٨٣٣٤٧ طالبا وطالبة، أي بنسبة ٢.٠٢٪ من مجتمع الدراسة. وقد بلغت موازنة جامعة الإسكندرية مبلغ ٩٢٢، ١١٢، ٧٠٣ في عام ٢٠٠٥، وبقسمة رقم الموازنة على عدد طلاب الجامعة البالغ ١٧٨، ١٥٧ يتضح أن نصيب الطالب من موازنة الجامعة ٤٤٧٣ جنيها.

وهذا هو العدد الذي أبدى تعاونه وموافقته على المشاركة في الدراسة، ووحدة المعاينة في الدراسة هي الطالب وتعد هذه العينة حكمية وصغيرة الحجم ولكنها تعتبر ممثلة للطلاب المستفيدين من الخدمات التعليمية التي تقدمها الجامعات (الطلاب الذين يواظبون على المحاضرات وقاعات البحث)، وكان تركيز وحدة المعاينة بصورة أكبر على طلاب السنة الرابعة الأكثر خبرة بنظام التعليم في الجامعة.

ورقة مقدمة إلى ورشة عمل (الشفافية في قطاع التعليم في مصر) التي نظمها منتدى الإصلاح العربي في مكتبة الإسكندرية في ١٢ فبراير ٢٠٠٧

يتناول البحث الحالي عرضاً وتحليلاً لنتائج الدراسة الاستطلاعية التى استهدفت استطلاع بعض أوضاع ثقافة التعليم السائدة فى مصر من وجهة نظر متلقى الخدمات التعليمية وهم الطلاب باعتبارهم أحد أهم الأطراف المستفيدة من العملية التعليمية بغرض الإحاطة الكاملة بأبعاد الواقع الفعلى لمنظومة التعليم من خلال معلومات تمكن من تحليل أبعاد مظاهر الخلل فيها



توصيف عينة الدراسة

جدول (١) بعض خصائص عينة الدراسة

محاور التوصيف	العدد داخل العينة	النسبة المئوية
أولا: نوع التعليم فى المرحلة قبل الجامعية		
١ ـ مدارس حكومية	٩٨	٤٩,٤٪
٢ ـ مدارس خاصة (عربى)	٣٦	١٨,١٪
٣ ـ مدارس خاصة (لغات)	٣٨	١٩,٢٪
٤ ـ مدارس تجريبية	١٠	٥,٠٪
٥ ـ مدارس قومية	٧	٣,٥٪
٦ ـ مدارس أخرى	٩	٤,٥٪
ثانيا: السنة الدراسية		
١ ـ السنة الرابعة	١٣٣	٦٦,٧٪
٢ ـ السنة الثانية	٦٦	٣٣,٣٪
ثالثا: الجنس		
١ ـ ذكر	١٤٠	٧١٪
٢ ـ أنثى	٥٨	٢٩٪

يتضح من الجدول السابق رقم (١) أن ٦٣٪ من الطلاب المستقصى منهم تلقى تعليمه فى مدارس حكومية، و١٩,٢٪ من مدارس خاصة لغات، و١٨٪ من مدارس خاصة عربى؛ و٥,١٪ مدارس تجريبية، و٣,٥٪ من مدارس قومية، و٤,٥٪ من مدارس أخرى مثل المدارس الألمانية وغيرها، علاوة على ذلك فإن ٦٦,٧٪ من العينة من طلاب السنة الرابعة و٣٣,٣٪ من طلاب السنة الثانية.

استراتيجية البحث

يعتمد اختيار استراتيجية البحث على طبيعة وأهداف الدراسة، ولتحقيق أهداف الدراسة الحالية، اعتمدت الدراسة على استراتيجية المسح الميدانى لمجموعة من متلقى الخدمة التعليمية وهم الطلاب.

القياس وتجميع البيانات وتحليلها:

قام الباحث بتطوير قائمة استقصاء استناداً إلى ما ينشر ويتداول عن الممارسات والسلوكيات المرتبطة بنظام التعليم بصورته الحالية فى مصر، كما استند قياس بعض محاور الدراسة إلى الأدبيات المنشورة فى مجال الفساد فى التعليم (Heynema, Anderson, and Nuraliyeva, 2006; Ti India Center for Media Studies, 2004) وتم تجميع بيانات الدراسة باستخدام قائمة الاستقصاء التى تم تطويرها لهذا الغرض، والتى أشارت فى مقدمتها إلى أنه لن يتم التعرف على هوية أو شخص المشاركين فى الدراسة، ذلك أن تحليل البيانات سوف يتم بصورة تجميعية، أما الفترة الزمنية لتجميع هذه البيانات، فكانت نوفمبر ٢٠٠٦، واعتمدت الدراسة فى تحليل البيانات بعض أساليب الإحصاء الوصفى البسيطة مثل التوزيع التكرارى، والوسط الحسابى، والانحراف المعيارى.

عرض نتائج الدراسة الاستطلاعية

مصادر المعرفة والتحصيل التى يعتمد عليها الطلاب

يعرض هذا الجزء من الدراسة وبصورة مركزة ومختصرة لأبرز نتائج الدراسة الميدانية، حيث أوضح المسح الميدانى اعتماد طلاب جامعة الإسكندرية على عدة مصادر لتحصيل المعرفة فى مرحلة ما قبل الجامعة وفى المرحلة الجامعية.

يوضح الجدول رقم (٢) التوزيع التكرارى لمصادر المعرفة التى يعتمد عليها الطلاب.

جدول (٢) التوزيع التكرارى لمصادر المعرفة التى يعتمد عليها طلاب العينة فى الدراسة والتحصيل فى مرحلة ما قبل الجامعية وفى المرحلة الجامعية

المصادر	المرحلة قبل الجامعية		المرحلة الجامعية	
	العدد	النسبة	العدد	النسبة
١ ـ المحاضرات (قاعات الدرس/ الحصص)	٧٥	٣٧,٩٪	١٦٨	٨٤,٨٪
٢ ـ الكتاب الجامعى	٧٧	٣٨,٩٪	٧٧	٣٨,٩٪
٣ ـ الدروس الخصوصية	١٥١	٧٦,٣٪	٣٥	١٧,٧٪
٤ ـ مجموعات التقوية	٣١	١٥,٧٪	١٧	٨,٦٪
٥ ـ الملخصات الخارجية	١٠٥	٥٣٪	١٤٨	٧٤,٧٪
٦ ـ المراجع المتخصصة	٧	٣,٥٪	١٢	٦,١٪
٧ ـ مصادر أخرى	٩	٤,٥٪	٩	٤,٥٪

يتضح من الجدول أن ٨٤,٨٪ من الطلاب فى المرحلة الجامعية يعتمد على المحاضرات و٧٤,٧٪ من الطلاب يعتمد على استخدام الملخصات الخارجية المتاحة بالمكتبات خارج أسوار الجامعة، و٣٨,٩٪ من الطلاب يستخدم الكتاب الجامعى، فى حين بلغت نسبة الطلاب التى تعتمد على الدروس الخصوصية ١٧,٧٪، أما تلك التى تعتمد على مجموعات التقوية فهى ٨,٦٪، أما نسبة الطلاب التى تعتمد على المراجع المتخصصة فهى متدنية للغاية بنسبة ٦,١٪.

هذا ونود الإشارة فى هذا الصدد إلى أن هذه الدراسة أجريت على الطلاب الذين يحضرون المحاضرات فقط، ومن المعروف أن نسبة كبيرة جداً من الطلاب لا تحضر المحاضرات من الأساس وقد تصل هذه النسبة فى بعض الحالات إلى ٧٠٪ من الطلاب.

أما فى مرحلة ما قبل الجامعة فنلحظ انخفاض نسبة اعتماد الطلاب على قاعات الدرس (الحصص المدرسية)، حيث تبلغ ٣٧,٩٪، واللافت للنظر أن نفس نسبة الطلاب التى تعتمد على الكتاب المدرسى هى نفس نسبة الطلاب التى تعتمد على الكتاب الجامعى، أما نسبة الطلاب الذين يعتمدون على الدروس الخصوصية فتبلغ ٧٦,٣٪ وهى تزيد كثيراً عن نظيرتها فى الجامعة، أما نسبة الاعتماد على الملخصات الخارجية فتبلغ ٥٣٪ وهى تقل كثيراً عما يحدث فى المرحلة الجامعية.

يشكو الطلاب من كبر حجم الكتاب وكثرة المعلومات الموجودة به وربما الحشو والتكرار فى بعض الحالات

مستوى جودة الخدمة التعليمية

أوضحت نتائج الدراسة الميدانية أن متوسط جودة الخدمات التعليمية التى يحصل عليها الطلاب تبلغ ١.٦٧ بانحراف معيارى مقداره ٠.٥٧ وذلك على مقياس من ثلاث درجات حيث تشير الدرجة (١) إلى جودة منخفضة، أما الدرجة (٢) فتشير إلى درجة متوسطة، وتشير الدرجة (٣) إلى درجة عالية.

جدول (٣) الجودة المدركة للخدمات التعليمية من قبل المستفيدين

مدركات مستوى جودة الخدمة التعليمية	عدد مفردات العينة	النسبة المئوية
جودة عالية	٩	٤.٥٪
جودة متوسطة	١١٧	٥٩.١٪
جودة منخفضة	٦٨	٣٤.٣٪

يتضح من الجدول السابق أن ٥٩.١٪ من الطلاب يدرك أن مستوى جودة التعليم متوسطة فى حين أن ٣٤.٣٪ من الطلاب يدرك أن مستوى الجودة منخفض، ويدرك ٤.٥٪ من الطلاب أن مستوى جودة التعليم مرتفعة.

الفساد فى التعليم بصفة عامة

أظهرت نتائج المسح الميدانى أن درجة فساد قطاع التعليم بصفة عامة فى مصر تبلغ ٨.٢٪ بانحراف معيارى ١.٦٢ وذلك على مقياس من ١٠ درجات، حيث تشير الدرجة (١) إلى عدم وجود أى فساد على الإطلاق فى قطاع التعليم، أما الدرجة (١٠) فتشير إلى أن هناك فسادا كبيرا جداً فى قطاع التعليم.

جدول (٤) توصيف مؤشرات مدركات الفساد بين الطلاب

عدد مفردات العينة	الانحراف المعيارى	المتوسط	الحد الأدنى	الحد الأقصى
١٩٦	١.٦٢	٨.٢٥	٣	١٠

وكما يظهر هذا الجدول، فإن قطاع التعليم فى مصر حصل على ٨.٢٥ درجة من إجمالى (١٠) درجات على مقياس الفساد، وهى نسبة كبيرة جداً.

طريقة إنجاز الأعمال الإدارية

جدول (٥) طريقة إنجاز الطلاب لأعمالهم إبان التعامل مع الأجهزة الإدارية

الطريقة	المرحلة قبل الجامعية		المرحلة الجامعية	
	العدد	النسبة داخل العينة	العدد	النسبة داخل العينة
١ - الطريقة الرسمية	١٤٨	٧٤.٧٪	١٦٥	٨٣.٣٪
٢ - تقديم هدايا / دفع الرشاوى	٧	٣.٥٪	٥	٢.٥٪
استخدام النفوذ والمعارف	٣٩	١٩.٧٪	٢٦	١٣.١٪

يتضح من الجدول السابق أن الغالبية العظمى من الطلاب الذين شملهم الاستقصاء تعتمد فى المرحلة الجامعية على الطريقة الرسمية فى إنجاز أعمالها مع الأجهزة الإدارية بنسبة ٨٣.٣٪، فى حين تعتمد ١٣.١٪ على استخدام النفوذ والعلاقات الشخصية والمعارف، أما نسبة من يقدمون هدايا أو يدفعون رشاوى فهى نسبة محدودة للغاية.

أما فى المرحلة ما قبل الجامعية، فإن نسبة ٧٤.٧٪ من الطلاب يؤدون أعمالهم باستخدام الطريقة الرسمية، فى حين يستخدم ١٩.٧٪ من الطلاب النفوذ والعلاقات الشخصية فى إنجاز أعمالهم، كما أن نسبة من يقدمون هدايا أو يدفعون رشاوى محدودة للغاية وتبلغ ٣.٥٪.

المواقف التى يضطر فيها الطلاب إلى دفع (إكراميات. بقشيش. هدايا. رشاوى) لإنجاز أعمالهم:

جدول (٦) التوزيع التكرارى للمواقف التى يضطر فيها الطلاب لتقديم هدايا أو دفع رشاوى أو إكراميات لإنجاز أعمالهم

المواقف	المرحلة ما قبل الجامعية		المرحلة الجامعية	
	العدد	النسبة داخل العينة	العدد	النسبة داخل العينة
١ - شراء الامتحان	١	٠.٥٪	صفر	٠.٠٪
٢ - التلاعب فى النتائج	١	٠.٥٪	١	٠.٥٪
٣ - الغش أثناء الامتحان	٧	٣.٥٪	٦	٣٪
٤ - التعامل مع الأجهزة الإدارية	٢٦	١٣.١٪	٢١	١٠.٦٪
٥ - معرفة النتائج من الكنترول	٦١	٣٠.٨٪	٦٩	٣٤.٨٪
٦ - مواقف أخرى	٢	١٪	٤	٢٪

يتضح من الجدول السابق أن أكثر المواقف التى يدفع فيها الطلاب رشاوى أو تقدمون هدايا هى معرفة النتائج من الكنترولات، حيث تبلغ هذه النسبة ٣٠.٨٪، أما فى الجامعة فتبلغ ٣٤.٨٪، وعادة ما تكون فى شكل مبالغ بسيطة جداً ويتعارف عليها فى الثقافة المصرية (حلاوة النجاح)، ويحصل عليها العمال الذين يستخدمون نفوذهم فى الكنترولات لاستخراج النتائج مبكراً. هذا وتبلغ نسبة الطلاب الذين يدفعون رشاوى، تقديم هدايا أثناء التعامل مع الأجهزة الإدارية ١٣٪ فى المرحلة قبل الجامعية، و١٠.٦٪ فى المرحلة الجامعية، أما نسبة الطلاب الذين يدفعون رشاوى أو يقدمون هدايا من أجل الغش فى الامتحان فتبلغ ٣.٥٪ فى المرحلة ما قبل الجامعة، و٣٪ فى المرحلة الجامعية، وتشير النسب والأرقام السابقة إلى أن التعليم فى مصر مازال بخير.

الغش فى الامتحان

جدول (٧) التوزيع التكرارى لبعض مظاهر الغش فى الامتحانات

المظاهر	العدد	النسبة
١ - الشعور بتأنيب الضمير بعد الغش فى الامتحان	٩٧	٤٩٪
٢ - نية الطلاب فى الغش دون الوقوع تحت طائلة القانون	١٠٠	٥٠.٥٪
٣ - الطلاب الذين يشاهدون زملاءهم يغشون أثناء الامتحان	١٩٤	٩٨٪
٤ - الشعور بالرضا والسعادة بعد الغش فى الامتحان	٣٥	١٧.٧٪

يتضح من الجدول السابق أن ٤٩٪ من الطلاب يشعرون بتأنيب الضمير بعد الغش فى الامتحان، فى حين يشاهد ٩٨٪ من الطلاب زملاء لهم يقومون بالغش فى الامتحان، أما نية الطلاب فى القيام بالغش فى الامتحان طالما لا يقعون تحت طائلة المساءلة القانونية فتبلغ ٥٠.٥٪، ويشعر ١٧.٧٪ من الطلاب بالرضا والسعادة بعد الغش فى الامتحان.

مدى غلبة الطابع التجارى على العملية التعليمية

جدول (٨) مدركات الطلاب عن الطابع التجارى للعملية التعليمية

المواقف	المرحلة ما قبل الجامعية		المرحلة الجامعية	
	العدد	النسبة داخل العينة	العدد	النسبة داخل العينة
مدى إدراك الطلاب أن العملية التعليمية تجارية	١٦٩	٨٥.٤٪	١٤٤	٧٢.٧٪

أشارت نتائج الدراسة إلى إخفاق نظام التعليم بالجامعات فى تعليم الطلاب قيما وأخلاقيات قويمة

يتضح من الجدول السابق أن طلاب المدارس وطلاب الجامعات يدركون أن العملية التعليمية على أنها مسألة تجارية فى المقام الأول.

مدركات الطلاب لعدالة الدرجات والتقديرات التى يحصلون عليها

جدول (٩) التوزيع التكرارى لمدركات الطلاب لعدالة الدرجات والتقديرات التى يحصلون عليها

	العدد	النسبة
١ - التقديرات أو الدرجات تعكس الأداء فى الامتحان	٧٨	٣٩,٣٪
٢ - الحصول على تقدير أعلى مما يستحق	٣٠	١٥,٢٪
٣ - الحصول على تقدير أقل مما يستحق	١١٨	٥٩,٦٪

يوضح الجدول السابق أن ٣٩,٤٪ من الطلاب يحصلون على درجات وتقديرات تعكس أدائهم فى الامتحان؛ فى حين يحصل ١٥,٢٪ من الطلاب على تقديرات أعلى مما يستحق، أما نسبة الطلاب الذين يحصلون على تقديرات أقل مما يستحقون فتبلغ ٥٩,٦٪.

اغتراب العملية التعليمية

جدول (١٠) التوزيع التكرارى لمدى اغتراب ما يتعلمه الطلاب

	العدد	النسبة
الشعور بالاغتراب	١٥٦	٨٣,٣٪

يوضح الجدول السابق أن ٨٣,٣٪ من الطلاب يشعرون بالاغتراب بين ما يتعلمونه بالجامعة وما يرونه من ممارسات من حولهم

تأثير نظام التعليم على سلوكيات الطلاب

جدول (١١) التوزيع التكرارى لبعض سلوكيات الطلاب المرتبطة بنظام التعليم الحالى

المفاهيم	العدد	النسبة
١ - نظام التعليم الحالى أداة لتعليم الطلاب الخداع والتحايل على المؤسسات التعليمية	١٤٠	٧٠,٧٪
٢ - مساهمة نظام التعليم فى الحد من الفساد	٢٩	١٤,٦٪
٣ - تعليم الطلاب سلوكيات وأخلاقيات حميدة بالجامعة	٧٤	٣٧,٤٪

يوضح الجدول السابق أن ٧٠,٧٪ من الطلاب يعتبر أن نظام التعليم بصورته الحالية أداة لتعليم الطلاب الخداع والتحايل على المؤسسات التعليمية بدلاً من بث قيم النزاهة والشفافية والعدالة والموضوعية فى نفوسهم وممارساتهم. أما نسبة الطلاب الذين يعتقدون أن نظام التعليم بصورته الحالية فى مصر يساهم فى الحد من الفساد فهى ضئيلة وتبلغ ١٤,٦٪.

مدى وجود قانون فى مصر لمكافحة الفساد

جدول (١٢) التوزيع التكرارى لمدركات الطلاب لمدى وجود قانون فى مصر لمكافحة الفساد

المفاهيم	العدد	النسبة
١ - يوجد قانون	٢٩	١٤,٦٪
٢ - لا يوجد قانون	٦٧	٣٣,٨٪
٣ - لا أعلم	٩٦	٤٨,٥٪

يوضح الجدول السابق أن ١٤,٦٪ من الطلاب المشاركين فى الدراسة يعلم بوجود قانون لمكافحة الفساد فى مصر، فى حين أن ٣٣,٨٪ من الطلاب المشاركين لا يعلم بوجود قانون لمكافحة الفساد، ولا يعلم ٤٨,٥٪ من الطلاب ما إذا كان يوجد قانون فى مصر لمكافحة الفساد فى مصر أم لا، والحقيقة أنه لا يوجد الآن قانون لمكافحة الفساد فى مصر، وإن كان هناك مجموعة من التشريعات التى تجرم الإخلال بالنظام والقانون بصفة عامة. ومن المعلوم أن العبرة ليست بوجود القانون، ولكن بتطبيقه بعدالة وموضوعية.

أسباب فساد التعليم فى مصر

جدول (١٣) التوزيع التكرارى لأسباب فساد التعليم فى مصر من وجهة نظر المستفيدين من الخدمة التعليمية

المفاهيم	العدد	النسبة
١ - انخفاض أجور ومرتبات العاملين	١٥٠	٧٥,٨٪
٢ - عدم وجود روادع قوية ضد الفاسدين	١٤٦	٧٣,٧٪
٣ - الروتين والجمود والبيروقراطية	١٥٨	٧٩,٨٪
٤ - عدم الثقة فى عدالة النظام التعليمى	١٢٩	٦٥,٢٪
٥ - عادات وسلوكيات موروثة بين الناس	١٠٣	٥٢٪
٦ - عدم الجدية فى تطبيق القانون بوجه عام فى مصر	١٣٩	٧٠,٢٪
٧ - الطالب نفسه	٨٦	٤٣,٤٪
٨ - الأسرة	٥٧	٢٨,٨٪

يوضح الجدول السابق أن الجمود والروتين والبيروقراطية هى من أهم أسباب فساد التعليم فى مصر بنسبة ٧٩,٨٪، ويليها انخفاض أجور ورواتب العاملين بنسبة ٧٥,٨٪، ويأتى بعد ذلك عدم وجود روادع قوية ضد الفاسدين بنسبة ٧٣,٧٪، ثم عدم الجدية فى تطبيق القانون بنسبة ٧٠,٢٪، وعدم الثقة فى عدالة النظام التعليمى بنسبة ٦٥,٢٪، يلى ذلك العادات والسلوكيات الموروثة لدى الناس بنسبة ٥٢٪، ثم الطالب نفسه بنسبة ٤٣,٣٪، والأسرة بنسبة ٢٨,٨٪.

الطرف الأكثر استفادة من الفساد فى التعليم بالجامعة

جدول (١٤) التوزيع التكرارى للطرف الأكثر استفادة من الفساد فى التعليم بالجامعة

المفاهيم	العدد	النسبة
١ - الطالب نفسه	٣٣	١٦,٧٪
٢ - المعيدون والمدرسون المساعدون	١٠٦	٥٣,٥٪
٣ - الأساتذة	٣٥	١٧,٧٪
٤ - الدولة (ممثلة فى الحكومة)	٧٦	٣٨,٤٪
٥ - أطراف أخرى	٣٢	١٦,٢٪

يوضح الجدول السابق أن الطرف الأكثر استفادة من الفساد فى التعليم بالجامعة هم المعيدون والمدرسون المساعدون بنسبة ٥٣,٥٪؛ فى حين يرى ٣٨,٤٪ من المشاركين فى الدراسة أن الطرف الأكثر استفادة هو الدولة ممثلة فى الحكومة، بينما يرى ١٧,٧٪ من الطلاب أن الأساتذة هم الطرف الأكثر استفادة، وأخيراً يرى ١٦,٧٪ من الطلاب أن الطالب نفسه هو الطرف الأكثر استفادة من الأوضاع الحالية فى مجال التعليم.

تفسير نتائج الدراسة وأبرز مضامينها

استناداً وتأسيساً على النتائج السابقة، ينبغى أن تخضع منظومة

التعليم فى مصر لمجموعة من الإصلاحات بحيث تشمل الجوانب السلبية التى أسفرت عنها نتائج الدراسة.

١ . أشارت نتائج الدراسة إلى عزوف الطلاب عن استخدام الكتاب المدرسى والكتاب الجامعى، حيث بلغت نسبة الطلاب الذين لا يعتمدون على الكتاب فى المرحلتين ٦٨.١٪. كما أشارت الدراسة إلى اعتماد ٧٤.٧٪ من طلاب الجامعة على الملخصات الخارجية، واعتمد ٥٣.٥٪ من طلاب المرحلة ما قبل الجامعية على الملخصات الخارجية، كما أن نسبة اعتماد الطلاب على المراجع المتخصصة متدن للغاية، ولهذا ينبغى إعادة النظر فى الكتاب المدرسى والكتاب الجامعى بصورته الحالية وربما تبسيطه وإعادة هيكلته للعمل على زيادة ثقة الطلاب فى الكتاب ومحتواه، فعادة ما يشكو الطلاب من كبر حجم الكتاب وكثرة المعلومات الموجودة به وربما الحشو والتكرار فى بعض الحالات. علاوة على ذلك، ينبغى إعادة النظر فى المنظومة الكلية للتعليم بحيث تتيح أنظمة التعليم وتقدر رجوع الطلاب إلى المراجع المتخصصة وارتياد المكتبات ودراسة الموضوعات، وبالذات فى المرحلة الجامعية، ومن أكثر من زاوية أو وجهة نظر لتعميق الفهم والاستيعاب وبناء عقلية الطالب بطريقة سليمة.

هذا ويلاحظ من نتائج الدراسة انحسار نسبة الطلاب الذين يلجأون إلى الدروس الخصوصية فى المرحلة الجامعية والتى بلغت ١٧.٧٪، فى حين تبلغ هذه النسبة فى المرحلة قبل الجامعية ٧٦.٣٪، وربما يرجع السبب فى ذلك إلى الظروف المحيطة بالثانوية العامة والسباق المحموم بين الطلاب لدخول كليات بعينها. علاوة على ذلك فإن الدراسة الحالية أجريت على الطلاب الذين يحضرون المحاضرات وربما كان ذلك سبباً فى أن معظمهم لا يستخدمون الدروس الخصوصية، وغنى عن البيان كما أشارت الدراسة فى موضع سابق إلى عزوف الطلاب عن الدخول إلى المدرجات وقاعات البحث فى عدد غير قليل من الجامعات المصرية بصفة عامة.

٢ . أشارت الدراسة إلى تدنى مستوى الجودة المدركة للخدمة التعليمية التى يحصل عليها الطلاب، ولهذا ينبغى على الدولة وعلى القيادات الجامعية إعادة النظر بصورة كلية فى جودة الخدمة التعليمية، والعمل على تحسين مستوى الجودة من خلال الاهتمام بمدخلات العملية التعليمية المتمثلة فى الطالب والأستاذ والموارد المتاحة والمكتبات والأجهزة الإدارية الداعمة، وكذلك الاهتمام بالعملية التعليمية وبالذات فلسفة التعليم والتحول من التعليم السلبى الذى يعتمد على التلقى والحفظ والتذكر إلى التعليم الإيجابى الذى يعتمد على التفاعل بين الطالب والأستاذ والآليات المؤسسية الموجودة بالجامعة مثل الاتحادات الطلابية والأسر والجمعيات العلمية والمنتديات الفكرية، علاوة على تطبيق الأساليب التى تعتمد عليها الجامعات العالمية المرموقة مثل المشروعات البحثية والحالات العملية والجوانب التطبيقية، والعمل الجماعى وفرق العمل بين الطلاب وغيرها من الأساليب التى تشجع على الإبداع والابتكار والتخيل لدى الطالب. بالإضافة إلى الاهتمام بمخرجات العملية التعليمية ذاتها مثل رعاية الطلاب المتفوقين ودعمهم وتسهيل طريق استكمال دراستهم وربما تنمية مسارات تميز لرعايتهم، هذا ونود الإشارة إلى ضرورة تفعيل وتدعيم المبادرات التى ترعاها الدولة بخصوص إنشاء وحدات للجودة داخل الكليات وهيئات للجودة، وربما يكون من الأنسب التحول التدريجى نحو هيئات الجودة والاعتماد الدولية، ولا يأتى ذلك إلا من خلال فتح مزيد من الاستقلال وحرية الإدارة للوحدات الجامعية بحيث تستطيع العمل فى هذا الاتجاه وما يتطلبه من تعديل فى منظومة القوانين والتشريعات واللوائح الحاكمة لعمل الجامعة أو بالأحرى إصلاح المنظومة المؤسسية الحاكمة بالجامعة، وما تود الإشارة إليه فى هذا الإطار أنه لا ينبغى إعادة اختراع العجلة بل يتطلب الأمر ببساطة دراسة تجارب الجامعات المرموقة فى العالم والاستفادة بها، وكيف استطاعت تحسين الجودة بها من خلال الالتزام بالمواصفات العالمية المتعارف عليها فى التدريس والإدارة والتكنولوجيا والتقييم وغيرها.

٣ . أشارت نتائج الدراسة إلى أن مؤشر مدركات الفساد فى قطاع التعليم ٨.٢٥ وهو مؤشر مفزع، ويعنى أن قطاع التعليم فى مصر غارق فى بحر من الفساد، ورغم ذلك يرى الباحث أن هذا التقدير مبالغ فيه إلى حد ما، وربما يرجع السبب فى ذلك إلى حالة الإحباط السائدة بين الشباب فى المجتمع المصرى بسبب عدم توافر فرص عمل وارتفاع مستويات الأسعار والغلاء وغيرها، وربما بسبب عدم تعود الطلاب فى مصر على ثقافة الاستقصاءات والمسوحات الميدانية، مما جعل بعض من شملهم الاستقصاء يسأل عن مصير هذا الاستبيان، وهل سوف توصل نتائجه إلى القيادات العليا فى الدولة وهل سوف يؤخذ على محمل الجد، وربما دفعهم هذا إلى المبالغة فى تقدير درجة الفساد لجذب الأنظار إلى ما وصلت إليه حالة التعليم فى مصر. ومع ذلك ينبغى على الدولة وعلى القيادات العليا فى قطاع التعليم وفى الجامعات أخذ هذه الأرقام على محمل الجد، والعمل على اقتلاع الفساد من جذوره والضرب بيد من حديد على مظاهر الفساد وعلى عدم الالتزام بالمواصفات، وتفعيل قوانين ولوائح المؤسسات التعليمية سواء فى مرحلة الجامعة أو المرحلة قبل الجامعية وتطبيقها بحزم على الجميع دون استثناء حتى تسترد قوانين ولوائح المؤسسات التعليمية هيبتها فى كافة جوانب العملية التعليمية.

٤ . أشارت نتائج الدراسة إلى أن ٧٤.٧٪ و٨٣.٣٪ من الطلاب فى المرحلة ما قبل الجامعية، وفى المرحلة الجامعية على الترتيب يؤدون أعمالهم باستخدام الطرق الرسمية وهذا مؤشر إيجابى، وأن نسبة من يدفعون رشاوى أو يقدمون هدايا أو يدفعون رشاوى محدودة للغاية وهذا أيضاً مؤشر إيجابى للغاية، أما نسبة من يستخدمون نفوذهم ومعارفهم وعلاقاتهم الشخصية لإنجاز التعامل مع الأجهزة الإدارية بالجامعة فهى ١٣.٦٪ فى حين كانت ١٩.٧٪ فى المرحلة ما قبل الجامعية، وربما يشير هذا إلى أن الأنظمة الحاكمة لعمل الجامعة أكثر إحكاماً من نظيرتها السائدة فى المرحلة قبل الجامعية.

٥ . أشارت الدراسة إلى المواقف التى يضطر فيها الطلاب إلى تقديم هدايا أو دفع رشاوى لإنجاز أعمالهم، وكانت هذه المؤشرات مشجعة للغاية واتضح أن الموقف الوحيد الذى يضطر فيه الطلاب إلى دفع بقشيش هو الحصول على النتائج من الكنترول، وكما أشارت الدراسة، فإن هذا أمر طبيعى جداً فى الثقافة المصرية ويدخل فيما يسمى (حلاوة النجاح) التى تدفع للعمال الذين يأتون بالنتيجة من الكنترول وربما يمكن القضاء على هذا المظهر بسهولة مع التقدم والرقى فى استخدام أنظمة الحاسب الآلى فى الكنترولات واستخراج النتائج وإتاحتها على الإنترنت وهو ما يؤدى إلى زيادة الشفافية وتوافر المعلومات لدى الطلبة، واللافت للنظر أن هذه النتيجة والنتيجة السابقة لها مباشرة بصفة عامة إيجابية، وتشير إلى أن الفساد فى التعليم ليس كبيراً جداً كما أشار مؤشر مدركات الفساد فى النتيجة السابقة مباشرة، اللهم إلا إذا كانت هناك مؤشرات أخرى للفساد لم تتطرق إليها الدراسة الحالية.

٦ . بالنسبة للغش فى الامتحانات، فقد أشارت نتائج الدراسة ان ٥٠.٥٪ من الطلاب يبيتون النية للغش فى الامتحانات ما دام الطالب لن يقع تحت طائلة القانون، كما أن ٤٩٪ من الطلاب يشعرون بتأنيب الضمير بعد الغش فى الامتحان، كما يشعر ١٧.٧٪ بالرضا والسعادة بعد الغش، واللافت للنظر أن ٩٨٪ من مفردات العينة شاهدت زملاء لهم يقومون بالغش، وهنا علامة استفهام تتعلق بأن كل الطلبة تقريباً يتم مشاهدتهم وهم يقومون بالغش، وذلك على الرغم من أن نسبة كبيرة من مفردات العينة نفت القيام بالغش.

٧ . مدى تجارية العملية التعليمية، فقد أشارت نتائج الدراسة إلى أن الطلاب يدركون أن العملية التعليمية يغلب عليها الطابع التجارى، وهذا معناه ضرورة إعادة النظر فى العديد من الظواهر السلبية التى تجعل العملية التعليمية تبدو وكأنها تجارية بحتة علاوة على ضرورة تطبيق القوانين واللوائح بطريقة صارمة بين الأطراف القائمة على العملية التعليمية، حتى لا يضطروا إلى استخدام نفوذهم وتحقيق مكاسب ومصالح مادية من وراء العملية التعليمية، والشق المهم فى هذه النتيجة هو ضرورة تحسين الأوضاع المادية للقائمين على العملية التعليمية سواء فى المدارس أو الجامعات بما يضمن لهم حداً أدنى للمعيشة الكريمة التى تمكنهم من العطاء والتفانى فى العمل والإخلاص فيه.

٨ . بالنسبة لمدركات الطلاب لعدالة التقديرات التى يحصلون عليها، فقد أوضحت النتائج أن ٦٠.١٪ من الطلاب يعتقدون أن الدرجات التى يحصلون عليها لا تعكس الأداء فى الامتحانات، كما يرى ٥٩.٦٪ من الطلاب أنهم يحصلون على تقديرات أقل من توقعاتهم، ويرى ١٥.٢٪ من مفردات العينة أنهم يحصلون على تقديرات أعلى مما هو متوقع، ورغم أهمية هذه النتائج إلا أنها لا تحمل دلالات قوية لأن الطالب عادة ما يكون متحيزاً لنفسه وتوقعاته.

٩ . مدى اغتراب العملية التعليمية، فقد أوضحت الدراسة أن ٨٣.٣٪ من مفردات العينة يشعر بانفصام ومفارقة بين ما يتعلمونه بالجامعة وما يقرأونه فى الكتب والمواد العلمية التى تدرس إليهم، وبين ما يرونه من حولهم من ممارسات وتصرفات وأساليب شائعة فى التعامل والحياة بصفة عامة، وتدعم هذه النتيجة وجهة النظر التى تؤكد على وجود مفارقات كبيرة فى نظام التعليم بصورته الحالية.

١٠ . تأثير نظام التعليم على سلوكيات الطلاب، فقد أشارت نتائج الدراسة إلى إخفاق نظام التعليم بالجامعات فى تعليم الطلاب قيماً وأخلاقيات قويمة حيث يرى ٧٠.٧٪ من الطلاب أن نظام التعليم بصورته الحالية هو أداة لتعليم الطلاب الخداع والتحايل على المؤسسات التعليمية والقائمين عليها، وكذلك يرى ٨٥.٤٪ من الطلاب أن نظام التعليم لا يساهم فى تعليم الطلاب الحد من الفساد، كما أن نسبة الطلبة التى ترى أنها تتعلم أخلاقيات وسلوكيات قويمة من الجامعة بلغت ٣٧.٤٪ وهى نسبة ضئيلة فى مجتمع مثل المجتمع المصرى الذى يفترض فيه أنه يستمد منظومة القيم

والأخلاقيات من الدين والثقافة العربية الغنية أصلاً بالقيم والأخلاقيات النبيلة. وتلفت هذه النتائج الانتباه إلى ضرورة الاهتمام بمنظومة القيم والأخلاقيات، وربما يقتضى الأمر تدريس بعض المقررات الخاصة بأخلاقيات المهنة وأخلاقيات الموظف العام وأخلاقيات الأعمال والإدارة والقيادة الأخلاقية وغيرها على حسب تخصص الطالب.

١١ - وجود قانون لمكافحة الفساد في مصر: فقد أشارت نتائج الدراسة إلى أن ٥٠.٤٨٪ من مفردات عينة الدراسة لا تعلم إذا ما كان يوجد في مصر قانون لمكافحة الفساد، و أن ٨٣٪ أقرت بعدم وجوده، و٦٠.١٤٪ أقرت بوجوده، وتوضح هذه النتائج أن الغالبية العظمى من المستقصى منهم لا تعرف أصلاً ما إذا كان يوجد قانون لمكافحة الفساد في مصر أم لا، وهذا في حد ذاته إخفاق في نظام التعليم الذي عجز عن إمداد الطلاب حتى بمثل هذه المعلومة.

١٢ - أسباب فساد التعليم في مصر: تشير نتائج الدراسة إلى ضرورة إعادة النظر في الأنظمة البيروقراطية الحاكمة لنظام التعليم لأنها تشجع على الفساد وتشكل ستاراً يحمى الفاسدين، كما أشارت نتائج الدراسة إلى أن انخفاض الأجور والرواتب هي السبب الثاني لانتشار ممارسات الفساد في التعليم وربما للمساعدة في سد الاحتياجات الضرورية الملحة للعاملين في هذا القطاع مثله في ذلك مثل معظم قطاعات الدولة.

وأشارت نتائج الدراسة أيضاً إلى ضعف الروادع ضد الفاسدين، وكذلك عدم جدية أجهزة الدولة في تطبيق القانون، ولهذا ينبغي أن تقوم الدولة والقيادات المسئولة في قطاع التعليم بإيجاد آليات وروادع قوية وسريعة وحاسمة لكل من تسول له نفسه أن يعبث بنظام صناعة العقول في مصر، علاوة على ضرورة اتخاذ التدابير اللازمة لتطبيق القانون وتنفيذه على الجميع دون استثناء أو تمييز حتى تسترد الدولة والأنظمة القانونية الحاكمة لها هيبتها. أما السبب الخامس لانتشار الفساد في مجال التعليم من وجهة نظر الطلاب فهو عدم عدالة النظام التعليمي، ولهذا ينبغي على المسئولين وصناع القرار العمل على سيادة منظومة العدل وبالذات في نظام التعليم لما له من دور مهم في تشكيل وتكوين المنظومة الأخلاقية لأفراد المجتمع. أما السبب السادس لفساد التعليم من وجهة نظر الطلاب فهو العادات والسلوكيات الموروثة لدى الناس، وهذا جانب ثقافي في المجتمع، على سبيل المثال يشعر بعض الناس بالفخر الكبير وعلو المكانة والرفعة والمنزلة الاجتماعية إذا قاموا بكسر القوانين والحصول على أشياء لا يستحقونها أو الحصول على معلومات تمكنهم من اكتساب بعض المكاسب السريعة، أما السبب السابع فهو الطالب نفسه، فقد تلعب سلوكيات الطلاب وممارساتهم دوراً في إفساد العملية التعليمية، على سبيل المثال قد يقلد الطالب زملاءه وقد يشترون الشائعات ويمشون في الدهاليز غير القانونية أو غير المشروعة أو حتى غير الأخلاقية.

١٣ - بالنسبة للطرف الأكثر استفادة من الفساد في التعليم، فقد أشارت نتائج الدراسة إلى أن المعيدين والمدرسين المساعدين هم الطرف الأكثر استفادة من فساد التعليم بنسبة ٥٣.٥٪، يليها الحكومة بنسبة ٣٨.٤٪ يليها الأساتذة بنسبة ١٧.٧٪ والطالب نفسه بنسبة ١٦.٧٪.

واستناداً إلى هذه النتائج، ينبغي بلورة رؤية استراتيجية مستقبلية تحدد الأهداف الاستراتيجية وراء القضاء على مظاهر الفساد في التعليم، وكذلك الأطراف الرئيسية التي تساهم في الحد من الظواهر السلبية التي أسفرت عنها الدراسة. كذلك تفعيل دور بعض الأطراف الاستراتيجية المهمة ذات العلاقة بقطاع التعليم بحيث تعمل على ممارسة أدوار رقابية للحد من الظواهر السلبية في هذا القطاع الحيوي مثل الشركات والمؤسسات التي توظف خريجي التعليم، ومنظمات المجتمع المدني مثل النقابات والجمعيات الأهلية والمهنية وغيرها، والتي يمكن أن تقف بالمرصاد لممارسات المؤسسات التعليمية. كما ينبغي على الدولة وعلى الجامعات القيام بإصلاح وتطوير أنظمة الإدارة، وذلك أن التطور المؤسسي البطيء الذي تشهده الأنظمة والممارسات الحاكمة لعمل المؤسسات يعوق تقدمها وانطلاقها نحو الإصلاح ومعالجة الخلل القائم. وأيضا اتباع استراتيجيات لإصلاح التعليم والتعامل مع القضايا والإشكاليات التي أفرزتها الدراسة كما أسلفنا علاوة على ضرورة تبني استراتيجيات شاملة ومتكاملة لإصلاح المؤسسات التعليمية من منظور استراتيجي يعمل على إعادة هيكلة المؤسسات التعليمية والتخلص من الأنظمة التقليدية وتبني مبادرات مثل الجامعات الافتراضية والتعليم الإلكتروني وغيرها من الأدوات التي وفرها التقدم في مجال تكنولوجيا المعلومات والإنترنت والتي قد تؤدي إلى القضاء على العديد من المظاهر السلبية والفساد الذي أصاب منظومة التعليم في مصر.

كتاب الزاوية

قيم وتقاليد القضاء

استقلال القضاء

طبيعة القضاء أن يكون مستقلاً والأصل فيه أن يكون كذلك، وكل مساس بهذا الأصل من شأنه أن يعبث بجلال القضاء وكل تدخل في عمل القضاء من جانب أية سلطة من السلطتين التشريعية والتنفيذية يخل بميزان العدل ويقوض دعائم الحكم، فالعدل كما قيل قديمًا أساس الملك.

قيام القاضي بأداء وظيفته حرًا مستقلاً، مطمئنًا على كرسيه آمنًا على مصيره أكبر ضمانة لحماية الحقوق العامة والخاصة، أليس هو الأمين على الأرواح والأنفس والحريات؟ أو ليس من حق الناس أن يطمئنوا إلى أن كل ما هو عزيز عليهم يجد من كفالة القضاء أمنع حمى وأعز ملجأ؟ أو ليس من حق الضعيف إذا دناه ضيم أو حاق به ظلم أن يطمئن إلى أنه أمام قضاء قوى بحقه، عزيز بنفسه مهما كان خصمه قويًا بماله أو بنفوذه وسلطانه؟ فمن الحق أن يتساوى أمام قدس القضاء أصغر شخص في الدولة بأكبر حاكم فيها وأن ترعى الجميع عين العدالة.

وتستمد هذه المبادئ أصولها من طبيعة القضاء نفسه، ومن أعماق نفوس القضاة، فخير ضمانة للقاضي هي ما يستمدها من قرارة نفسه وخير حصن يلجأ إليه هو ضميره، فقبل أن تفتش عن ضمانات القاضي فتش عن الرجل تحت وسام الدولة، فلن يصنع الوسام منه قاضيًا إن لم يكن بين جنبيه نفس القاضي وعزة وكرامة القاضي لسلطانه واستقلاله.

المذكرة الإيضاحية لقانون السلطة القضائية رقم ٦٦ لسنة ١٩٤٣



رخـــــام..

مينـــا بـديـــع عـبـــد الملك

■■ في ٧ يوليو من عام ١٩٠٥م توصل عالم الآثار الألماني كارل ـ ماريا كاوفمان Kaufmann (١٨٧٢ ـ ١٩٥١) ومعه مساعده ايوالد فولز Falls إلى اكتشاف المدينة الرخامية بمنطقة مريوط غرب الإسكندرية والمعروفة باسم منطقة «بومنا» أي منطقة «القديس مينا» الذي يعد من أشهر الشهداء الأقباط في القرن الرابع الميلادي (٢٨٦ ـ ٣٠٩م).

بدأ كاوفمان رحلته الاستكشافية في عالم الآثار بزيارته إلى الصحراء الليبية والتي رافقه فيها مساعده فولز للبحث عن آثار مسيحية في منطقة «سيرين» وحضيتها بليبيا، إلا أن مصاعب سياسية واجهت البعثة مع حاكم ليبيا، مما دفع البعثات الأثرية التي جاءت إلى الشرق أن تتجه صوب منطقة مريوط.

معالم على الطريق

إلى المدينة الرخامية

كان أهم ما استرشد به كاوفمان وفولز، الطريق الذي سلكه البابا بنيامين الأول البطريرك ٣٨ (٦٢٣ ـ ٦٦٢م) إلى برية شيهيت، وأيضاً وصف الرحالة البكري ـ أحد الجغرافيين العرب ـ الذي زار المنطقة وشاهد بقايا المدينة القديمة عام ١٠٨٦م وكان «كاترمير» Quatremere قد قام بترجمته إلى الفرنسية ـ كذلك اعتمد على مخطوط محفوظ بالمكتبة الوطنية بباريس ويعود تاريخه إلى القرن الحادي عشر الميلادي.

لم يكن وصول كاوفمان إلى المدينة صعباً لدرجة ما، إذ إن الذين سبقوه في تلك المحاولة قد ألقوا ضوءاً واضحاً عليها، خاصة ما قام به الرحالة كارفر Carver.

فأول رحالة ذكره التاريخ على أنه زار كرم «بومنا» أو «أبو مينا» هو باخو Pacho وكان ذلك عام ١٨٢٤م حين مر صدفة بالمنطقة وهو في طريقه من أبو صير إلى قصر القطاجي Qatagi، جاء بعد ذلك الرحالة يونكرز Junkers.

في عام ١٩٠٤ نشر الأدميرال «بلومفيلد» Blomfield مقالا بعنوان (مار مينا الإسكندري) بمجلة جمعية آثار الإسكندرية تحدث فيها عن أواني القديس مينا الفخارية التي صنعت في مدينة أبو مينا، ثم حدد أيضاً مكان كنيسة مار مينا الكبرى على أنها تقع في أقصى الجنوب، ثم طلب من جمعية آثار الإسكندرية (التي تأسست عام ١٨٩٣م) أن تقوم بالبحث عنها.

نظم أيضاً العالم الإيطالي د. بريشيا Breccia رحلة في عام ١٩٠٤ لاستكشاف الصحراء الغربية بحثاً عن مدينة أبو مينا، وظل يجول هناك حتى تقابل مع البعثة الألمانية بقيادة كاوفمان، فكتب بريشيا يقول: (... واضطررنا للانسحاب بكل تواضع أمام البعثة التي كان يقودها الأسقف كاوفمان الذي جاء إلى مصر بغية الوصول إلى نفس الهدف، إذ إنه كان لدى هذه البعثة الكثير من الإمكانيات المادية والاستعدادات الطبية مما لم يكن في استطاعتي الحصول على مثله).

رغم كل المحاولات السابقة للوصول إلى هذه المنطقة والاستعدادات الضخمة التي كانت لبعثة كاوفمان ـ كما ذكر د. بريشيا ـ فإن البعثة واجهت صعوبات جمة في عملها حتى سقط كاوفمان مريضاً، وفكر مع أعضاء البعثة الألمانية في العودة إلى بلادهم بعد أن تملك منهم اليأس!!

بداية الكشف عن المنطقة

في تلك الأثناء حضر أحد الصبية البدو ومعه آنية كاملة من أواني القديس مينا ـ ذات الشهرة العالمية ـ وقدمها إلى «فولز» مساعد كاوفمان وأخبره أنه وجدها في أحد أفران الفخار القديمة بالقرب من المكان الذي ينقبون فيه، وأخيراً أرشدهم أحد البدو إلى مكان يدعونه «قلعة الخليفة»، وهو كوم من الحجارة المتراكمة، وفي الحقيقة لم تكن قلعة الخليفة هذه بعد البحث والتنقيب سوى مكان كنيسة البابا ثاوفيلس الأثرية. كان هذا اليوم ـ ٧ يوليو ١٩٠٥ ـ بمثابة أسعد أيام حياة كاوفمان.

أما تفاصيل هذا الحدث فيسجله كاوفمان بنفسه في كتابه النفيس عن مدينة مينا بمريوط فيقول:

بعد مسيرة ٣٠ يوماً على ظهر الإبل في دروب الصحراء الليبية وصلت البعثة الاستكشافية من وادي النطرون مخترقة صحراء أولاد علي، إلى مجمع آثار «أبو مينا»، عادوا بعدها إلى المعسكر وهم مجهدون، خائرو الهمة، معتقدون أنهم فشلوا في بلوغ هدفهم. وأقاموا مدة يومين في خيام يرفرف عليها العلمان المصري والألماني والتي وضعتها الحكومة المصرية تحت تصرفهم، وودعوا الدليل البدوي بعد أن أمضوا عامين تحت شمس ليبيا المحرقة على أمل العثور على المدينة الأثرية.

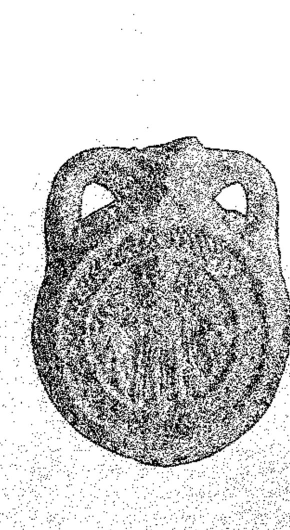
قابلت البعثة العديد من الأطلال التي لم تمسسها يد قط في كرم «أبو مينا». وعندما سقط كاوفمان مريضاً في معسكر أبو مينا أهداه أحد أفراد قبيلة «أبو علي» شقفات (أوستراكات) عثر عليها أثناء تجواله لأول مرة في منطقة الأثار، فاعتقد كاوفمان أن هذا يؤدي إلى احتمال اكتشاف آثار أبو مينا.. وقد تعزز هذا الاحتمال عندما أهداه صبي بدوي قنينة (قارورة) عليها كتابات يونانية ثم قاده إلى المكان الذي عثر عليها فيه (وكان عبارة عن بقايا فرن لعمل الفخار). وهنا كان اكتشاف المنطقة الأثرية.

كانت ضخامة المدينة التي عثروا عليها قد فاقت كل توقعاتهم، وقد جاءت فرحتهم بالاكتشاف عقب الحالة السيئة التي كانوا عليها، وعلى الفور أسرعوا بقدر الإمكان بعمل الرسومات الكروكية للمنطقة والتقاط بعض الصور الفوتوغرافية والتي بلغت في الكتاب الذي وضعه كاوفمان عدد ١٠٢ صورة بالإضافة إلى ٦٨ رسماً كروكياً وهندسياً وبعض الصور التاريخية الأخرى.

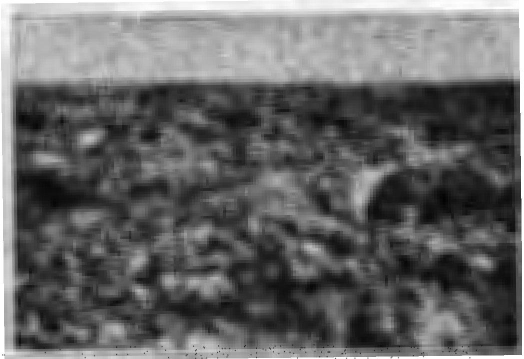
المباني الدينية بالمدينة المقدسة

سجل بعد ذلك كاوفمان وصفا دقيقاً لما كانت عليه المباني الدينية في تلك المدينة المقدسة، فيقول:

عند بدء التنقيب المنظم في أواخر نوفمبر ١٩٠٥ أثارت انتباهنا ثلاث نقاط. أولاها منخفض على شكل حوض شبه دائري يبلغ أصغر أقطاره أربعين متراً في اتجاه الشمال بالقرب من مركز الأطلال. وهو حوض ماء يرتبط بالحمام المقدس لمدينة مينا وذلك لسد حاجة الزوار والرهبان من الماء. وفي موقع ثان بالقرب منه وجدت قمينة للفخار أعطت البعثة الاستكشافية احتمال إعادة اكتشاف مدينة مينا المطمورة، وهنا ظهرت للعيان بالقرب من المبنى الضخم المكتشف سلسلة من القماائن وقنوات لتوصيل المياه وصهريج رائع. فكانت حصيلتنا من فخاريات القديس مينا وفيرة. ثم جاء الحدث الثالث والذي أكد اكتشاف المدينة المقدسة وهو وجود تراكم دائري من الأحجار غير منتظم يحتل مركز المدينة. وقد تطلب الأمر أولاً تدريب العمال على مهمتهم الشاقة فلم تبدأ أعمال التنقيب إلا في نهاية ديسمبر، وبعد أن أزلنا طبقة عظيمة من الركام بدأنا في عمل حفر تجريبية بدءاً من الشرقية الرئيسية ثم طولاً من الشرق إلى الغرب وعرضاً من الجنوب إلى الشمال، وظهرت فوراً أجزاء معمارية.



Die Menasstadt und das Nationalheiligtum der Altchristlichen Aegypter in der Westalexandrinischen.
(مدينة مينا ومقدسات المصريين المسيحيين القدامى في الصحراء الغربية للإسكندرية)
كارل ـ ماريا كاوفمان
ترجمة: يوسف زكي بطرس
كلية الهندسة ـ جامعة الإسكندرية



وقواعد أعمدة، وشقافات منقوشة وبعدها بعض تيجان الأعمدة الجميلة مزينة بالصلبان وباسم السيد المسيح، مما لا يدع مجالاً للشك أن الكاتدرائية العظيمة كانت في هذا المكان الذي يرقد فيه جسد القديس مينا. وأظهرت الحفائر التالية أنها كانت التوسعات التي أقامها الإمبراطور أرديوس Arcadius وأن المقصورة الشهيرة تقع إلى الغرب مباشرة تحت الكاتدرائية القديمة. وفي عمق كومة ارتفاعها من مترين إلى ثلاثة أمتار وجدت شقافات من الموزايكو، وزجاجات المصابيح، وأباريق مينا الصغيرة وعملات من القرن الخامس الميلادي.

اكتشاف قبر القديس مينا

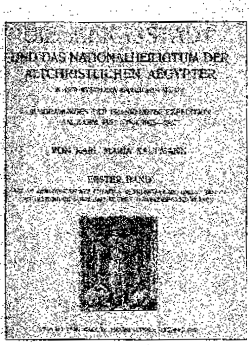
يعتبر اكتشاف قبر القديس مينا من أكثر مراحل التنقيب إثارة، ففي بداية شهر يناير ١٩٠٦ وبينما كان العمال يقومون بإزالة أكوام الأحجار في مبنى أركاديوس اصطدموا على بعد ٥٠ متراً من نهاية أحد خطوط الحفر بالدرجة العليا لأحد السلالم. ووجدت بالقرب منها مباشرة بقايا عمودين يحددان المدخل. وبالرغم من زوال كساء الدرجة العليا، إلا أن الدرجات أسفلها احتفظت بألواحها المرمرية في حالة جيدة كما احتفظت الجدران بطبقة سميكة من المصيص. وفي نفس وقت اكتشاف هذا الدرج وأثناء تخليصه من التراكمات أبلغنا البدو عن وجود بئر في الجوار مباشرة أمكننا من خلاله مشاهدة كل ما في العمق. فرأينا قبة تغطي نفقاً أو قاعة ممتلئة عن آخرها بالأحجار والأتربة. وتتكون القبة من قوالب طينية تربطها ببعضها البعض طبقة سميكة من الملاط (المونة). وفي أحد الأماكن طوق من الأحجار من الواضح أنه يناظر الحوائط الموجودة فوق سطح الأرض.

رويداً رويداً انفرج أمامنا الرواق الجميل، الذي أعجب به كل من زار مدينة أبو مينا. وبدأ الأمل يراودنا بأننا بالقرب من قبر القديس مينا. وجمال ورونق تجهيزات الدهليز وقطع المرمر التي عثرنا عليها تشير إلى أننا نسير تجاه قبر القديس مينا نفسه. وطوال تقدمنا بحماس في هذا الدهليز كنا نفحص الجدران باحثين عن أي نقوش حتى وصلنا إلى منتصفه فقابلنا نقش على الحائط الأيمن عبارة عن صلاة من العصر القبطي والعربي موجهة إلى القديس مينا.

وقد وصف الرحالة العربي «البكري» القبر بأنه «القبر الرخامي الأكبر» لما كان يكسو جدرانه بألواح الرخام وأرضيته بالصفائح المعدنية. فقد كان يبلغ ارتفاع الحائط الغربي ٢,٥ متر وهو مغطى برقائق من الحجر الجيري مكسوة بالملاط وفي وسط الحائط يرتفع إطار كبير تبلغ أبعاده ١,٨×١,٨ متر للوح من المرمر تتوسطه أيقونة للقديس مينا بين جملين. وتعد هذه الأيقونة النموذج الفريد لصورة القديس والتي نقشت على القوارير في العصر المسيحي الأول. وقد وجدت لهذه الأيقونة نسخ أخرى بمنطقة الدخيلة إحداها موجودة حالياً بالمتحف اليوناني الروماني بالإسكندرية وأخرى بالمتحف القبطي بالقاهرة والتي يظهر فيها القديس مينا بدون زيه العسكري وسط الجملين، كما وجد لها مثيل آخر منقوش على العاج في إطار فاخر بمتحف الآثار القيمة بمدينة ميلانو بإيطاليا.

في النصف الأخير من القرن الرابع الميلادي أقيمت كنيسة القبر وفيه تنفتح مغارة القبر إلى أعلى على شكل نصف دائرة بحيث تحتفظ الأعمدة القديمة بمكانها.

وكتوسعة لكنيسة القبر أقيمت كنيسة أركاديوس حتى تستوعب الأعداد الغفيرة من الزوار وكانت تحمل اسم «السيدة العذراء» ويبلغ طولها حوالي ٦٠ متراً. وهذا البناء الضخم يرتفع على ٥٦ عموداً من المرمر كما طعمت جميع أجزائها وحوائطها بأنقى أنواع الرخام المستورد



من الجزر اليونانية، ويتجه بابها الرئيسي نحو الجنوب.

في عام ١٩٠٧ اكتشفت البعثة الأثرية الألمانية الحمامات وكنيستها كما عثروا على الحمام الضخم الذي كان يجاور الكنيسة، كما عثرت البعثة أيضاً على آبار كثيرة متفرقة، ووجدت هناك عدة منازل وحوانيت، مما جسد صورة المنطقة الرخامية كمدينة كاملة متسعة.

المجهودات المتتالية للكشف عن المدينة

توالت بعد ذلك المجهودات التي قام بها المتحف اليوناني الروماني بالإسكندرية (١٩٢٥ - ١٩٢٩م) والعالمان الألمانيان دايتمان وجيركان (١٩٣٦م)، والعالم البريطاني بركنر (١٩٤٢م) الذي أعاد دراسة كنيسة مار مينا الكبرى على أسس دقيقة معتمداً على ما جاء بالمدينة القديمة التي كانت للقديس وقد نشرها جيمس دريشر عام ١٩٤٦ ثم أعمال المتحف القبطي (١٩٥١ - ١٩٥٢م)، ومنذ عام ١٩٦١ يقوم المعهد الألماني للآثار بالقاهرة بأعمال التنقيب في منطقة أبو مينا بصفة منتظمة برئاسة د. بيتر جروسمان.

إلا أنه في عام ١٩٤٢ عثرا عن راهب يحمل اسم القمص مينا البراموسي المتوحد (صار فيما بعد البابا كيرلس السادس (البطريرك ١١٦) عام ١٩٥٩ وتوفي في ٩ مارس ١٩٧١) يترك مكان توحده في طاحونة هواء بمنطقة مصر القديمة وينزل إلى الإسكندرية ويتوجه إلى المتحف اليوناني الروماني بها لمقابلة مفتش الآثار الأستاذ بانوب حبشي ويعرض عليه فكرة أن يقيم بصفة دائمة بالمنطقة الأثرية ويقيم بها الشعائر الدينية إحياء لتاريخ هذه البقعة المقدسة. وفعلاً تكللت مجهودات الأستاذ بانوب حبشي بالنجاح، إذ وافقت هيئة الآثار المصرية على ترميم الكنيسة الأثرية بمنطقة القديس مينا بمريوط.

وفي ١٠ مايو ١٩٥٩ عندما تم اختيار هذا الراهب المتوحد ليكون بطريركاً للكنيسة القبطية باسم البابا كيرلس السادس استهل فترة بطريركيته هذه بزيارة المنطقة الأثرية بمريوط في يوم الجمعة ٢٢ يوليو ١٩٥٩ وأقام الشعائر الدينية بها. وفي يوم الجمعة ٢٧ نوفمبر ١٩٥٩ وضع حجر أساس الدير الحديث للقديس مينا بمريوط ثم في عام ١٩٦١ وضع حجر أساس كاتدرائية ضخمة بالدير الحديث، ثم استكمل هذا العمل بحماس شديد خليفته البابا شنودة الثالث البطريرك ١١٧ حتى تم افتتاح هذه الكاتدرائية يوم ٩ يناير ٢٠٠٥م باحتفال مهيب.

ولكن هذا الكشف المسيحي العام، الذي أدرجته اليونسكو عام ١٩٧٩ ضمن قائمة التراث العالمي، تهدده حالياً مياه الصرف الزراعي التي حولت المنطقة الأثرية إلى بركة من المياه، مما حدا بدكتور جروسمان إلى القيام بردم هذه الاكتشافات الأثرية حتى يتم سحب هذه المياه وإعادة المنطقة إلى ما كانت عليه من جفاف.

إنه بالحقيقة أثر مهم من آثارنا المصرية نعتز به ونحافظ عليه، إذ إنه مركز جذب الكثيرين من الأجانب الذين يدركون القيمة التاريخية والروحية لتلك المدينة المقدسة.. المدينة الرخامية. ■



قناة جونجلى .. حقائق ومؤامرات

■■ هذا مشروع يستحق أن يكون على رأس الأولويات وأن تبذل من أجله مصر والسودان الغالى والثمين حتى يتحقق ويكتمل.

انه مشروع قناة جونجلى الذى يمكن أن يكون قاطرة للتنمية فى جنوب السودان وأن يفتح مجالات عمل للنازحين العائدين إلى الجنوب بعد إتمام اتفاقية السلام لجنوب السودان. كما أنه شديد الفائدة لمصر على كل المستويات سواء من حيث خلق فرص عمل للمصريين أو استفادتها من نتاج المشروع، ثم تأكيد دورها فى دعم السودان الشقيق.

إن جنوب ولاية الينوى ولاية انديانا وجزءا من ولاية أوهايو كانت مستنقعات مليئة بنبات «الكات ديل» Cat Tail، وهى أعشاب طويلة تنتشر فيها الضفادع وجحافل الناموس.

وقد تم تجفيف ٩ (تسعة) ملايين فدان بحلول عام ١٩٠٠ بالولايات الثلاث. ونقول للذين يتباكون على البيئة هل تجفيف المستنقعات من أجل التنمية حلال فى أمريكا حرام على السودان؟

المعروف أن بأمريكا اليوم أكثر من ٤٥٠ مليون فدان للإنتاج الزراعى كانت أغلبها مستنقعات فى الماضى.

وقد صرح سيلفاكير نائب رئيس الجمهورية السودانى ورئيس حكومة جنوب السودان فى زيارته مؤخرا للقاهرة بأنه لا مانع من استئناف العمل فى المشروع وأن الأمر يحتاج إلى دراسات إضافية، قائلا: إن المسألة فنية وليست سياسية.

وفيما يلى تقريران مهمان عن المشروع وتطوراته وأهميته ثم تعليقان عليهما:

التقرير الأول وهو صادر عن African Unification Front "AUF" بعنوان «حوض النيل» ويقدم بحثا وافيا عن هذا الموضوع نورد أجزاء منه كما يلى:

حوض النيل: يبلغ طول نهر النيل ٦٨٠٠ كم (ستة آلاف وثمانمائة كيلو متر) يتم تغذيته من مصدرين:

أولا: النيل الأبيض: مصادره من بحيرات الهضبة الاستوائية (بوروندى، رواندا، تنزانيا، كينيا، الكنغو ويوغندا).

ثانيا: النيل الأزرق: مصادره من الهضبة الأثيوبية.

تقع المصادر فى المناطق الرطبة حيث متوسط هطول الأمطار أكثر من ١٠٠٠ ملم فى العام.

المناطق الجافة: تبدأ فى السودان وهو أكبر قطر فى أفريقيا (مليون ميل مربع). يمكننا تقسيم المناخ فيه إلى ثلاث مناطق:

(١) أقاصى الجنوب حيث تتراوح كميات الأمطار فيه بين ١٢٠٠ - ١٥٠٠ ملم فى العام.

(٢) الأراضى الخصبة فى أواسط السودان بمتوسط ٤٠٠ - ٨٠٠ ملم فى العام.

(٣) الصحراء الشمالية حيث تنخفض النسبة إلى ٢٠ ملم فى العام، ثم تنخفض إلى أقل من ٢٠ ملم كلما اتجهنا شمالا نحو مصر.

إن حوض النيل يمثل ١٠.٣ فى المائة من جملة مساحة أفريقيا ويمتد إلى ١٣ قطرا. دولة الكنغو تمثل جزءا بسيطا من الحوض ولكن بوروندى، رواندا، أوغندا، السودان ومصر داخله بالكامل فى الحوض.

بحيرة فيكتوريا - أوغندا

إن مستوى بحيرة فكتوريا يتأثر بشدة بالنسبة للتغيرات التى تحدث فى مستوى هطول الأمطار فى منطقة البحيرة وفروع الأنهر حولها كما يتأثر المستوى أيضا بنسبة التبخر التى تكاد تكون متساوية تماما مع متوسط هطول الأمطار فى السنوات العادية.

المخرج من بحيرة فيكتوريا:

إن المخرج الوحيد للبحيرة هو عند شلالات ريبون Ripon Falls «أو خزان شلالات أوين Owen Falls فى يوغندا، ثم يبدأ نيل فيكتوريا «Victoria Nile»، الذى يصب عن طريق بحيرة كيوقا فى بحيرة البرت Albert التى تسمى أيضا بحيرة لوتا انزقى Lutta Nzige. تتلقى هذه البحيرة أيضا مياها من نهر سمليكى الذى يأتى من جبال «موفو مبيرى» فى الكونغو ثم ينساب عن طريق بحيرة إدوارد Edward إلى بحيرة لوتا انزقى Albert. تتجمع المياه فى نهرى السمليكى ونيل فيكتوريا وتترك بحيرة البرت فى الجزء الشمالى حيث تصبح بعد ذلك نيل البرت Albert Nile، الذى يواصل انسيابه نحو السودان.

مشروع قناة جونجلى

كان من المتوقع أن تنتهى المرحلة الأولى لهذا المشروع مع بداية عام ٢٠٠٠ لتضيف ٢-٣ مليارات من المياه فى العام لكل من السودان ومصر، ولكن تعثر المشروع نتيجة لنشاط التمرد فى الجنوب بين الجيش الشعبى لتحرير السودان Sudan Peoples Libertation Army aSPLA وحكومة الجبهة الإسلامية Sudan Islamic Front SIF.

يصبح نيل البرت عند دخوله السودان «بحر الجبل» الذى يصب فى منطقة السدود The Sudd Region منطقة المستنقعات الواسعة من قنوات، بحيرات وسدود التى تصب فيها أيضا مياه من بحر الزراف، (بحر الغزال) الذى يأتى من جنوب غرب السودان.

إن أقل من نصف كمية المياه التى تدخل منطقة السدود سنويا تصب فى النيل الأبيض بينما تضيع ما تبقى بين تبخر أو تسرب داخل الأرض.

قناة جونجلى حسب تصميمها المفروض أن تتفادى منطقة السدود، وتحمل جزءا من المياه الضائعة نحو مجرى النيل الأبيض. يبلغ طولها ٣٦٠ كم من مدينة بور إلى مدينة ملكال، القناة سوف تتحكم فى انسياب المياه فى النيل الأبيض بكفاءة عالية تزيد نسبة العائد ٥-٧ فى المائة داخل السودان ودلتا مصر تؤمن استخدامها فى مشاريع الرى فى البلدين.

بالإضافة إلى ذلك سوف تؤمن القناة للجنوب أراضى شائعة يمكن استخدامها للمراعى، المواصلات والزراعة (أكثر من ٢٠٠ ألف فدان) ومن المؤكد سوف تساعد فى اختفاء أماكن توالد الناموس وديدان الكبد والذبابة التى تصيب الماشية والفيروسات.

فى عام ١٩٨٠ تمت عمليات بالتنسيق بين صندوق النقد الدولى IMF، البنك الدولى World Bank ودوائر من لندن London Circles لإنهاء المشروع، تم الإيعاز للمؤسسات الأهلية فى الجنوب بالتظاهر وإطلاق الشائعات بأن القناة مشروع مصرى/ سودانى شمالى يلحق الضرر بالبيئة ويحرم السكان من مصادر صيد الأسماك وأراضى الرعى... إلخ وجندت المؤامرات الدقيقة ضد السودان.

فى عام ١٩٩٤ أعلن الرئيس عمر البشير رغبته فى السير قدما لتنفيذ المشروع لخدمة التنمية فى المنطقة.

تعليق:

استمرت الهجمات ضد المشروع وتأليب القوى الأجنبية والمهتمين بحماية البيئة ضده وصور على أنه سوف يؤثر على البيئة بشكل سلبى وسوف يؤثر على الأحياء المائية والطيور المهاجرة... إلخ مع إغفال تام لأى ميزات سوف يحققها المشروع للمنطقة.

التقرير الثانى: The Jonglei Canal وكتبه مارسيا مرى بيكر

فى منطقة السدود والمستنقعات العظيمة حيث تتجمع مياه أعالى النيل الأبيض فى ولاية جونجلى، تقف قناة صناعية من صنع الإنسان يبلغ طولها مائة وثمانين كيلو مترا - ١٨٠ كم، فى الجزء الشمالى للقناة

سوف تؤمن القناة للجنوب أراضى شائعة يمكن استخدامها للمراعى، المواصلات والزراعة (أكثر من ٢٠٠ ألف فدان) وستساعد فى اختفاء أماكن توالد الناموس وديدان الكبد

---

(١) African Unification Front "AUF" Article On Nile Busin & Jonglei Canal" Dated 13 March 2005.
بحوث جبهة توحيد أفريقيا تقرير بتاريخ ١٣ مارس ٢٠٠٥ - بعنوان حوض النيل Nile Busin.

(٢) Jonglei Canal Project مشروع قناة جونجلى Shiller Institute Washington D.C By Marcia Mary Bekar "
عرض معلوماتى نشرة التنفيذيين - ٩ يونيو ١٩٩٥
إعداد: مارسيا ميرى بيكر، معهد شيلر، واشنطن دى سى

حصل المترجم المعلق على إذن الترجمة

عز الدين محمود

جونجلي THE JONGLEI CANAL، هذه القناة عند اكتمالها المفروض أن تحول جزءا من المياه التي تصب حاليا في مناطق السدود وتحولها رأسا ولمسافة ثلاثمائة وستين كيلو مترا، من الجنوب إلى الشمال، من بور إلى ملكال. وتتحقق بذلك منافع بيئية واقتصادية للمنطقة ذاتها بالإضافة للأراضي الواقعة من منبعه إلى مصبه.

في عام ١٩٩٤م أعلن عمر البشير رئيس جمهورية السودان إلتزام حكومته السعي لإتمام المشروع.

بدأت عمليات الحفر في عام ١٩٧٨ م بعد أن وقعت حكومة السودان اتفاقية (تم تعديلها عام ١٩٨٠م): مع «شركة الإنشاءات العالمية الفرنسية» (CCI) وقد تم جلب ماكينة الحفر العملاقة المشهورة المعروفة باسم «ROUE-PELLE» أو «عجلة الغرافات» للسودان من باكستان حيث أكملت حفر قناة «تازما جهليم» بطول مائة وواحد كيلو متر- كقناة تربط بين نهري الأنديز - وجهليم.

لقد تم بناء هذا الحفار الجبار للمشروع الباكستاني من قبل الشركة الألمانية ومقرها لوبيك LUBECK واسمها- ORENSTEIN UND-KOPPIL TAGEBAU SCHIFTS TECHNIK، وقد استعانت في تصميمها بنموذج حفار يعمل في مناجم الفحم المفتوحة بالقرب من مدينة كولون.

وبفضل المبادرة المقدمة لمهندس الري السوداني يحيى عبد المجيد، هذا الحفار الذي بدأ العمل في باكستان عام ١٩٦٨م تمت صيانته وجهز للعمل وشحن إلى السودان. إنه أكبر حفار في العالم يزن ٢.١٠٠ طن يتكون من ١٢ مغرافا ضخما سعة ٣ أمتار مكعبة لكل مغراف: مثبتة على عجل ضخم قطره ١٢,٥ متر، تحفر التربة ثم تلقى بحمولتها على سير دائري يرمي هذه الحمولة على جانبي القناة، الحفار يملك محركاته الخاصة به. في عام ١٩٨١ عندما كان يعمل بطاقته الكاملة كان يحفر ٢ كيلو متر في الأسبوع بمعدل حفر ٢٥٠٠ - ٣٥٠٠ متر مكعب في الساعة. كانت هنالك ٣ ورديات كل وردية ٨ ساعات قوامها ٢٥ عاملا للوردية الواحدة من جنسيات مختلفة، أتوا من باكستان، فرنسا والسودان. هذه الآلة العظيمة تستهلك وتحتاج إلى أربعين ألف لتر من الجازولين كل أربع وعشرين ساعة.

في عام ١٩٨٤ أوقف العمل في مشروع حفر القناة ويرقد هذا الحفار معطوبا بعد أن اعتدت عليه قوى التمرد المناهضة والمعارضة لأي مبادرات لمشاريع التنمية في أفريقيا، ولمثل هذا المشروع وغيره من المبادرات.

صمم المشروع ليحول ٢٥ مليون متر مكعب من المياه التي تنساب من الجنوب من مياه النيل الأبيض شمال مدينة بور لتصب في قناة طولها ٣٦٠ كم لتورد عند ملكال ٤.٧ مليار متر مكعب في العام، هذا يعني إضافة ٣.٨مليار متر مكعب سنويا لمناطق النيل التحتية عندما تحسب عند خزان أسوان (بعد خصم الكميات المهدرة أثناء العبور).

تنص اتفاقية المشروع على أن تقتسم الكميات الإضافية هذه بين السودان ومصر بنسبة ٥٠ في المائة لكل منهما (المترجم: وتقتسم التكاليف بنفس النسبة).

إن سحب ٢٥ مليون متر مكعب يوميا من المياه المغذية للسدود سوف يترتب عليه خفض مساحة المستنقعات بنسبة ٣٦٪ (ستة وثلاثين في المائة) من المعدل السنوي لها المقدر بـ ١٦.٩٠٠ كيلو متر مربع (٨٠-١٩٠٥) إلى ١٠.٨٠٠ كيلو متر مربع. سرعة انسياب المياه بنسبة ٣.٥ كيلو متر في الساعة سوف تمنع نمو الأعشاب حسب التصميم المعتمد.

صمم القنال لتتفاوت مواصفاته على أن يكون عرضه ما بين ٢٨ - ٥٠ مترا وعمقه يتراوح ما بين ٤ - ٧ أمتار حتى يكون صالح لحركة الملاحة، ومن المقرر أن يتم بناء طريق بري محاذ للقناة صالح للاستعمال طيلة فصول السنة ومشاريع ذات الصلة من جسور ومعديات وأعمال مدنية للعبور واللوائح التي تحقق انسياب الأعمال وتخدم مشاريع البنية التحتية.

المقترحات والبحوث التي قدمت لمشروع قناة جونجلي تمتد إلى أجيال كاملة مثلها مثل مشاريع عديدة لمنطقة السدود وحوض النيل، وكان المهندسون الأجانب تحت الحكم البريطاني متحمسين جداً لتلك المشاريع ويدافعون عنها كمشاريع ضرورية لتحسين المشاريع القائمة ولكن اصطدمت جميعها بالسياسة المالية الإمبريالية وجمدت تنفيذ كل مبادرات التنمية في كل منحنى.

كمثال ففي عام ١٩٠٤ اقترح سير وليام كارستن المفتش العام للري في وزارة الأشغال العامة المصرية، عمل قناة على النيل الأبيض ولكن هذا الاقتراح وكل ما قدم بعده من تصميمات قد جمدت، حتى نال السودان استقلاله وتولى مسئولية هذا الأمر.

في عام ١٨٧٦م اقترح المهندس الجنرال ف. ح. راندال عضو الهيئة البريطانية الملكية للمهندسين بناء سد عال عند أسوان ولكن لم ير هذا المشروع النور إلا في ظل سياسة التنمية في عهد الرئيس جمال عبد الناصر.

تعليق

● منطقة السدود من بور، بحر الجبل إلى بحر الزراف تسكنها قبائل الدينكا، النوير والشلك، التي تتحول إلى قبائل رحل، حيث البيئة الصالحة لهم ولمواشيهم، عندما تتحول منطقة المستنقعات من جراء الأمطار والفيضانات إلى منطقة وبيئة طاردة مليئة بالحشرات خاصة الناموس والذباب الحامل للأمراض للإنسان والحيوان على حد سواء.

● تسقط الأمطار في الفترة من أبريل حتى ديسمبر كل عام، لا يمكث هؤلاء القوم في قراهم سوى أربعة أشهر، ويرحلون إلى حيث المرعى ومصادر المياه الموسمية في غرب السودان في فصل الخريف، يهاجرون ويسوقون مواشيهم راجلين طبعا لمسافات بعيدة تتعدى مئات الأميال حتى يصلوا بحر العرب في الغرب.

● مصادمات دامية يروح ضحيتها المئات نتيجة للاشتباكات مع القبائل العربية، المسيرية والرزيقات التي ترحل هي الأخرى مع مواشيها مع بداية فصل الخريف لترعى في نفس المناطق عند بحر العرب، ذلك بسبب التنافس على المرعى ومصادر المياه الموسمية.

● مع بداية العام تعود هذه القبائل الجنوبية ومعها حيواناتها البائسة راجلة، قاطعة مئات الأميال مرة أخرى بعد نهاية فصل الخريف في الغرب، مما يجعل لحوم هذه المواشي عديمة القيمة الغذائية، لتحولها لعضلات وعصب نتيجة لهذا المشوار الكبير، وأيضا عدم استيعابها لأي غذاء يمكن أن يقدم لها وعدم مقدرتها على تحويله إلى لحم وشحم صالح للاستعمال الآدمي. صحيح أن القبائل لا تبيع هذه المواشي أو تحتفظ بها كعمل تجاري، وتكن كمصدر عزوة ومكانة في القبيلة ولكن لا أحد يستفيد منها كثروة حيوانية ذات عائد اقتصادي لمنفعة الوطن أو أصحابها بنفس القدر.

● الحكومات المحلية، وبدون أي رغبة في الدفاع عنها، لا يمكن أن يتخيل أحد مقدرتها على تقديم أي خدمات أو مشاريع تنمية لقبائل في ترحال مستمر حتى حكومة الجنوب نفسها. فوائد مشروع قناة جونجلي يمكن تلخيصها فيما يلي: -

١ - تجفيف المستنقعات واستصلاح ٢٠٠ ألف فدان صالحة للزراعة.

٢ - توطين هذه القبائل في مشاريع استقرارية وتقديم الخدمات لهم من صحية وتعليم وإدخال الحيوان في الدورة الزراعية، مشاريع استزراع سمكي.... إلخ.

٣ - إقامة مشاريع للتصنيع الزراعي، سكر أرز تبغ وأناناس للتعليب.. إلخ في جنوب القنال. (ذرة وحبوب زيتية وأعلاف) في شمال القناة.

٤ - صلاحية قناة جونجلي للملاحة لاختصار زمن الرحلة من ١١ يوما من كوستي إلى جوبا إلى ٧ أيام ومن جوبا لكوستي (مع التيار من ٧ أيام إلى ٣ أيام)، مع احتمال استعمال الهوفركرافت لاختصار الرحلة لأقل من هذا.

٥ - التكامل بين الجنوب وغرب السودان عندما يمد الجنوب الغرب بالأعلاف والأعيار (الكسب) لإحداث ثورة في تنمية الثروة الحيوانية هناك.

٦ - إقامة طريق بري دائم على جانبي القنال لتأمين سبل المواصلات بين الجنوب والشمال ولنقل السلع المنتجة إلى أنحاء العالم.

٧ - بعد الانتهاء من مشروع قناة جونجلي لتأمين ٥ مليارات متر مكعب من المياه للاستفادة منها مناصفة بين مصر والسودان يمكن التفكير في مشاريع مماثلة لتحويل مستنقعات بحر الزراف كمرحلة لاحقة لتطوير كل المنطقة.

٨ - اكتشاف البترول في منطقة بانتيو بنفس منطقة القناة سوف يوفر الطاقة اللازمة لإنجاز هذا المشروع العظيم وأيضا لتسيير الآلات الزراعية الضخمة التي سوف تستخدم لتنمية الأراضي الزراعية الواسعة ومشاريع التصنيع الزراعي مستقبلا.

ولا أدري إن كان في العمر بقية حتى تتاح لنا مشاهدة هذه الأحلام تتحقق على أرض الواقع ولكنها دون شك تطلعات وطموحات مشروعة للأجيال القادمة ■

في عام ١٩٨٤ أوقف العمل في مشروع حفر القناة ويرقد هذا الحفار معطوبا بعد أن اعتدت عليه قوى التمرد المناهضة والمعارضة لأي مبادرات لمشاريع التنمية في أفريقيا

تعليم بلا دموع

نل نودينجز





ت: د. فاطمة نصر

مقدمة كتاب:
السعادة والتربية: تعليم بلا دموع
نِل نودينجز

القاهرة - اصدارات دار سطور - ٢٠٠٧

في الأشهر القليلة الماضية، حينما كنت أقول للناس إننى أكتب عن السعادة والتربية، كانوا يجيبون، وقد تملكتهم الحيرة: لكنهما لا يتوافقان!!. وحقاً، فأحد دوافعى لمعالجة هذا الموضوع هو حقيقة أن الاثنين يبدوان اليوم، بتزايد، متناقضين. السعادة والتربية وثيقا الصلة ببعضهما: يجب أن تكون السعادة هدفاً للتربية، ولابد للتربية الجيدة أن تسهم إسهاماً كبيراً في السعادة الشخصية والجمعية.

ومع تزايد اهتمامي بكتابات سير الأفراد، تزايدت أيضاً عنايتي بالروابط بين السعادة، التعاسة، الملل، والتعليم. ما سبب أن كثيراً من اللامعين والمبدعين كرهوا المدرسة؟ ومع علمنا بتلك التعاسة جيدة التوثيق، لماذا نثابر في تبريرها بذات الذريعة القديمة «ستشعر بالامتنان لي يوماً ما» على هذه التعاسة؟ يثابر الآباء والمربون في موقفهم هذا، جزئياً، لأن كثيراً من أطفالهم الناضجين يثنون عليهم لما يحققونه من نجاح ملموس، رغم كونه نجاحاً مشكوكاً في أمره أحياناً - ويعزونه إلى بؤسهم المبكر. من ثم، نجدهم مستعدين، بل متحمسين، لإنزال دورة جديدة من التعاسة بغيرهم. وحقاً، يخشى آباء ومدرسون كثيرون عدم اضطلاعهم بهذه المهمة لتوجيههم من أن ينشأ أطفالهم مدللين، غير معدين، لا يتبعون نظاماً، وغير ناجحين، من ثم ينتهي أمرهم إلى التعاسة في الكبر.

كان إحباطى في تربيتي المسيحية بين العوامل الأخرى التي حفزتني. طورت بغضاً تجاه تمجيد المعاناة المهيمن على العقيدة المسيحية، تجاه ما تؤمر به، ترهيباً، بأن تكون أخياراً، وتجاه عادة تأجيل السعادة إلى زمن قادم. ربما أسرع قراء كثيرون وأشاروا إلى أن الديانات الرسمية - حتى المسيحية - تأتي للكثيرين بالسعادة أيضاً، وأن مفهوم الفرح مركزي في الحياة الدينية. حاولت، في نقاشي للدين، مقارنة مختلف تلك التوجهات.

لاحظت، طوال ما يربو على خمسة عقود من التدريس والأمومة، أن الأطفال (ومعهم الكبار) يتعلمون أفضل وهم سعداء. لا يعني هذا أن الأساليب الجافة ليست فاعلة في إنجاز استظهار دونما فهم، كما أنه لا يعني أن حياة التلمذة السعيدة تخلو من فترات ضيق متقطعة، أو من الفشل العرضي. بل العكس، فالتحدي والنضال جزء من المسعى للمعرفة والكفاءة. وبما أن النضال شق لا يمكن تلافيه من العملية التعليمية، فلا يجوز لنا، نحن المربين، أن نبتدع مشاق جديدة لطلبتنا. إن الطلبة الذين يشعرون، بعامة، بالسعادة في دراستهم، يستطيعون تحمل الفترات الصعبة بالمعنى، ويتجاوزونها بقدر من الإرضاء.

ثمة أمر ذو صلة وثيقة بحقيقة أن الطلبة السعداء يتعلمون أفضل من التعساء، وأعتبره بالغ الأهمية، فنادراً ما يتصف السعداء بالخبث والعنف والقسوة. لكنني وقد قلت هذا، وأعتقد أنه حقيقي إلى حد كبير في حالة الأفراد، أجد أنه يصبح مشروطاً لدى الحديث عن المجموعات والمجتمعات، فنحن نلاحظ أن بإمكان المجموعات بل مجتمعات بأكملها أن تكون سعيدة في الوقت الذي يعاني آخرون من استغلالها لهم وإهمالها إياهم. سيكون علينا، إذن، أن نسأل بأي معنى يكون مثل هؤلاء سعداء. لكنني سأؤكد على زعمي البدئي: نادراً ما يتصف الأفراد السعداء بالعنف والقسوة تجاه غيرهم من البشر أو تجاه الحيوانات. من ثم يجب أن يكون توجيهنا الأساسي للتربية الأخلاقية هو الالتزام بإقامة عالم يكون فيه من الممكن للأطفال، ومن المرغوب فيه، أن يكونوا أخياراً - عالم فيه الأطفال سعداء.

هذه هي الملاحظات الأساسية التي أدت بي إلى دراستي عن السعادة والتربية. لكن ثمة أموراً أخرى أقل شأناً. لماذا نثبط أهدافنا دائماً باختيارنا وسائل تتنافى مع ما نسعى لتحقيقه؟ مثلاً، حينما ندرس الشعر على أمل أن يكون مصدراً للحكمة والبهجة مدى الحياة، لماذا نضجر الطلبة بتحليلات لا نهاية لها وبالتركيز على التعبيرات الفنية؟ لماذا نطلب من الأطفال بذل ما يوسعهم ثم نعطيهم درجات منخفضة حينما يكون ما يوسعهم أقل مما يوسع الآخرين؟ بل لماذا نستخدم الدرجات بإطلاقه؟

تعجبت أيضاً، لماذا لم يكتب سوى القلة القليلة من المنظرين التربويين عن السعادة؟ تحدث إيه. إس. نيل عن الموضوع، لكن معظم المعنيين بشئون المدارس يجدونه مفرطاً في تساهله، حتى أنا، أفضل أن يوجه التلاميذ بأكثر مما يوصي به نيل. أيضاً يجعل التربوي الياباني تسنابورو ماجيكوشي من السعادة هدف التربية الأول، كما أن مماهاته السعادة بخلق القيمة تثير الاهتمام، لكن بؤرة نظريته تبدو غريبة

للقراء الغربيين. يتبنى روبن بارو نهجاً آخر ويطرح تحليلاً للسعادة ويؤسس صلة بين بعض تضمينات ذلك التحليل وبين التعليم في المدارس. وكتابه، مثل كتابي نيل وماجيكوشي، جدير بالقراءة، لكن ربما وجده بعض القراء على درجة مفرطة من التجريد. وجدت، أثناء بحثي، أن البعض قد ناقشوا السعادة وارتباطها بالتربية، لكن ليس من المحتمل لنا أن نجد أي ذكر للسعادة في الكتابات الراهنة المكرسة لإصلاح المدارس.

في فصول الكتاب، أبدأ بمناقشة بعض التعريفات المهمة للسعادة وأوصافها. هل السعادة عرضية، متقطعة، أم أن بالاستطاعة وصف حياة بأكملها بأنها سعيدة؟ هل الملمح الرئيسي للسعادة هو اللذة؟ هل الأخيار فقط هم من باستطاعتهم أن يكونوا سعداء حقاً؟ وماذا يعني أن تكون خيراً؟ هل يوجد ما يمكن أن نطلق عليه شخصية سعيدة؟ ليس ثمة حاجة لأن يتوافق التربويون حول ما يشكل السعادة على وجه التحديد من أجل أن يتوافقوا على وجوب إتاحة الفرصة للتلاميذ لتعلم وجهات النظر المتنوعة. ما هو أكثر أهمية من أن يقوم التلاميذ بغربلة تلك الآراء ليعثروا على آرائهم الخاصة بهم أو ليعدلوها؟

لا يجوز أن يقوم المدرسون بتعريف السعادة لتلاميذهم، ورغم أنني أفضل وصفاً معقداً للسعادة، بل فضلت أن أترك هذا المفهوم مفتوحاً لاكتشاف لا يتوقف. وبالمثل، لم أحاول أن أفصل بين الأسئلة المتعلقة بوصف السعادة، وتلك المتعلقة بكيفية تحقيقها، إن فهم الإمكانيات وتأملها، لابد، أن يسهما، بحد ذاتهما، إسهاماً كبيراً في العثور على السعادة.

وفيما أمضي في النقاش، أواجه، عن كثب، موضوعات تتطلب مزيداً من التحليل. مثلاً، يبدو أن أحد ملامح السعادة هو غياب الألم والمعاناة. أرفض تمجيد الألم الذي كثيراً ما يوجد في الموروثات الدينية، لكني أؤكد أن السعادة الحقة تتطلب القدرة على المشاركة في التعاسة؛ أي أنه من أجل أن نصبح سعداء حقاً، لابد أن نُدفع بوازع منا للتخفيف من البؤس المحيط بنا. كما ينبغي علينا أن نسأل عما إذا كان ثمة أوقات لابد أن يصبح فيها الإنسان السعيد يائساً. بيد أن ما أقدمه من تحليل لن يكون منظوراً للزهد واستعذاب الألم. فإنني، مثل الفيلسوف دافيد هيوم، لا أكن كثيراً من الإعجاب لفضائل الزهد واستعذاب الألم إلا إذا كان هذا ضرورياً لسعادة الآخرين، ونادراً ما يكون كذلك.

كي يصبح البشر سعداء، فهم بحاجة لإرضاء احتياجات مهمة، وحينما نتفحص تلك الاحتياجات تُثار كثير من الأسئلة الأسرة: إلى أي حد يكون على الوالدين والمدرسين إرضاء الاحتياجات المُعبر عنها؟ وإلى أي مدى ينبغي علينا أن نضغط لترسيخ الاحتياجات المتكهن بها أو المستنبطة وإرضائها؟ كيف لنا أن نميز بين الرغبات والاحتياجات؟ أن نعرف ما يجعلنا سعداء؟ أثمة أشياء لابد أن تجعلنا سعداء؟

سأشير، طوال تلك الفصول، إلى مجالين كبيرين نبحث فيهما عن السعادة. الخاص (الشخصي) والعام (المهني بشكل أساسي). وأيضاً إلى عدد من مصادر السعادة. بالمثل، يبدو أن الطبيعة الخيرة تسهم إلى حد كبير في كل من السعادة الشخصية والمهنية. بيد أنني فصلت هذين المجالين الواسعين برغم تشابكهما من أجل سهولة التحليل. يبحث الجزء الثاني من الكتاب الحياة الشخصية بشكل أساسي، فيما يبحث الجزء الثالث الحياة العامة.

قبل مناقشة مصادر السعادة في الحياة الشخصية، أبحث سؤالاً جوهرياً بالنسبة للتربية. أي الغايات. لا أقتصر فقط على اقتراح وجوب أن تكون السعادة هي غاية التربية، لكني أيضاً أشجع على العودة إلى حديث/ الغايات. في الماضي، كرس عظام المربين كثيراً من الفكر لقضية الأهداف والغايات، أما الآن فلا نسمع هذا الجدل كثيراً. يبدو الأمر وكأن مجتمعنا قد قرر ببساطة أن هدف التعليم اقتصادي - تحسين أحوال الأفراد المادية والدفع قدماً بازدهار الأمة. من ثم، يكون على الطلبة الإجادة في الاختبارات المعيرة (الخاضعة للمعايير العامة والموحدة)، أن يقبلوا في كليات متميزة، أن يحصلوا على وظائف عوائدها مرتفعة، وأن يشتروا أشياء كثيرة.

....

ليست السعادة الهدف الوحيد للتربية أو للحياة، لكنها هدف مركزي، ويمكن استخدامها شاشة تقييم يمكننا من خلالها الحكم على كل شيء نفعله. باستطاعة مثل هذا التقييم تغيير حياة المدرسين والطلبة معاً.

كتـــاب الـزاويــة

قيم وتقاليد القضاء

نخبة من رجال الأمة

إن الديمقراطيات التي لم ترسخ لها قدم في الحكم الديمقراطي الصحيح هي في أشد الحاجة إلى رقابة القضاء، ذلك أن كل ديمقراطية ناشئة لم تتضح فيها المبادئ الديمقراطية ولم تستقر هذه المبادئ عندها في ضمير الأمة تكون السلطة التنفيذية فيها أقوى السلطات جميعاً، تتغول السلطة التشريعية وتسيطر عليها وتتحيف بالسلطة القضائية وتنقص من استقلالها، والدواء الناجع لهذه الحالة هو العمل على تقوية السلطة القضائية، فهي أدنى السلطات الثلاث إلى الإصلاح، إذ القضاة نخبة من رجال الأمة أشربت نفوسهم احترام القانون، وانغرس في قلوبهم حب العدل وهم بطبيعة وظيفتهم يؤمنون بمبدأ المشروعية ولا يقدر لهذا المبدأ قيام واستقرار إذا لم يجد إلى جانبه قضاء حراً مستقراً، يحميه من الأعداء، ويدفع عنه الطغيان.

الفقيه القانوني عبدالرزاق السنهوري

مجلة مجلس الدولة/ يناير ١٩٥٢.

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكتاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

أزمة الكساد العالمى الكبير

على شلبى

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٦، ٢٢٦ صفحة



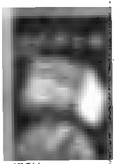
فى عام ١٩٢٩ شهد العالم كارثة اقتصادية كبيرة عرفت فى التاريخ الاقتصادى العالمى بفترة الكساد الكبير. وكان السبب الرئيسى لهذه الكارثة هو الانهيار المالى الضخم فى بورصة الأوراق المالية فى نيويورك، وكما أثرت هذه الكارثة على العالم، أثرت كذلك على مصر، وكان الريف، وهو الأفقر والأقل حظًا من الثروة ومشروعات التنمية هو الأكثر تأثرًا بهذه الفاجعة، خصوصًا أن مصر كانت تحت الاحتلال الإنجليزى وعملتها مرتبطة بالجنيه الاسترلينى صعودًا وهبوطًا.

ولما كانت مصر آنذاك دولة زراعية أساسًا، وكان القطن هو محصولها الرئيسى للتصدير ومصدر إعاشة قطاعات واسعة من أبناء الريف، فقد شهدت أسعار القطن انهيارًا كبيرًا تبعًا لانهيار أسعار القطن الأمريكى فى السوق العالمية، وعاش أهل الريف معاناة غاية فى القسوة والشدة، واتخذت الحكومة المصرية بعض التدابير بهدف التخفيف من حدة الأزمة، حيث تدخلت كمشتر للقطن من المزارعين بأسعار معقولة، وفرضت تعريفة جمركية لحماية النشاط الاقتصادى وأنشأت بنك التسليف لإقراض المزارعين ومدهم بمستلزمات الإنتاج، ومع ذلك فإن الأحوال لم تتحسن كثيرًا، ومازاد من سوئها أن البلاد كانت تمر بمرحلة اضطراب سياسى كبير أعقب صدور تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ وما تلاه من صدور دستور ١٩٢٣ واختلاف القوى السياسية حوله، وصراعها بين مناصر للقوى الوطنية الداعية إلى الاستقلال، والقوى المؤيدة لأتوقراطية الملك والسيطرة الاستعمارية الإنجليزية، وقد بلغت الأزمة حدًا مريعًا، حتى إن الدولة أنشأت مطاعم للفقراء (مطاعم الشعب) لإطعام غير القادرين، وظهرت أشكال وأنماط من الجرائم لم يعرفها المجتمع المصرى طوال تاريخه، وزادت نسب الطلاق وعم الانحلال والفساد الأخلاقى فى دوائر العمل فزادت الرشوة والسرقات. كما اتسعت دوائر تجارة المخدرات والشحاذة والتسول وعصابات السرقة بالإكراه والسطو المسلح وزادت محاولات الانتحار ودخلت إلى سوق البغاء عديد من الفتيات والسيدات لتعلن أسرهن وتسدد رمقهن، ثم أكثر ما كان يشغل الاحتلال البريطانى، فهو الحفاظ على أمن رعاياه وتأمين استثماراتهم فى مصر، وما أن انقشعت الأزمة فى ١٩٣٤ حتى بدأت القوة الوطنية سعيها لمواجهة الإنجليز والقصر، فاستعادت دستور ١٩٢٣ الذى ألغاه إسماعيل صدقى فى انقلابه الدستورى الشهير عام ١٩٣٠، وأعادت الحياة النيابية للبلاد، وتمكنت من عقد معاهدة ١٩٣٦ التى كانت خطوة على طريق الاستقلال.

تأملات فى العقل المصرى

طارق حجى

القاهرة: مؤسسة أخبار اليوم، ٢٠٠٧، ٩٢ صفحة



يدور الكتاب حول قيمة التقدم بصفة عامة وبمعناه الواسع.. والذى يرجع ـ كما يرى المؤلف ـ إلى مجموعة من القيم أكثر مما يرجع لتوفر ثروات من أى شكل ونوع، وأننا حينما نعتبر تقدم مجتمعنا حلمًا بعيد المنال، فإننا نخالف العقل والمنطق، وذلك استشهادًا بأمم ومجتمعات سبقتنا فى سلم التقدم بأقل مما نملك نحن الآن.

يتضمن الكتاب فصلين.. يتناول الأول بالشرح والتحليل قيم التقدم وأهميتها وعلاقتها بالهوية والخصوصية الثقافية ودورها فى بناء مجتمع قوى، يخرج منها الكاتب بأن حل مشكلات مصر الاقتصادية والاجتماعية هو أمر لا يحققه إلا مناخ عام مشرب بقيم التقدم، وعندئذ فإن دور مصر عبر الحدود يصبح حتمية لا يقدر أحد على تجاوزها، لأن مصر هى الدولة العربية والشرق أوسطية الوحيدة المؤهلة لدور الدولة الأكبر فى المنطقة.

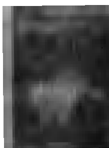
ويسلط الفصل الثانى من الكتاب الضوء على عيوب تفكيرنا المعاصر والعلل التى تعوق تحقيق قيم التقدم التى منها المغالاة فى مدح الذات وثقافة الكلام الكبير دون فعل والاعتقاد فى نظرية المؤامرة والتفكير النمطى وخلافه.

يقول المؤلف إن الإنسان بصفته موردًا بشريًا سيكون هو عماد الحركة المجتمعية المستقبلية بوجه عام والحركة الاقتصادية بشكل خاص، وهو ما يعنى حتمية العمل الجاد من أجل خلق إنسان أكثر تحررًا من عيوب التفكير الموصوفة فى هذا الكتاب، حتى يكون إنسانًا تنافسيًا فعالاً يمتلك القدرة على خلق مكان متميز فى عالم الواقع الجديد، حيث ينفتح المجال على مصراعيه أمام التنافس بكل ما تحمله الكلمة من معان.

الدولة الفاشلة

نعوم تشومسكى

بيروت: دار الكتاب العربى، ٢٠٠٧، ٣٦٠ صفحة



الدولة الفاشلة بحسب تشومسكى، هى الدولة غير القادرة أو غير الراغبة فى حماية مواطنيها من العنف، والتى تعتبر نفسها فوق القانون، وهى وإن امتلكت شكلاً ديمقراطيًا، إلا أنها تعانى من قصور وعجز ديمقراطى خطير يجرد مؤسساتها من أى جوهر حقيقى للديمقراطية.

وفق هذا التعريف يرى المؤلف أن الولايات المتحدة الأمريكية دولة فاشلة، وهى تشكل خطرًا متعاظمًا على دول العالم وعلى كوكب الأرض كله.

يميط المؤلف اللثام هنا عن خطط واشنطن لعسكرة الكوكب الأرضى، وهو ما يفاقم إلى حد بعيد مخاطر نشوب حرب نووية، كما يكشف عن سعى واشنطن الدائم لإعفاء نفسها من كافة المعايير والالتزامات الدولية، بما فى ذلك ميثاق الأمم المتحدة واتفاقيات جنيف ومبادئ القانون الدولى المعاصر وبروتوكول كيوتو، كما يكشف أيضًا عن الطريقة التى تم بها إعداد النظام الانتخابى الأمريكى بهدف إقصاء البدائل السياسية الحقيقية، وبما يحول دون قيام ديمقراطية حقيقية.

تشومسكى يواصل فى هذا الكتاب مشروعه الذى بدأه مع كتابه المهم «الهيمنة أم البقاء» وغيره من الدراسات المهمة، التى تفكك المشروع الإمبريالى الأمريكى، خصوصًا مع الصعود المشهود للمحافظين الجدد، ويحلل نقاط الضعف القاتلة لدى القوة الأعظم فى العالم، والتى ادعت منذ أمد طويل أن لها الحق أن تعيد تشكيل العالم وفق هواها، وأن من حقها كذلك أن تزيح رؤساء وتستبدل بهم ملوكًا وأباطرة آخرين، بل أن تفتت دولاً قائمة وتعيد تشكيلها وفق رؤيتها الاستقلالية للعالم الجديد، بادعاء أنها تقتصى التخلص الديكتاتورية لصالح الأنظمة الديمقراطية، ولم يدر بذهنها أن تسأل نفسها: وهل هى فعلاً دولة ديمقراطية؟

رئيس لمدة دقيقة

جمال الشاعر

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٧، ١٥٠ صفحة



يطرح المؤلف عبر مقالاته التى يضمها هذا الكتاب سؤالاً بسيطًا وعميقًا فى آن: ماذا تفعل لو كنت رئيسًا لمصر، وأن المؤلف الذى يكشف هنا عن وجه مغاير لذلك الذى عرفه الناس عنه بوصفه شاعرًا وإعلاميًا مرموقًا، أن حصيلة الإجابات ستقدم ٧٠ مليون فكرة، هذا فى حالة ما إذا أجاب المصريون جميعًا عن سؤاله انطلاقًا من فرضيته التى يطرحها فى سطور الكتاب الأولى... «منصب الرئاسة هو فرض كفاية، ولكن تفكير المرؤوسين فى صناعة مستقبل مصر هو فرض عين، هذه ليست بلد الحكومة إنها بلدنا نحن».

ويزيد: افتحوا شبابيك الأمل للأجيال وانصتوا إلى المواطن المصرى جيدًا، فهو لديه أفكار مبهرة حتى لو كان أميًا، فالمثل الأفريقى يقول: عندما يموت شيخ كبير فى أدغال أفريقيا: فهذا معناه أن مكتبته قد احترقت.

بلغة بسيطة لا تخلو من سخرية، ولا تخلو أيضًا من أرقام وإحصاءات، يجول المؤلف بين تجارب إنسانية عديدة، بادئًا بتجربة مهاتير محمد فى ماليزيا، التى تحولت على يديه من دولة تنتمى إلى دول العالم الثالث إلى الدولة رقم ١٧ فى قائمة الدول المتقدمة، والرجل لم يجرب وصفات جاهزة من تلك التى يوزعها صندوق النقد الدولى، وإنما عرف قدرات بلاده وطاقات شعبه، واستطاع أن يوظفها توظيفًا دقيقًا، وأن يلهب حماس الناس ويحذرهم من البيروقراطية والقيود التى تكبل إبداعهم وانفتاحهم على العالم. ويقدم فى عدة مقالات متتابعة أفكارًا قابلة للتحقيق للشباب يئن تحت وطأة البطالة والتجاهل الحكومى لقدراته، ويعيب فى الوقت نفسه على الشباب استمساكه بالوظيفة الميرى.. فهى مثل الفزاعة أو خيال المآتة فى الحقل تحجل عقل الإنسان يدور فى حلقة مفرغة من التفكير التقليدى، ويشير إلى عفاريت الإنترنت.. الأهم من الشباب المصرى الذين يجيدون التعامل مع الشبكة العنكبوتية ببراعة فائقة، وإن كانوا لم يفيدوا بعد من قدراتهم تلك بصورة إيجابية.

وفى أكثر من مقال يستخدم مقولة

جمال حمدان الشهيرة: إن مصر «رأس كاسح وجسد كسيح»، فما الذى يحرر هذا الجسد وينشط أطرافه، إنه الإيمان بقيمة العمل وفتح باب الأمل للأجيال الشابة والتفكير العلمى الذى يجب أن يسود حياتنا كلها وإصلاح حال التعليم وربطه بسوق العمل، والأهم تجاوز الأطر التقليدية فى حل المشاكل التى استفحلت إلى درجة أنه لم يعد مجدياً معها أن تعالج بالطرق المعتادة.

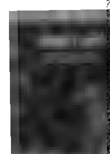
وبرغم الانتقادات الحادة التى يوجهها المؤلف للحكومة وأجهزة الدولة وللشباب، فإن نغمة الأمل تتردد بين سطور الكتاب فلا تغيب أبداً.

*

ذاكرة الكتابة فى القصة والرواية الليبية

إدريس المسمارى

ليبيا: مجلس الثقافة العام، ٢٠٠٦، ١٠٣ صفحات



يقدم المؤلف قراءة نقدية فى عدد من الإبداعات لروائيين وكتاب ليبيين، ويبدأ برواية أحمد إبراهيم الفقيه «سأهبك مدينة أخرى»، وهى الجزء الأول من ثلاثية يتناول فيها المؤلف سيرة البطل خليل الإمام فى عالم الغرب، والجزءان الآخران هما «هذه تخوم مملكتى» و«نفق تضيئه امرأة واحدة»، والجزء الأول يمكن إضافته إلى هذا النوع من الروايات الذى عرف بروايات الاغتراب.

قراءة نقدية أخرى يقدمها المؤلف لرواية صالح السنوسى «غداً تزورنا الخيول».

«محطات» للكاتب كامل المقهور هو النص الثالث وهى سيرة ذاتية فى سياق أدبى وفنى رفيع، تقدم مستويات عدة للقراءة والمعرفة، أما «ليالى نجمة» للروائى خليفة حسين مصطفى، فهى السادسة له، وفيها يرصد التاريخ السياسى والاجتماعى الليبى خلال فترة الخمسينيات والأربعينيات من القرن الماضى كخلفية للعلاقة بين أبطاله.

يقدم المؤلف أيضاً قراءة نقدية لمجموعة «خديجاو» للقاص سالم العبار، وهى قصص تتكئ فى معظمها على خيال الطفولة الخصب الذى يقدمه القاص فى إطار سردى، ويتوقف المؤلف عند ثلاثة نماذج من المجموعة هى: الفارس، الحج، الرصد.

وعبر ثلاث تيمات هى الصحراء، الأسطورة، الموت يقرأ المؤلف نص الكاتب إبراهيم الكونى «وطن الرؤى السماوية».

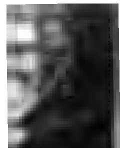
يقول المؤلف: إن الكونى فى نصه هذا يعيد صياغة أسطورة الخلق كما نسجتها مخيلة الإنسان فى حضارات الشرق القديم من منظور يعمل على تفكيكها وإعادة تشكيلها وفق مفردات قوانين الانبعاث الصوفى.

*

كأن العمر ما كانا

فاروق جويدة

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٧، ٨٠ صفحة



الديوان الأخير للشاعر الكبير فاروق جويدة، الذى عرف بقصائد الرومانسية الفائقة، وقدرته على اللعب بأوتار القلوب ومشاعر الأحباب بانسيابية ورهافة، لا يضم سوى قصيدة وحيدة من هذا النوع، هى قصيدته الأخيرة «لا وقت للغفران» والتى جاءت من الشعر العمودى، وفيها من العتاب والسخط والغضب أكثر مما فيها من حكايا العشق والعشاق، يقول الشاعر:

لا وقت للغفران قومى وارحلى
لا لن تفيدك ثورتى وعتابى
إنى طردتك من مغانى جنتى
وعليك حقت لعنتى وعقابى
يا كذبة العمر الجميل تمهلى
ولتقرئى قبل الرحيل كتابى
سطر وحيد بالدماء كتبته
أقسى الجراح خيانة الأحباب

أما بقية القصائد فهى سياسية، غاضبة احتجاجية، باستثناء قصيدته الأولى التى يهديها إلى روح أمه التى رحلت قبل عامين وقد تركته لعالم تغيرت قسماته وملامحه وتبدلت أطيافه وطبائعه، فما عاد ممكناً لقلب الشاعر الرقيق ولما علمته الأم من معانى المحبة والتسامح أن يتواءم مع هذا العالم الوحشى، يقول:

يا جنة العمر يا روحى التى رحلت
لا تسألى القلب هل أضناه ما لاقى
من لى بصدر حنون لا يساومنى
ولا يرى فى الهوى ذلاً وإشفاقاً
يمضى بى العمر قلب الأم يسكننى
ولا أرى بعده حباً وأشواقاً

أما بقية القصيدة فهى مهداة إلى أطفال العراق «من قال إن النفط أغلى من دمى» وإلى صبايا بغداد فى سجن أبوغريب «ما عاد يكفينا الغضب» وإلى الجيش حامى الوطن، نقرأ فى قصيدة «اغضب» ولا تسمع أحداً»:

اغضب.. فإن الله لم يخلق شعوباً تستكين

اغضب.. فإن الأرض تحنى رأسها للغاضبين

اغضب: فإن الريح تذبح سنبلات القمح

تعصف كيفا شاءت.. بغصن الياسمين
اغضب.. ستلقى الأرض بركاناً
ويغدو صوتك الدامى نشيد المتعبين
اغضب فإن حدائق الزيتون
لا تؤوى كلاب الصيد
لا تنسى دماء الراحلين

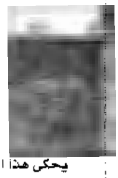
*

كامى وسارتر

رونالد أرونسون

ترجمة: شوقى جلال

الكويت: عالم المعرفة، ٢٠٠٧، ٣٣٧صفحة



يحكى هذا الكتاب بالوثائق واستناداً إلى شهادات معاصرين وسير ذاتية وكتابات منشورة، قصة التحالف والصراع بين اثنين من أشهر مبدعى القرن العشرين، صاغ عديداً من أفكاره التى دار فى فلكها مبدعون ومثقفون فى جميع أنحاء العالم، إنهما جان بول سارتر وألبير كامى، اللذان تعددت أوجه أنشطتهما الإبداعية ومواقفهما تجاه السلطة والعالم فى زمانهما، فكتبا فى السياسة والفلسفة والرواية والمسرح، إضافة إلى مقالات صحفية ألهبت خيال المحيطين بهما ودوائر أوسع خارجها.

دارت بين الاثنين معارك فكرية صاخبة، اتفقا وتحالفا واختلفا وتباعدا، ومثلت معاركهما معاً شهادة على هذا العصر وتحولاته أثناء الحرب العالمية الثانية، وكذا فى سنوات الحرب الباردة، والأسئلة التى طرحها الصراع بين الاثنين مازالت مطروحة - ربما بصورة أشد - حتى اليوم، وهى ثنائيات من نوع: المثقف والالتزام السياسى، البعد الأخلاقى فى العمل السياسى، الإبداع والثورة، الحرية والفوضى، الغاية والوسيلة، وغيرها مما لم يجد بعد إجاباته الحاسمة.

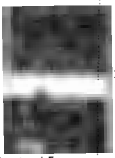
والمعروف أن سارتر عاش بعد كامى نحو عشرين عاماً، وهو ما منحه فرصة أن تكون له الكلمة الأخيرة فى قصة الصراع بينهما، وبعد وفاة كامى ظل سارتر على موقفه النقدى منه، يسخر من المستوطنين الفرنسيين فى الجزائر، وقد قدمت سيمون دى بوفوار رفيقة سارتر فى عام ١٩٦٣ شهادتها عن نهاية العلاقة بين الصديقين: كان كامى مثالياً، أخلاقياً، مناهضاً للشيوعية، واضطر فى لحظة إلى الخضوع للتاريخ، وحاول بأسرع ما يمكن الانسحاب منها - وجاهد سارتر منذ عام ١٩٤٥ لإنكار المثالية، ولكى ينتزع نفسه بعيداً عن نزعته الفردية الأصيلة والعميقة فى التاريخ، كان كامى يكافح من أجل مبادئ عظيمة، واعتاد أن يرفض المشاركة فى الأعمال المحدودة والتفصيلية التى ألزم سارتر نفسه بها.

*

أنا والأمريكان

إبراهيم عابدين

القاهرة: المؤلف، ٢٠٠٧، ٥٠٨ صفحات



يتضمن هذا الكتاب بعضاً من ذكريات مراسل إذاعى عمل بإذاعة صوت أمريكا لنحو سبعة وعشرين عاماً، وهو يبدؤها من سنوات عمله بوكالة أنباء الشرق الأوسط مراسلاً حربياً على جبهة القنال أيام حرب الاستنزاف وخصوصاً فى مدينة السويس، وبعض ما حققه من إنجازات هى بمثابة سبق صحفى، إضافة إلى مقالات رأى سجلها فى الكتاب حول موضوعات عامة، وقسم يتحدث فيه عن شخصيات أثرت فى حياته وفى مسيرته الصحفية والإذاعية، بينهم جلال الدين الحمامصى ونجيب محفوظ والفنان التشكيلى حامد سعيد والمثال الرائد محمود مختار وزعيم حركة حماس الفلسطينى الثائر الشيخ أحمد يس الذى اغتيل بيد الغدر الصهيونية.

ويلفت النظر فيما كتبه عن تجربته فى إذاعة صوت أمريكا، تلك المواقف التى التزم فيها أقصى درجات الحسم مع رؤسائه الأمريكيين، والتى وضع فيها دائماً استقالته فى كفة والمساس بكرامته المهنية والإنسانية فى كفة الميزان الأخرى، وفى واحدة من أصعب هذه الأزمات، طلب أحد نواب رئيس إذاعة صوت أمريكا الاستغناء عن بعض العاملين بالقسم العربى بالقاهرة، فرفض المؤلف بصرامة وهدد بتقديم استقالته إذا ما تم الاستغناء عن هؤلاء العاملين الذين يعملون تحت رئاسته والذى يفترض أن تتم استشارته قبل اتخاذ أى إجراء بشأنهم، وحين رفض رئيس المكتب استلام رد المؤلف الذى يتضمن هذا المعنى مكتوباً، أرسل نسخاً منه إلى رئيس إذاعة صوت أمريكا مباشرة وإلى السفارة الأمريكية بالقاهرة، وهو ما سبب انزعاجاً شديداً فى مقر الإذاعة بواشنطن وفى وزارة الخارجية الأمريكية ذاتها، وقرر رئيس الإذاعة تشكيل وفد على مستوى رفيع لبحث القضية على الطبيعة، وسعى هذا الوفد إلى إثبات أى تعقيد إدارى أو مهنى أو مالى ارتكبه المؤلف، إلا أنه فشل تماماً فى ذلك، فعاد الوفد إلى واشنطن وقد سجل الملاحظات كلها ليتم اتخاذ قرار بشأنها، فماذا كان القرار؟

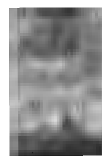
تم استرضاء العاملين الذين كان مطلوباً الاستغناء عنهم ورفع رواتبهم، أما المؤلف فقد عوقب على موقفه بسحب كافة الاختصاصات الإدارية منه، وتعيين مدير إداري يتولى هذه الاختصاصات، وهكذا تم إقصاؤه عن كل ما يخص العاملين المصريين، كما تم تجميده ووضعه بما يحرمه من أي ترقية استثنائية. يقول المؤلف: كنت في علاقتي مع جميع الأمريكيين الذين عملت معهم أضع كرامتي فوق كل شيء وقبل أي شيء، وكلهم كان يحسب حسابه عند الحديث معي. كنت في مواجهتهم قوياً لا أخشى شيئاً واعتمدت في ذلك على الله سبحانه وتعالى وعنصرين مهمين: أنني كنت أحب عملي وأقوم به على أفضل صورة، وثانياً: نظافة اليد والدقة في الحساب وفي الميزانيات.

■

المفكرون العرب والصهيونية وفلسطين

حلمي النمنم

القاهرة: رؤية للنشر، ٢٠٠٧، ٢٠٤ صفحات



يدحض هذا الكتاب الفكرة الشائعة من أن اهتمام الكتاب والمثقفين العرب بالموضوع الفلسطيني جاء في أعقاب وعد بلفور عام ١٩١٧، وأن الاهتمام المصري على وجه الخصوص جاء تالياً لأحداث ثورة المصريين في عام ١٩١٩، وتحديداً بعد صدور تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ وحصول مصر على استقلال شكلي. أما قبل ذلك، فقد كان المصريون مشغولين بقضيتهم الوطنية والكفاح من أجل تحقيق استقلال بلدهم، فلم ينتبهوا إلى ما يجري على الجانب الشرقي.

المؤلف عبر قراءة في الصحف والمجلات المصرية التي صدرت خلال السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، وخصوصاً كتابات رشيد رضا وشكيب أرسلان وشبلي شميل وجورجي زيدان، يكشف عن الاهتمام المصري المبكر بالقضية الفلسطينية، والانتباه إلى خطورة الهجرات اليهودية إليها، والنزعة الصهيونية الاستيطانية التي بدت بوضوح في أعقاب مؤتمر بازل عام ١٨٩٧، فهو يشير مثلاً إلى ما كتبه جورجي زيدان عقب رحلة قام بها إلى فلسطين، حين قال إن الأمور لو تركت على ما هي عليه، فسوف تضيع فلسطين نهائياً خلال عدة عقود، ودعا رشيد رضا إلى ضرورة التفاهم مع هؤلاء المهاجرين الجدد للحد من هجراتهم إلى فلسطين، كما يشير المؤلف إلى الرسائل المتبادلة بين واحد من أعيان فلسطين هو يوسف ضياء الخالدي، والذي كان رئيساً لبلدية القدس وسفيراً للدولة العثمانية في النمسا، وهرتزل في عام ١٨٩٩ والتي وردت في كتاب للدكتور عادل مناع عن تاريخ فلسطين في أواخر العصر العثماني، والتي أكد فيها الخالدي على الحق التاريخي لليهود في فلسطين، وأن الصهيونية فكرة طبيعية وعادلة، لكن لا مجال لتحقيق المشروع الصهيوني على أرض فلسطين لأسباب أفاض في شرحها في رسالته، والحل هو أن تبقى فلسطين «بحق الله والسلام»، وقد رد عليه «هرتزل» بالتأكيد على أن هجرة اليهود إلى فلسطين فيها خير للمنطقة كلها، لأنها تعني جلب الخبرة والموهبة والإمكانات المادية الضخمة بما سيؤدي إلى إنعاش البلد والمنطقة كلها وتحقيق درجة أعلى من الرفاهية للأهالي.. إلخ.

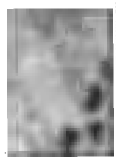
هذه مجرد نماذج لمواقف مثقفين تصدوا مبكراً للفكرة الصهيونية، إلا أن الحكومات لم تنتبه حتى صار الكابوس الصهيوني البغيض، واقعاً يمشي على قدمين.

■

أنتعل الغبار وأمشي

مي منسى

بيروت: رياض الريس للنشر، ٢٠٠٦، ٢٥٦ صفحة



الرواية أشبه بالسيرة الذاتية مروية بلسان بطلتها، فصول قصيرة بلا عناوين. طفولة بائسة، فقر وتزوج وإعاقة جسدية، يقابلها عصامية مبكرة وحب المعرفة وعناد ومقاومة، فقدان الحبيب، وأب من عصر الجاهلية و... يقابلها صداقات خسيسة وصبر. لكن ثمة في الرواية بوح جريء بالعواطف ونزعة إنسانية جميلة ولغة شفافة تنساب فيها الكلمات برقة وعفوية.

من الرواية نقرأ:

«كنت في قرارة نفسي بحاجة ماسة إلى الانفراد بدفتري السري، كلما سنحت الظروف بيني وبين ورقتي كنت أستعيد حقيقتي ولو مغبشة، مستقيلة من طبيعتي الأخرى، المواربة، المتحايلة على الواقع للفوز برضى الآخرين ومحبتهم. هذا الدفتر المخول دون سواه كتم اعترافاتي، كنت أخبئه نهاراً تحت فراشي وأعود إليه ليلاً حين الكل نيام، أصب فيه عصارة مكبوتاتي.

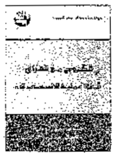
كنت أتحول ليلاً إلى شيطان رغبات مقموعة أحررها كتابة بشعور من يقترف الخطيئة بلذة. كنت، وقلمي منساب برفق من وحي الخصب، على اقتناع بأن الوقوع في الحب ينبغي أن يكون على مثال الحكايات، لا تحيا فيه المرأة العاشقة إلا إذا ذاقت عذاب الجحيم واحترقت في نعمة اللذة حتى الهلاك».

■

الخروج من العراق: خطة عملية للانسحاب الآن

جورج ماكغفرن ووليام بولك

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٧، ١٣٦ صفحة



هذا الكتاب وثيقة على درجة عالية من الأهمية في التاريخ العسكري - السياسي الأمريكي للحقبة الراهنة. اشترك في تأليفه علمان من أعلام تيار المعارضة للسياسة الخارجية الأمريكية: السناتور ومرشح الرئاسة الأمريكية الأسبق (١٩٧٢) جورج ماكغفرن، وعالم السياسة والمسئول البارز في المؤسسة الدبلوماسية الأمريكية وليام بولك. وقد وضعا في كتابهما المشترك محصلة خبرات السنين، بالإضافة إلى توجههما الشخصي المتميز بالنزعة الإنسانية، وليس بالنزعة البراجماتية التي كثيراً ما أبعدت السياسة الخارجية الأمريكية عن جذور القيم الأمريكية الأصلية.

ولعل أقرب وصف لمضمون هذا الكتاب هو أنه بيان واضح لبرنامج عمل بشأن مشكلة بالغة الخطورة في السياسة الخارجية الأمريكية وفي الاستراتيجية العسكرية على السواء.

يتقدم المؤلفان في كتاب الخروج من العراق حلاً عملياً لمعضلة أمريكا في العراق، استناداً إلى خبرتهما السياسية العملية وقدراتهما الفكرية بوضع مقدمات صحيحة أوصلتهما إلى استنتاجات سليمة بشأن كيفية الانسحاب. والأهم بشأن ما يمكن أن تكون النتائج إذا لم يتم هذا الانسحاب، إن طرح السؤال: «ماذا لو لم تنسحب أمريكا من العراق؟» يميز هذا الكتاب ربما عن كل الكتب الأخرى التي تعرضت لهذا الموضوع.

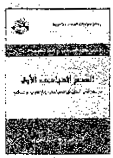
وبعد أن يجيبنا بالتفصيل يأتي السؤال: هل تستحق مواصلة الطريق كل هذه التضحيات؟ والإجابة: إن رجالاً عسكريين وكذلك دبلوماسيين محترفين وضباط مخابرات متقاعدين لا يعتقدون أن الولايات المتحدة تملك أي أمل في تحقيق ما يطلق الرئيس بوش بدعوة «النصر».

■

العصر العباسي الأول: دراسة في التاريخ السياسي والإداري والمالي

عبدالعزيز الدوري

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٦، ٣٠٤ صفحات



هذا هو المجلد الثالث من سلسلة الأعمال الكاملة للمؤرخ العربي الدكتور عبدالعزيز الدوري، وكان قد صدر عنها المجلد الأول في يونيو ٢٠٠٥ بعنوان: «مقدمة في تاريخ صدر الإسلام»، والمجلد الثاني في سبتمبر ٢٠٠٥ بعنوان: «نشأة علم التاريخ عند العرب».

ويدرس هذا المجلد نشوء الدولة العباسية وظروف انتشار الدعوة إليها، حيث يقول د. الدوري: «نشأت الدولة العباسية على أثر دعاية واسعة النطاق دامت حوالي ثلث قرن، فضمت إلى صفوفها كل من عادى الأمويين، وتركت آثاراً مهمة في نفوس المسلمين (من غير العرب)، وبخاصة الفرس. ولكي نفهم هذه الدعوة علينا أن ندرس أوضاع الأماكن التي انتشرت فيها من الناحيتين المالية والاجتماعية. هذا إضافة إلى دراسة نشوئها وأساليبها ومبادئها التي بشرت بها.

وقد انتشرت الدعوة العباسية الأولى بين الموالي (المسلمين من غير العرب) في العراق وخراسان، إذ أسرعوا وانضموا إليها رغبة في التخلص من أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية السيئة، كما انضم بعضهم لتحقيق آراء كانوا يدينون بها.

■

دارفور أرض السحرة والقرآن

حمدي الحسيني

القاهرة: دار الخيال، ٢٠٠٧، ١٧٧ صفحة



فجأة صار إقليم دارفور ملء السمع والبصر، صار مسرحاً لواحدة من أكبر الكوارث التي عرفتها الإنسانية في العصر الحديث، وتحول نصف سكان الإقليم تقريباً (٦ مليون نسمة) إلى مشردين ولاجئين بلا مأوى، وتحول ما يجري هناك إلى موضوع للسجال في الإعلام العالمي، ومادة مثيرة تتم متابعتها بالصوت

والصورة، ومساحة لتصفية الحسابات بين قوى إقليمية ودولية.

تحولت أرض القرآن، هكذا يعرفون دارفور في السودان، إلى ساحات من العراك والدم بين الأشقاء، فقد حمل بعض أبناء دارفور السلاح في مواجهة السلطة، تمردوا عليها بطريقتهم، غير أن الأمور وصلت إلى ذُرى غير محسوبة، حيث عمل البعض على تأجيج الخلاف ليكتسب طابعاً عنصرياً بغيضاً، فقد تحول إلى صراع بين العرب والأفارقة، وكانت فرصة امتدت إليها أياد خارجية، فتمت استضافة الزعماء الأفارقة المتمردين في دول أفريقية مجاورة، وقُدم لهم دعم سخي للاستمرار في تمردهم وعمل الإعلام الغربي على تعميق شعور قادة التمرد بأنهم يخوضون حرباً مقدسة لتحرير أبناء الزرقة من المسلمين الأفارقة، من قبضة حكام السودان المسلمين وأيضا المنحدرين من أصول عربية. وقد كانت التربة ممهدة بطبيعة الحال لإذكاء صراع من هذا النوع، فساد وبيروقراطية عفنة وتجاهل تنموي مريع وتوزيع غير عادل للثروة وغياب كامل لأبسط الحقوق السياسية وحريات التعبير. وكان لافتاً أن اهتمام الصحف الأجنبية ووكالات الإعلام الغربية بما يجري في دارفور يتجاوز بما لا يقاس الاهتمام الإعلامي العربي، والأنكى أن كثيراً من السودانيين حتى من أبناء الإقليم نفسه اعتمدوا في فهم ما يجري وتفسيره على هذه المصادر الغربية، وقد رصدت جهات رسمية سودانية أكثر من ١٧ مليون قصة عن دارفور على شبكة الإنترنت.

الكتاب يسجل رحلة قام بها المؤلف إلى دارفور نقل فيها ما يجري هناك من وقائع مؤلمة في إقليم جميع أهله مسلمون يتكلمون العربية.

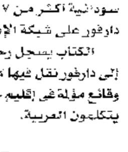
❖

صمت الطواحين

يوسف أبو رية

القاهرة: دار العين للنشر، ٢٠٠٧،

١٧٣ صفحة



القرية هي العالم الأثير للمؤلف الذي تدور بين أطرافه قصصه القصيرة ورواياته، وهو هنا يواصل الاحتفاء بتفاصيل هذا العالم، حيث يلتقط منه ما يوشك أن ينزوي. الطواحين، تلك التي كانت واحدة من مفردات القرية في أزمنة ولت، والآن غابت أو كادت، فمن خلال الطاحونة يحكي لنا المؤلف عن عائلة الحاج أبو المعاطي متتبعاً سيرتهم منذ كانوا أجراء يعملون في أراضي الإقطاعيين القدامى قبل قيام ثورة يوليو ١٩٥٢. وبقيام الثورة ومصادرة أراضي الملاك الكبار تبدلت أحوال عائلة أبو المعاطي، إذ حصلوا على أملاك نفر من الأجانب الذين دفعتهم عمليات التأميم الواسعة إلى الهروب خارج مصر والعودة إلى بلادهم، متنازلين عن أملاكهم بأبخس الأسعار، ويتمكن الحاج أبو المعاطي الذي لم يكن له دراية سابقة بكيفية تشغيل الطواحين من امتلاك أكثر من طاحونة بعد أن تعلم دقائق تشغيلها، متجاوزاً أبناء عمومته الذين أضاعوا ثروتهم على موائد شتى. ومن خلال هذه العائلة سيكون متاحاً أن نتعرف على تحولات اجتماعية وسياسية عصفت بمصر منذ ما قبل يوليو ١٩٥٢ وحتى نهاية السبعينيات. أحالت الطاحونة كما أحالت غيرها من المفردات التي ميزت هذه الحقبة إلى متحف التاريخ، كما نتعرف من خلال شخوص الرواية المتعددين على مئات التفاصيل الإنسانية والسلوكية لأفراد ينتمون إلى بيئات مختلفة: نور وعليوة صبيان الحاج أبو المعاطي، يونس وأبو العلا أخويه، فرج ابنه، شهدة زوجته الصبية الثانية، والتي كانت زوجة لطه الغمراوي بائع الجاز، وشاهيناز ابنة البهوات وسليلة القصور التي تتزوج من طه ثم تجبر على الطلاق منه لكي يبقى حتى النهاية وفياً لحبها.

نهاية العائلة كما سجلها المؤلف في نهاية الرواية هي في حقيقتها نهاية لهذا العالم الذي سعى المؤلف إلى رصد تفاصيله وتناقضاته وتشوهاته، عالم صار في طي النسيان.

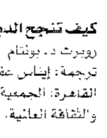
❖

كيف تنجح الديمقراطية؟

روبرت د. بوتنام

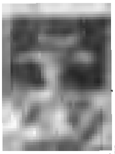
ترجمة: إيناس عفت

القاهرة: الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية، ٢٠٠٦، ٣٠٠ صفحة



لماذا تنجح بعض الحكومات الديمقراطية وتفشل أخرى في تحقيق أهدافها؟ هذا ما سعى المؤلف للإجابة عنه في إطار بحث جماعي شاركه فيه آخرون، الذين قدموا أدلة تجريبية عن أهمية المجتمع المدني في تطور المؤسسات الناجحة وكيفية تأثيرها في السياسة والحكم، وقد تركز بحثهم على التجربة الإيطالية الفريدة في الإصلاح والتي بدأت في عام ١٩٧٠، حيث أنشأت إيطاليا

بنك القرية البنغالي



تجربة بنك الفقراء

الحائز على جائزة نوبل للسلام لعام ٢٠٠٦

د. مجدي علي سعيد

بيروت: الدار العربية للعلوم وإسلام أون لاين، ط ٢، ٢٠٠٧،

٢٧١ صفحة

من الطبيعي أن يتساءل القارئ حول السبب الذي يجعل شخصاً حاصلاً على دكتوراة في الاقتصاد والبنك الذي أسسه يحوزان مجتمعين بجائزة نوبل للسلام وليس جائزة الاقتصاد التي تمنحها نفس المؤسسة مثلاً. إن الفكرة وراء بنك جرامين والتي قد تبدو بسيطة وبديهية لغير المتخصصين قد نجحت في إنقاذ أعداد كبيرة من القرويين في بنجلاديش من الاستمرار في حالة الفقر المدقع. بدأت تجربة بنك جرامين (وهو يعني بنك القرية باللغة البنغالية) كامتداد لأبحاث يونس ومشروع الاقتصاد الريفي بجامعة تشيتاجونج ببنجلاديش، ففي عقب المجاعة التي أودت بحياة حوالي مليون ونصف مليون مواطن من بنجلاديش عام ١٩٧٤ اكتشف محمد يونس أستاذ الاقتصاد بجامعة تشيتاجونج أن الفقراء في الريف البنغالي غير قادرين على كسر دائرة الفقر رغم مهاراتهم الإنتاجية لأن البنوك ترفض إقراضهم رأس المال اللازم لبدء مشاريعهم الخاصة مما يدفعهم للاقتراض من المرابين بفوائد تبتلع أغلب أرباحهم. رفض البنك المركزي والبنوك التجارية الأخرى الاقتناع بفكرة محمد يونس أن الفقراء سيتمكنون من سداد قروضهم وإدارة مشروعات ناجحة إذا تمكنوا من الحصول على القروض بدون ضمانات أو فوائد. عندها قرر محمد يونس وتلامذته، بدأوا التجربة بأنفسهم فاقرضوا مجموعة من الفلاحين من القرى المحيطة بالجامعة مبالغ متناهية الصغر بدون ضمانات أو فوائد لاستخدامها في الحرف التقليدية أو أي نشاط آخر يدر دخلاً عليهم. وقد حدد بنك جرامين ١٦ شرطاً على المقترضين الالتزام بها بشكل جماعي حيث تخلق الالتزامات وعياً مغايراً لدى القرويين ومن أول تلك المبادئ أن تلتزم القرية بمبادئ الاتحاد والشجاعة والعمل الجاد. كما تتضمن النقاط الأخرى اشتراطات خاصة بالنظافة الشخصية ونظافة المساحات العامة في القرية والاهتمام بصيانة البيوت وبتعليم الأبناء في التعليم النظامي مع إكسابهم المهارات المختلفة الخاصة بنمط إنتاج كل قرية. تلك الروح الجماعية مترسخة في جميع أنظمة قروض ومشاريع البنك التي تشجع المسئولية المشتركة للأسر بقيادة المرأة عادة أو للمجموعات القروية التي ينتخب المسئول عنها بشكل دوري. وقد نمت تلك الأساليب مفاهيم المشاركة السياسية والاجتماعية فعلياً بين القرويين مما حدا بالبعض منها إلى التقدم بالترشيح للمجالس المحلية. وقد حطمت تجربة بنك جرامين مفاهيم راسخة لدى العاملين في الحقل البنكي حول جدوى الإقراض للطبقات الأشد فقراً ونفت البديهيات القديمة والتي تقول إن من لا يملك ضمانات لقرضه لن يسدده، وقد لا يتعجب القارئ لو لاحظ أن من أهم منتقدي سياسات بنك جرامين مؤسسة ميسيس Mises Institute وهي هيئة مرتبطة فكرياً باليمين الجديد في الولايات المتحدة الأمريكية.

ورغم أن كتاب «تجربة بنك الفقراء» للدكتور مجدي سعيد يقدم عرضاً وافياً ليس فقط للبنك ولكن للمؤسسات التي نشأت عنه ولتأثيره في حياة القرويين ولهيكله الإداري والذي هو في حد ذاته تجربة خاصة جداً ومبتكرة إلا أن سلاسة الكتاب تأتي لموضوعه الشيق وليس للغته التي بدت أقرب للترجمات. كما أن الكتاب يكاد يخصص مقطعاً مطولاً في كل فصل لمناقشة التجربة ومفرداتها من منظور إسلامي مستشهداً في الفصل المعنون «التركيز الشديد على قضية الفقر» بأحاديث نبوية وآيات قرآنية وكتابات للشيخين محمد الغزالي ويوسف القرضاوي لتحديد من هو الفقير وما هي الالتزامات المجتمعية تجاهه، كما أنه يقدم آلية اتخاذ القرار في فلسفة البنك على أنها آلية مبنية على الشورى وهي مرجعية لا تتناقض مع فكرة التشاور والقرارات الجماعية، ولكنها فكرة ذات صبغة دينية بحتة غير مشار إليها في موقع البنك على شبكة الإنترنت ولا على المواقع المتفرعة منه. بل إن فروع البنك ومؤسساته تنتشر في دول عديدة لا يوجد بها جالية إسلامية كبيرة، ولكن الأمر مفهوم بالنظر إلى أن الكتاب تم نشره بالتعاون بين الدار العربية للعلوم (ناشرون) وبين موقع إسلام أون لاين.

نرمين نزار

حكومات جديدة فى أقاليمها العشرين، ثم بدأت بعد مرور عقدين على تقييم التجربة وتحليل فعالية هذه الحكومات ومستويات أدائها، وانتهوا إلى أن أنماط تكوين الجمعيات والثقة والتعاون هى التى تسهل الحكم الجيد وتوفر الرخاء الاقتصادى.

وربما تكون النتيجة الأهم التى انتهى إليها الباحثون هى أن فترة العقدين قد تكون كافية لتتبع آثار الإصلاح المؤسسى على السلوك السياسى، ولكنها غير كافية لتتبع تأثيراته على الأنماط الأعمق للثقافة والهيكل الاجتماعى. والمهتمون بالديمقراطية والجنوب عليهم أن يقيموا مجتمعاً أكثر مدنية وأن ينظروا لما هو أبعد من النتائج الفورية، ويؤكد الباحثون على أن الظن بإمكانية تغيير منطقة الجنوب (العالم النامى) من الخارج وبروشتة إصلاح جاهزة ليس صحيحا، فالتغيير قد يستفيد من تجارب أخرى فى العالم كله، لكنه لابد أن ينطلق من رؤية شاملة وعميقة للظرف الآنى ولواقع كل دولة على حدة، ويؤكد الباحثون أيضا على أن بناء رأس المال الاجتماعى لن يكون سهلاً، لكنه يبقى المفتاح الذى يجعل الديمقراطية تعمل.

الفلاحون وتحديات القرن الواحد والعشرين

إشراف: سمير أمين

القاهرة: دار العالم الثالث، ٢٠٠٦، ٣٢٠صفحة



تدحض الدراسات التى يتضمنها هذا الكتاب عن الفلاحين فى الصين والهند وسريلانكا والفلبين ومصر وأثيوبيا وغرب أفريقيا وزيمبابوى وجنوب أفريقيا والبرازيل وبولندا والمكسيك، المقولات بأن الرأسمالية هى السبيل الوحيد للتنمية فى العالم كله، خصوصاً بعد الانهيار المدوى للاشتراكية التى كان الاتحاد السوفيتى السابق هو موطن تجريبها عملياً. وقد استغرق العمل فى هذه الدراسات جميعاً ما يقرب من ثلاث سنوات، انتهت إلى تكذيب الادعاءات التى يروجها الخطاب الرأسمالى باعتباره منقذ البشرية وأملها الوحيد للنجاة فى طور تطورها الأخير. فهذا الخطاب يناقض تماماً ما يراه الناس على أرض الواقع من حالة دمار إنسانى شامل أبيدت فيها شعوب بكاملها، وشهدت عملية إنتاج الثروة وتوزيعها عبر العالم أسوأ وأخطر عملية استقطاب، وسعت الهوة كثيراً بين دول الشمال المتقدم ودول الجنوب النامى، وإن كان السعى نحو تخفيف حدة هذا الوضع قد وجد طريقه خلال فترات التقنين الشديد من تاريخ الرأسمالية، كما يقول الدكتور سمير أمين، الذى يشير أيضاً إلى أن الخطاب النيبرالى السائد يستثمر حالات فشل الأنظمة السياسية فى دول العالم الثالث للتأكيد على تفرد الخيار الرأسمالى، حيث يعمد إلى طمس الأبعاد التدميرية المقترنة بعمليات تراكم رأس المال، أو يزعم أنها آثار مؤقتة، كى ينسى الناس أن هذا المؤقت كان هو القاعدة الأساسية منذ خمسة قرون، وقد بلغت طورا من شأنه تهديد استمرار الحضارة الإنسانية ذاتها، وهو الأمر الذى يبدو جليا فى المجتمعات الزراعية بالعالم النامى، بل وفى الغرب المتقدم ذاته، وهو وضع يمكن أن تطلق عليه شيخوخة الرأسمالية التى قد يمكن تجاوزها - بحسب سمير أمين أيضاً - نحو اشتراكية عالمية لم تعرف خصائصها بعد، أو الانتكاس نحو نظام عنصرى يتجه بطبيعته إلى إبادة الشعوب.

دوريات

دبى الثقافية

دبى: دار الصدى للنشر والتوزيع



يحذرنا كتاب سودانيون فى هذا العدد من أن الثقافة السودانية ستنقرض، والسبب كما يشير التحقيق الثقافى الذى تحدث فيه عدد من الأدباء السودانيين، أنه لا سينما ولا مسرح ولا دور نشر فى السودان، كما أن الدولة لا تقدم دعماً للكتاب من أى نوع وتعتبر أن نشر الثقافة ليس من اهتماماتها.

يكتب رجاء النقاش أيضاً عن الأديب المصرى عادل كامل الذى رافق نجيب محفوظ فى بداياته، ثم توقف بعد روايتين ومسرحية، بالعدد أيضا حوار مطول مع الشاعر اللبنانى سعيد عقل وآخر مع الروائى الليبى أحمد إبراهيم الفقيه، وثالث مع الفنان المصرى جميل راتب، ورابع مع المخرج المسرحى والأكاديمى العراقى عقيل مهدى.

وحوارات فنية وأدبية أخرى عديدة ومقالات لأدونيس وجابر عصفور وأحمد عبدالمعطى حجازى وصلاح فضل وعبدالعزيز المقالح وآخرين.

النهضة

القاهرة: كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة



صدر عدد جديد من هذه المجلة الفصلية التى تعنى بنشر البحوث النظرية والميدانية فى علوم الاقتصاد والإحصاء والسياسة والإدارة العامة، ويرأس تحريرها الدكتور على الدين هلال وزير الشباب المصرى السابق. يتضمن العدد الجديد بحوثاً عن الفجوة العلمية والتكنولوجية بين الدول المتقدمة والنامية وانعكاساتها على النمو الاقتصادى. جدلية الصراع فى إسرائيل بين الفكرة والوجود، كما تطرح قضية الإصلاح الإدارى للمناقشة.

وتحظى عديد من المؤتمرات التى عقدت خلال الفترة الأخيرة بتغطية وافية منها مؤتمر مخاطر وتداعيات الانتشار النووى الذى عقد بالبحرين فى سبتمبر ٢٠٠٦، ومؤتمر الأبعاد السياسية لتشريعات مكافحة الإرهاب الذى عقد فى نفس الفترة تقريبا بجامعة القاهرة، وكذلك الندوة التى نظمها المركز الدولى للدراسات المستقبلية وناقشت الأبعاد الاستراتيجية والانعكاسات الإقليمية للمشروع النووى الإيرانى.

قضايا إسرائيلية

رام الله: المركز الفلسطينى للدراسات الإسرائيلية



يتضمن العدد الرابع والعشرون من هذه الفصلية دراسة لدان ياهف يتساءل فيها: هل دولة اسرائيل ديمقراطية.

ويكتب مهند مصطفى عن نظام الحكم والاستقرار السياسى فى إسرائيل، ويطرح أودى أديب تساؤلات مكملة فى موضوعه وجهات نظر نقدية: إسرائيل كدولة ومجتمع.

ويحلل كمال على حسان مراكز الفكر الإسرائيلى ودورها، ويتناول إسماعيل أبوسعد صورة العرب فى الكتب الدراسية الإسرائيلية.

ويقدم رازيين أبارجيل وسمادارلمى شهادتيهما التى يمكن اعتبارها تصويرا عميقًا لواقع إسرائيل العنصرى بعيون يهود إسرائيل الشرقيين.

ويقرأ برهوم جرايسى تقريرين لم ينشرا بعد على الملأ، وهما لتقرير لجنة الخبراء التى كلفها رئيس الدولة بدراسة نظام الحكم فى إسرائيل، وتقرير المعهد الإسرائيلى للأبحاث حول الفقر والحرير.

البحرين الثقافية

البحرين: وزارة الإعلام



يتضمن العدد الجديد من المجلة ملفين: الأول عن أديب نوبل نجيب محفوظ، يشارك فيه باحثون وأدباء عرب، والثانى عن التشكيلى البحرينى الذى رحل مؤخراً ناصر اليوسف، والذى يعد أحد أكبر الرواد المؤسسين للتعبيرية المحلية فى البحرين بحسب ما يصفه الناقد التشكيلى اللبنانى أسعد عرابى.

ويتضمن قسم السينما حوارا مطولاً مع المخرج السينمائى الهندى ساتياجيت راى وهو واحد من أهم المخرجين فى السينما الهندية المعاصرة.

وفى المسرح دراسة عن مسرحية سرفانتس الشهيرة «دون كيخوتة» التى يقول عنها شاكر القنسة إنها رسالة إسبانيا إلى العالم منذ أربعة قرون.

يتضمن العدد أيضا دراسات نقدية وأدبية ومراجعات لكتب حديثة ونصوص شعرية وقصصية لمبدعين من مختلف الأجيال.

أدب التعبير والتفسير فى رواية «علاقة مستحيلة»

عاطف العراقى

إن صح تقديرى، فإن رواية «علاقة مستحيلة» والتى تعد آخر رواية قدمتها الأديبة جيلان حمزة إلى مكتبتنا العربية، ستحتل مكانة كبيرة فى تاريخ أدبنا الروائى المعاصر.

ونود فى البداية أن نشير إلى بعض أحداث الرواية بإيجاز شديد، وذلك قبل أن نقدم رؤيتنا النقدية لهذه الرواية، والتى بذلت فيها مؤلفتها - كما نبين - جهداً ملحوظاً تنقسم الرواية إلى قسمين: تدور أحداث القسم الأول والذى يقع فى ١٧٥ صفحة، فى مصر، أما القسم الثانى والذى يقع فى ١٥٠ صفحة، فتقع أحداثه بأمريكا.

ونجد فى القصة مجموعة كبيرة من الشخصيات، استطاعت المؤلفة أن تدير حواراً خصباً بين هذه الشخصيات وما أكثرها: نجد سعاد الشخصية الرئيسية فى القصة وتدور حولها أكثر أحداث الرواية سواء فى قسمها الأول، أو فى قسمها الثانى. ومنى وكريم الابنة والابن لسعاد، وكريم أصغر من منى بسنوات قليلة. ورشيقة هانم والدة سعاد، وعطيات بنت العم، وشادى ابن منى وتبدأ القصة بولادة منى له. وأشرف زوج منى. وأصيلة هانم والدته. وحسن عم منى وكريم، وستجد دوره واضحاً ومؤثراً فى القسم الثانى من الرواية. والسنير كمال محمود، وهو الذى أعان كريم ابن سعاد، على العودة لوزارة الخارجية، بعد تركه لها، والأمريكى هارت سترونج واليهودى يوسف بجيه أو يوسف عيجى، ونجده الشخصية المحورية إلى حد كبير فى القسم الثانى من الرواية، بل تنتهى أحداث الرواية، بخطاب منه إلى سعاد التى أحبها حباً جماً، وخطاب من سعاد إليه تكتبه ثم تغادر أمريكا عائدة إلى موطنها القاهرة، وكان هو المشرف على رسالة كريم ابن سعاد لدرجة الدكتوراه بأمريكا، وهى الرسالة التى تدور حول (شخصيات إسلامية كالغزالى أبو حامد وحسن البنا والمودودى)، وجهاد القسام، ووليد القسام وهما من فلسطين.

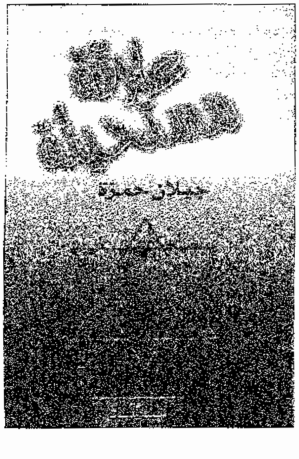
كما نجد بالإضافة إلى الشخصيات الرئيسية ذكراً لبعض الشخصيات أثناء تسلسل القصة البنائى، ومن بينهم، الملك فاروق، ومحمد نجيب، وجمال عبد الناصر، وصلاح سالم، وأنور السادات، ومارتن لوثر، وموشى ديان، وبيجين، وجولدا مائير.

ونود الإشارة إلى أن أحداث الرواية، تعد أحداثاً واقعية إلى حد كبير، بل إن شخصية سعاد فى كثير من جوانبها، قد تعد معبرة عن شخصية المؤلفة جيلان حمزة، ولكن هذا لا يعنى أن الروائية جيلان حمزة تكتب سيرة لحياتها، إذ أن الأديب حين يكتب رواية من الروايات أو قصة من القصص قد يلجأ إلى الحذف والتعديل والإضافة. وهذا يعد شيئاً منطقياً لأن وظيفة الأديب تختلف عن وظيفة رجل الشرطة حين يسجل الأحداث فى قسم الشرطة ويكتبها كما حدثت بكل تفصيلاتها. وما نقصده هو القول من جانبنا بأننا نستطيع التعرف على شخصية جيلان حمزة من تحليلها لشخصية سعاد، تماماً كما نجد توفيق الحكيم من خلال بعض رواياته، ونجد نجيب محفوظ من خلال شخصيات العديد من رواياته ومن بينها الثلاثية، أى بين القصرين (عصر الجد) وقصر الشوق (عصر الأب) والسكرية (الابن أو الحفيد).

ولكى نستطيع أن نتفهم بدقة وقائع هذه الرواية المهمة، لابد من أن نشير أولا إلى أن الرواية تجمع بين ما نسميه أدب التعبير وما يسمى أدب التفسير، النوع الأول من الأدب، أى أدب التعبير، وظيفته إحداث لذة فى النفس أو الشعور والوجدان، ولكنه لا يقدم رؤية للواقع ومشكلاته ونظرة الأديب لهذا الواقع كأشعار البحترى على سبيل المثال. أما النوع الثانى من الأدب، أى أدب التفسير، فإننا نستطيع من خلاله الكشف عن رؤية الأديب أو الفنان للواقع الذى يعيش فيه، ونظرته إلى الحياة ومشكلاتها، ونجد هذا عند كثيرين، من بينهم المتنبى وأبو العلاء المعرى وابن الرومى، بالإضافة إلى كثير من الأدباء والشعراء. كما نجده عند بعض أهل الفن.

بل إننا نجد عند بعض الأدباء وبعض الفنانين، روايات وسيمفونيات يمثل بعضها أدب التعبير، وينطبق على البعض الآخر أدب أو فن التفسير، نجد هذا واضحاً غاية الوضوح عند شكسبير فى مسرحياته، وعند بيتهوفن فى روائعه السيمفونية.

ويمكن أن نقول مع الأديب الكبير توفيق الحكيم، إن النوع الأول، أى أدب التعبير يمثل اللؤلؤة، فهى جميلة لذاتها، ولكن لا يتخطى جمالها ذاتها، أما النوع الثانى، فإنه يمثل الماسة، إنها تتخطى جمالها، وبحيث تصدر إشعاعات على المكان الذى توجد فيه، أى تتخطى ذاتها، إلى الآخرين، إن هذا النوع الأخير هو أدب التفسير.



وإذا تتبعنا أحداث الرواية، فإننا نجدها فى القسم الأول والقسم الثانى، تمثل إلى حد كبير نوعى الأدب أو الفن، التفسير والتعبير وإن كنا نرى أن التعبير يعد ظاهراً وغالباً فى القسم الأول، فى حين أن التفسير يعد أكثر وضوحاً فى القسم الثانى ولكننا لا نستطيع القول إذا تأملنا فى كل سطر من سطور كل قسم من قسمى الرواية، أن نقصر التعبير على الجزء الأول، ونقصر التفسير على القسم الثانى من الرواية ودليلنا على ذلك أن الجانب العاطفى أو الرومانسى أو الوجدانى والذى يمثل أدب التعبير لا نجده فى القسم الأول فحسب، بل نجده أيضاً فى القسم الثانى.

فسعاد الشخصية الرئيسية، تناجى نفسها، وتتأمل فى الداخل أكثر من تأملها فى الخارج الواقعى، وتهتم بالجانب العاطفى الرومانسى، بل إنها أحياناً تفضل الحديث مع الزهور والأشجار، وترى أن ذلك أفضل من الحديث مع الآدميين. كما أنها تجد ذاتها حين تقوم برسم اللوحات. كل هذا يكشف عن جوانب أقرب إلى التعبير. ونجد هذا ليس فى القسم الأول الذى دارت أكثر أحداثه إن لم يكن كلها بمصر، بل نجده أيضاً بعد سفر سعاد إلى أمريكا وإقامتها بها فترة من الزمان للاطمئنان على ابنها الذى يدرس بأمريكا كما أشرنا منذ قليل.

ونظراً لأن المناقشات كانت مستمرة خلال وجود سعاد بأمريكا، بحيث كادت أن تكون كل ليلة، فإن من الطبيعى أن نجد تنوعاً خصباً وعديداً لموضوعات المناقشات، إنها بالإضافة إلى ما سبق، تناولت موضوع اغتيال السادات، والحديث عن الديمقراطية وكيف أن الديمقراطية ليست ديمقراطية الانتخابات فحسب: بل إنها سلوك وطريقة حياة شاملة وفى كافة الميادين والمجالات وفى طريقة التعامل طوال حياة الإنسان. وأيضاً نجد مناقشات رائعة تتناول كل شئون مصر وعلاقتها بالعالم الغربى، وكيف طلبت دول عربية من فرنسا أن توقع الحجز على مصر بعد فشلها فى سداد ديونها.

نعم إنها مناقشات رائعة وتتناول بالحديث أكثر دول العالم، وخاصة مصر، وهذا يعد شيئاً طبيعياً ومنطقياً من الروائية، لأن سعاد وابنها وشقيق زوجها وغيرهم فى مصر، والآخرون إما زاروا مصر أو درسوا أحوالها. إن المناقشات تمتد وتستمر وبحيث تتناول موضوعات أخرى شتى، ومن بينها موضوع التطرف الإسلامى والليبرالية، ودول الشرق الشيوعى والغرب الرأسمالى، وكيف أن الحروب تقف مانعاً فى وجه التواصل بين الناس عن طريق شرورها، وبحيث نقول من جانبنا إن الإنسان يجب أن تكون وظيفته الوصل وليس الفصل، والحروب فصل وليست وصلا.

وتتسم المناقشات بقدر كبير من الموضوعية والصراحة، وليس أدل على ذلك من الأدلة التى يغلب عليها التشاؤم من جانب الأمريكى هارت سترونج حول إمكانية أن تفقد أمريكا سيطرتها على العالم لأن كل دولة الآن تريد أن تتخلص من الهيمنة الأمريكية فى مجال الاقتصاد والاستراتيجية. وأن أمريكا لديها اكتفاء ذاتى منذ القرن التاسع عشر، وانفتاح أمريكا على الاستثمارات الأوروبية.

وكل ما أرجوه من الروائية إذا فكرت فى طبع روايتها، طبعة أخرى وهى تستحق الطبع والنشر على أوسع نطاق، بل يجب أن تترجم إلى أكثر من لغة، أقول، إن كل ما أتمناه أن تقوم الروائية جيلان حمزة بحذف العديد من التفصيلات سواء فى القسم الأول، أو القسم الثانى من روايتها، التفصيلات التى لا نجد الرواية فى حاجة إليها، وحذفها لن يؤدى إلى الإخلال بالرواية وتخلخل بنائها الدرامى ولولا النطاق المسموح به للدراسة، لكنت قد ذكرت قائمة بهذه التفصيلات التى أجد أن حذفها يعد أفضل من وجودها فى الرواية الرائعة التى بين أيدينا.

يضاف إلى ذلك أنه من الضرورى، القيام بالتصحيحات اللغوية، والأخطاء المطبعية وذلك لأنها عديدة، كما أنه من الضرورى تصحيح القول بأن الغزالى (أبو حامد) قد ولد عام ١٢٢٩م (ص ٣٠١ من الرواية) فإن هذا يعد خاطئاً، إذ كيف يولد الإنسان بعد أن وقعت وفاته، أقول هذا لأن الصحيح والثابت أن الغزالى ولد عام ٤٥٠هـ = ١٠٥٨م، وتوفى ٥٠٥هـ = ١١١٦ ميلادية، ومعنى هذا أن التاريخ المذكور بالرواية وبالصفحة التى أشرنا إليها من الرواية ليس تاريخاً صحيحاً سواء بالنسبة لمولد الغزالى، أو وفاته.

وهذا كله لا يقلل بأى حال من الأحوال من عظمة الرواية.

علاقة مستحيلة (رواية)
جيلان حمزة
القاهرة: عربية للطباعة والنشر، توزيع: مكتبة مدبولي، ٢٠٠٦، [illegible] صفحة

Step on a Crack

(الاقتحام)

James Patterson & Michael Ledwidge

Little, Brown and Company, $27.99, 400PP, 2007



فى رواية جديدة تدور أحداثها فى قلب حى مانهاتن بنيويورك، يقدم الثنائى «باترسون وليدويدج» بطلا جديدا، ربما يكون بداية لسلسلة من قصص المغامرات، المحقق «مايكل بينيت» الذى لا يشغل تفكيره سوى كيف سيمر عيد الميلاد القادم على عائلته، فهو وأبناؤه العشرة المتبنون يواجهون مرض زوجته وأميم البديلة بالسرطان القاتل.

أزمة مفاجئة تحدث فى جنازة سيدة أولى سابقة بإحدى كنائس مانهاتن، مجموعة من الرجال يقتحمون الكنيسة ويأخذون مئات الرهائن، ثم لم يلبثوا أن أطلقوا الكل إلا بعض الأشخاص المشهورين، كالعمدة وممثل كوميدى مشهور ومذيعة تلفزيونية مشهورة ونجم بوب شهير.

يجد مايكل نفسه فجأة مسئولا عن حياة بعض من أشهر شخصيات نيويورك، وفى مواجهة قاتل دموى، وتاركا لزوجته فى المنزل تصارع الموت.

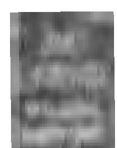
❊

Plum Lovin'

(محبة بلوم)

Janet Evanovich

St. Martin Press: $ 16.95, 176pp., 2007



من اللافت للنظر أن نسبة كبيرة جداً من كتاب الجريمة الناجحين من النساء، بل إن أشهرهن على الإطلاق: أجاثا كريستى وبى دى جيمس ربات بيوت لا تتضمن حياتهن الشخصية أى مغامرات (باستثناء ربما اختفاء أجاثا كريستى لبعض الوقت، وهو الحادث الذى رفضت تقديم أى تفسير له حتى مماتها)، على هذا الأساس لا يكون من المستغرب أن تتصدر كاتبة جريمة أخرى هى جانيت إيفانوفيتش قائمة النيويورك تايمز لأكثر الأعمال الأدبية مبيعاً هذا الشهر. تمزج إيفانوفيتش فى كتابتها بين التشويق المعتاد فى روايات الجريمة وبين الفكاهة النابعة من طبيعة حياة الشخصية الرئيسية المستمرة فى أغلب الروايات وهى شخصية ستيفانى بلوم المرتبطة برجلين فى نفس الوقت. وستيفانى شخصية مبتكرة فى أكثر من جانب، إذ إنها ليست محققة أو طبيبة شرعية كما جرت العادة، ولكنها عميلة فدرالية مختصة بتتبع ومراقبة من يتم الإفراج عنهم بكفالة خلال النظر فى القضايا التى يتم اتهامهم بها. وقد وعدها صديق لها بمساعدتها فى إيجاد المرأة التى تعمل كإخصائية فى العلاقات على شرط أن تساعدها ستيفانى فى إيجاد شركاء مناسبين لزبائنها. الرواية خفيفة ومسلية ولكن فى أغلب الأحيان هذا كل ما يمكن أن تجده على قوائم الكتب الأكثر مبيعاً، فللأدب الرفيع عدد أقل بكثير من القراء.

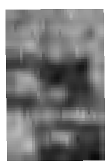
❊

The Alexandria Link: A Novel

(صلة الإسكندرية: رواية)

Steve Berry

Ballentine Books: $25.95, 480pp, 2007



منذ النجاح الأسطورى لرواية شفرة دافنشى ظهرت روايات أخرى عديدة ومتفاوتة فى المستوى تعتمد فى أحداثها على معلومات أو ألغاز تاريخية، على قائمة أكثر الكتب مبيعاً هذا الشهر رواية من نفس النمط للكاتب ستيف بارى، تدور أحداثها حول كوتون مالون الذى تقاعد من عمله فى هيئة من هيئات وزارة العدل الأمريكية مختصة بتعقب القضايا الدولية شديدة الحساسية، ثم رحل إلى كوبنهاجن حيث افتتح مكتبة للكتب النادرة، تبلغه زوجته السابقة فجأة بخبر اختطاف ابنه ثم يثبت له الخاطفون جديتهم بإحراق مكتبته. يطالبه الخاطفون بمساعدتهم فى العثور على مفتاح اللغز فى موقع مكتبة الإسكندرية القديمة، وهو مع معرفته بمفتاح هذا اللغز لديه أيضا أسباب تمنعه عن الكشف عنه. تدور أحداث هذه المغامرة فى فصول صغيرة شديدة التشويق، وفى مواقع متعددة حول العالم.

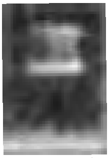
❊

The Memory Keeper's Daughter

(ابنة حافظ الذاكرة)

Kim Edwards

Penguin: $14.00, 432pp, 2006



يبدو أحيانا أنه لا روايات على قوائم أكثر الكتب مبيعاً سوى الروايات البوليسية، ولكنه فى أحيان ليست نادرة تأتى رواية مثل هذه. تبدأ الأحداث بعاصفة ثلجية تمنع نورا هنرى من الوصول إلى المستشفى لتلد طفليها التوءم، ولكن زوجها الجراح وممرضته ينجحان فى إتمام عملية الولادة فى المنزل، تلد الأم طفلاً بصحة جيدة وطفلة يعرف أبوها من أول نظرة أنها مصابة بمتلازمة داون، فيكلف الممرضة بنقلها بسرعة إلى ملجأ ويخبر الأم عندما تستيقظ من أثر المخدر أن الطفلة قد توفيت. لا تلتزم الممرضة بتعليمات الأب ولكنها تهرب لتبدأ حياة جديدة تعتنى فيها بالطفلة وتصارع نظاماً تعليمياً لم يكن قد اعترف بعد بحقوق المعاقين. تتتبع الرواية حياة عائلة هنرى أيضا والتى أصابها نوع من الفتور الغامض على أثر إحساس الأب بالذنب وإحساس الأم بالفقد وإحساس الأخ باحتياج غامض لأخته. هذه هى الرواية الأولى للكاتبة التى نشرت من قبل مجموعة قصصية ومع أنها تتصدر قائمة أكثر الروايات مبيعاً إلا أنها تتلقى انتقادات من القراء والكتاب فى مواقع عروض الكتب على اعتبار أن رومانسيتها مفرطة وإيقاعها غير محكم بالذات فى منتصف الكتاب، حيث تمر الأحداث بسرعة عبر عدد كبير من الأعوام المتتالية.

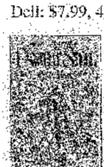
❊

The House

(البيت)

Danielle Steel

Dell: $7.99, 416pp, 2007



لقد ظهرت كتب دانييل ستيل على قوائم أكثر الكتب مبيعاً بشكل دورى لدرجة أن هناك شكاً أن أى قائمة قد خلت من كتبها منذ بدأ مشوارها كروائية. والغريب أن هذا الأمر يحدث رغم أن أحداث رواياتها أصبحت متوقعة جداً، النهايات السعيدة غالبة على أعمالها، وهناك دائما من يرشد الأبطال للراحة التى كانت قريبة منهم دون أن يدركوا ذلك. فى هذا الكتاب الأخير تقدم لنا ستيل إحدى بطلاتها التقليديات، امرأة قوية ولكنها تعيسة فهى محامية ناجحة تعمل ساعات طويلة وتحيا وحيدة فى شقة ممتلئة بأثاث لم يتغير منذ أن كانت صاحبته طالبة جامعية. يتوفى أحد عملائها الكبار فى السن ويترك لها ثروة طائلة بشرط أن تنفقها فى الاستمتاع بحياتها وعدم التفكير فى العمل فتقوم هى بشراء قصره المتهالك، خاصة بعد أن تكتشف أن جدها هو المهندس الذى بناه وسعد بذلك جدتها وأمها. من المؤكد أن لدانييل ستيل قراء جدداً كل فترة، فلا يوجد تفسير آخر لبقاء رواياتها على قوائم أكثر الكتب مبيعا كل تلك السنوات.

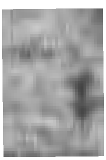
❊

Long Way Gone A

(ذهب الطريق الطويل)

Ishmael Beah

Farrar, Straus and Giroux, $22.00, 240PP, 2007



«إسماعيل بياه» كان طفلا عاديا، من سيراليون يعشق موسيقى الهيب هوب الأمريكية ويرقص على أنغامها، ويفر مع عائلته من قرية إلى قرية فى دولة أدمتها الحرب الأهلية الوحشية الدائرة بين الثوار وقوات الجيش المحلى، ولكنه فى سن الثانية عشرة جر إلى مستنقع الحرب الدائرة، وإلى عالم يدمن الذبح الجماعى.

وجد إسماعيل نفسه مجنداً فى صفوف الجيش، بينما هو فى الثانية عشرة من عمره، كان يطلب منه حمل السلاح والقتل بلا هوادة أو تمييز.

فى الخامسة عشرة من عمره، أخذ إسماعيل إلى معسكر إعادة تأهيل تابع لليونيسيف بمشاركة عدد من منظمات العمل المدنى. وبمرور الأيام تساعده موظفة مهتمة ليصبح الناطق الرسمى عن المعسكر، حتى بعد إعادته إلى الحياة المدنية فى العاصمة.

لم تلبث الحرب أن ابتلعت العاصمة ليفر إسماعيل ثانية فى سن السابعة

عشرة، ولكن تلك المرة إلى خارج البلاد، إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث يعيش الآن.

وصف مذهل يتجاوز أفضل الجهود الصحفية لكشف حياة وعقل طفل جر إلى مستنقع الحرب الأهلية في سيراليون.

Somebody's Gotta Say It
(لابد أن يقولها أحد)

Neal Boortz
HC, $25.95, 336PP, 2007



«لقد اكتشفت أن خمسين بالمائة من الأمريكيين البالغين جاهلون ولا يستحقون العيش في مجتمع حر، ربما تعتقد أني أهذي، ولكن مع مرور كل يوم يثبت لي نصف سكان هذه البلاد قولي».

«نيل بورتز» الإذاعي المخضرم، ورئيس أساقفة كنيسة الحقيقة المؤلمة، بعد كتابه (الضرائب العادلة) يعود بكتابه الجديد (لابد أن يقولها أحد)، ليحطم العديد من الثوابت الأمريكية، ويكشف ما خلف المجتمع الأمريكي الحر من الاتجاهات المدمرة المخفية خلف كتب الأطفال إلى الغش باسم الفن.

في مستهل حديثه عن السياسة الداخلية الأمريكية، يقدم «بورتز» ضربة استباقية لانتخابات عام ٢٠٠٨، قائلا أن الفكرة الرئيسية التي سيبني عليها الديمقراطيون حملتهم ستكون «الصالح العام»، وهو يعارضها قائلا أن الحكومة وجدت لتحمي حقوقه، لا لتقود حياته.

American Fascists
(الفاشيون الأمريكيون)

Chris Hedges
Free Press, $25.00, 272PP, 2007



من خمسة وعشرين عاما، عندما تحدث «بات روبرتسون» عن تحول الولايات المتحدة إلى دولة مسيحية تهدف إلى بناء إمبراطورية مسيحية عالمية، كان من الصعب أخذ تلك المقولة على محمل الجد، ولكن اليوم لابد من التوقف عند مثل تلك العبارات التي أصبحت تهدد وبشكل خطير الحرية الأمريكية.

«كريس هيدجس» في هذا الكتاب يعارض ويشكك في شرعية اليمين المسيحي قائلا عنه أنه في الأساس حركة جماهيرية وقودها القومية المتغلغلة والكراهية للمجتمعات المفتوحة.

الكاتب يدين التوغل اليميني المسيحي في السياسة الأمريكية، مشيرا إلى المئات من أعضاء مجلس الشيوخ الذين كسبوا تأييد من ٨٠ إلى ١٠٠ بالمائة من أكبر ثلاثة تكتلات مسيحية يمينية بالولايات المتحدة، كما يهاجم محاولاتهم لهدم الحائط الفاصل بين الكنيسة والدولة، مشيرا إلى توغل المسيحية اليمينية إلى بيوت أكثر من عشرة ملايين أسرة أمريكية عن طريق ضخها خلال التلفاز والإذاعات المسيحية المختلفة، إضافة إلى المناهج التعليمية المحشوة بأفكار اليمين المسيحي.

الكتاب يكشف عن أصول الحركة اليمينية والدوافع المحركة لها ودعائمها الأيديولوجية، مشبها إياها بالحركات الفاشية الإيطالية والألمانية في أوائل القرن الماضي.

The Politically Incorrect Guide to Global Warming
(الدليل السياسي الخاطئ إلى ظاهرة الاحتباس الحراري)

Christopher C. Horner
Regnery Publishing, Inc., $19.95, 288PP, 2007



لعقود طويلة، كانت البيئة الحجة الأكبر لليسار للسيطرة على حياتنا بطريقة أو بأخرى، ولكن حتى الآن مخاوف موت البيئة التي اخترعوها لم تكن كافية لفرض أسلوب حياة مختلف على البشر، والآن مع ارتفاع درجات الحرارة في العالم، يستطيع نشطاء منظمة السلام الأخضر أن يجادلوا بأن الغازات المنبعثة من ولاية أوهايو الأمريكية تهدد حياة الناس بباريس، وهو أمر في رأيهم لا يستطيع أحد معالجته سوى الحكومة العالمية على حد تعبير الرئيس الفرنسي جاك شيراك.

في هذا الكتاب يجادل «كريستوفر هورنر» بأن القضايا البيئية تتعرض لتلاعب سياسي كبير من اليسار، وأن الاحتباس الحراري الذي يدعونه ما هو إلا كذبة كبيرة، وليس علما حقيقيا، مقدما دلائله على ذلك قائلا أن «آل جور» ورفاقه من النخبة الإعلامية وتنظيم الأمم المتحدة، يدعون أن الاحتباس الحراري كارثة عالمية لم يسبق لها مثيل، ولكن هذا الادعاء هو مجرد حلم تسييس، فمثل ذلك العلم هو حلم مثالي لكل من يكره الرأسمالية، كما يوضح «هورنر» أنه إذا كان الخطر كبيرا بتلك الدرجة التي يصرون عليها، فلا سبيل لمواجهته على الإطلاق ولا شيء يمكن فعله لمواجهته.

ينصب «هورنر» منظمة السلام الأخضر في كتابه «خضر من الخارج، دمويون حتى النخاع»، متهما إياهم بمعاداة الرأسمالية وأمريكا والإنسانية.

Leap!
(القفــــزة)

Sara Davidson
Random House, $25.95, 336PP, 2007



«سارة ديفيدسون» الصحفية اللامعة وكاتبة السيناريو المعروفة، وصلت إلى خمسينيات عمرها لتبدأ الإحساس بأن حياتها التي اعتادت عليها تؤخذ منها، فهي لا تستطيع إيجاد عمل يناسبها، كما رحل عنها أبناؤها فجأة لالتحاقهم بالجامعة، كما انفصلت عن شريك حياتها، لتجد نفسها ولأول مرة وحيدة تماما.

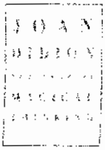
في كتابها، تحاور سارة العديد من المشاهير أصحاب العمر المتقدم لتكشف أبعاد أزمة تقدم العمر لدى الجنس البشري، كما تحاور العديد من الأطباء النفسيين والزعماء الدينيين والروحانيين لإلقاء الضوء على الأزمة من الناحية الدينية والروحانية.

ترى «سارة» أن السن المتقدمة هي سن القفزات والتغير الأكبر في الحياة، فهناك من سيحس بالحرية لأول مرة في حياته، وهناك من سيبدأ في البحث الروحي والديني، وآخرون سيجعلون من «الإبداع» هدفا لهم، ولكن هناك البعض سيتوارون بانتظار غروب شمسهم.

كتاب «القفزة» هو نداء لكل من تخطى به العمر، لا يفقد الأمل أو الإحساس بالحياة، فهناك أشياء عديدة بالتأكيد لم تفعل بعد.

The Year of Magical Thinking
(عام من التفكير الساحر)

Joan Didion
Vintage, $13.95, 240PP, 2007



«جوان ديديون» الكاتبة والروائية الأمريكية، تدون في هذا الكتاب قصة عام من شعورها العميق بالحزن، بدأت محنتها مع قدوم أعياد الميلاد من عام ٢٠٠٣، عندما علمت هي وزوجها الكاتب «جون دوني» بدخول ابنتهما إلى المستشفى مصابة بداء الرئة، مما أدى إلى إصابتها بصدمة أدخلتها في غيبوبة طويلة، وبعد خمسة أيام، وبعد عودتها من المستشفى، وبينما يتناولون عشاءهم، أصيب زوجها بانسداد في الشريان التاجي، مما أدى إلى وفاته على الفور.

على الرغم من حبها الشديد له، وحياتهما التي استمرت لأربعين عاما، لم تستطع «ديديون» أن تترك نفسها للحزن، فلا زالت ابنتها بالمستشفى في غيبوبتها، وحالتها تتطور من سيئ إلى أسوأ.

الكتاب ينقل تجربة عاطفية رائعة عن الحزن والحب والأمومة، وكيف يؤثرون على التفكير العقلاني، ليجعلوه تفكيرا سحريا.

Wikinomics
(ويكينوميكس)

Don Tapscott , Anthony D. Williams
Portfolio Hardcover, $25.95, 320PP, 2007



كلمة «ويكي» تستخدم لتدل على السرعة في هاواي، وهناك موسوعة «ويكيبيديا» على الإنترنت، وهي تكتب وتؤلف وتعدل وتنقح بواسطة أشخاص هاوين من متصفحي الإنترنت.

ولعل هذا مثال يوضح ما يطلق عليه الشبكة الجديدة، وهي تختلف عن الشكل المعهود الذي تعارفنا عليه، فهي تتيح التعاون الجماعي لإنتاج محتوى شبكي جديد، مما يتيح وجود أنظمة مفتوحة

المصدر تستطيع تقديم خدمات أسرع وأوسع نطاقا من أى شىء عهدناه من قبل.

يلقى المؤلفان الضوء أيضا على نظام التشغيل «لينكس» المفتوح المصدر، الذى قارب على القضاء على نظام التشغيل «ويندوز» فى نطاق أجهزة الخادمات، مشيرين إلى التأثير الاقتصادى لذلك.

يرى المؤلفان أن الأنظمة مفتوحة المصدر ستكون بداية لعصر معرفى ذهبى جديد، قد يماثل عصر النهضة فى العصور الوسطى، أو عصر ارتفاع الديمقراطية بأثينا.

※

Windows Vista Inside Out
(وندوز فيستا)
Ed Bott , Carl Siechert ,
Craig Stinson
Microsoft Press, $49.99,
1132PP, 2007



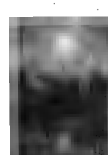
مع طرح الإصدار الجديد من نظام التشغيل ويندوز (ويندوز فيستا)، يأتى هذا الكتاب من إصدارات شركة مايكروسوفت، لتوضيح المميزات الجديدة به.

الكتاب يحتوى على المئات من حلول توفير الوقت باستخدام نظام التشغيل الجديد، والعديد من تلميحات استخدامه وحل مشاكله، وعرض لأهم أدواته والتطبيقات الجديدة التى تأتى معه.

الكتاب يأتى مرفقا بأسطوانة عليها العديد من الكتب الالكترونية وشروح لاستخدام نظام التشغيل وإعداده، وبعض من التطبيقات والأدوات المفيدة التى يمكن استخدامها معه.

※

Power of the Soul
(قوة الروح)
John Holland
Hay House, $24.95, 240PP,
2007



هذا الكتاب يقدم لك عدة وسائل للسيطرة على واحدة من أضخم القوى فى الكون (روحك).

خطوة بخطوة يأخذك هذا الكتاب لتصل إلى الطريق الصحيح لروحك وإلى تطوير إدراكك بالقوانين الروحية بداخلك التى تستطيع إثراء حياتك.

الكتاب يساعدك على التخلص من القيود التى خلقت حولك.

ويمكّنك من تحرير روحك من القيود النفسية التى تمنعها من إدراك إمكانياتك الكاملة.

وبمساعدة هذا الكتاب تستطيع أن تصل إلى سبع نقاط فى هذا الطريق، هى: اكتشاف قدراتك الحقيقية والوصول إليها، توجيه نفسك بدرجة وعى أعلى، إزالة حواجزك النفسية والروحية، إيجاد نفسك عن طريق فهم الطبيعة ووظائف الروح.

كما تستطيع صنع وخلق طريقة لك فى الحياة: استعمال طاقتك الروحية فى إشفاء نفسك والآخرين، وتزيين جسمك وعقلك وروحك لتستطيع العيش فى تناغم.

※

Know-How
(المعرفة)
Ram Charan
Crown Business, $27.30,
304PP, 2007

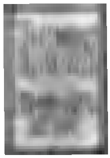


نظرية جديدة فى القيادة من «رام تشاران»، تبنى على ربط المعرفة بالمهارات الشخصية والسيكولوجية للقادة.

فمما لا شك فيه ضرورة وجود صفات مثل الذكاء والبصيرة الثاقبة والقدرة على الاتصال مع الآخرين فى القائد الناجح، ولكن علينا ألا ننسى أحد أهم الصفات وهى القدرة على إدارة الأعمال.

لأربعة عقود كاملة عمل «تشاران» كمستشار لعدة شركات كبرى، مما أتاح له التعامل مع القيادات العليا فى الشركات، ومن ثم استطاع الحكم على وسائل الإدارة المختلفة ومعرفة سمات القيادى الناجح، ليصل فى كتابه إلى ثمانى مهارات رئيسية لا بد من توفرها فى القيادى الناجح، ليقود شركته على الطريق الصحيح.

Hannibal Rising
(نشأة هانيبال)
Thomas Harris
Delacorte Press, $27.95,
336PP, 2007



الكتاب الرابع فى سلسلة تتحدث عن شر دكتور هانيبال ليكتر، وهى السلسلة التى شهدت تحول كتبها الأربعة إلى خمسة أفلام سينمائية عالمية هم (المطارد، صمت الحملان، هانيبال، التنين الأحمر، وأخيرا نشأة هانيبال)، وهى الأفلام التى حصدت بعضا من أهم الجوائز العالمية فى السينما، ولعل أهمها جائزة الأوسكار لأحسن ممثل وممثلة ومخرج ونص سينمائى عن فيلم صمت الحملان.

فى هذا الكتاب نكتشف جذور الشر فى دكتور هانيبال ليكتر ونشأته، فى كتاب ربما يكون من أكثر الكتب إمتاعا وإثارة هذا العام، وهو الذى تحول إلى فيلم سينمائى ربما أيضا يكون من أكثر الأفلام إثارة لهذا العام.

※

Political Life in Cairo's New Quarters
(الحياة السياسية فى القاهرة الجديدة)
Salwa Ismail
Univ Of Minnesota Press,
$22.30, 264PP, 2007



من السبعينيات، والقاهرة تشهد نموا هائلا وتغيرا ضخما، فهناك الآن ما يربو على الثلاثة ملايين نسمة يعيشون فى مجتمعات عمرانية جديدة تحيط بالقاهرة من كل جانب، العديد منها عشوائى، يميزها النشاطات الاقتصادية السرية، والوجود اللافت للإسلاميين.

«سلوى إسماعيل» تتفحص فى هذا الكتاب تأثير تلك التغيرات على الحياة السياسية المصرية، من خلال معرفتها الوثيقة بالقاهرة وعملها السابق بها.

فى كتابها، تجرى «سلوى» أحاديث مع سكان المناطق المحيطة بالقاهرة سواء كانت عشوائية أو من المدن الجديدة، لتصف لنا حياتهم اليومية بالتفصيل، ولتصف لنا النشاطات الاقتصادية المميزة لهم، وصدامهم الدائم مع الحكومة المصرية.

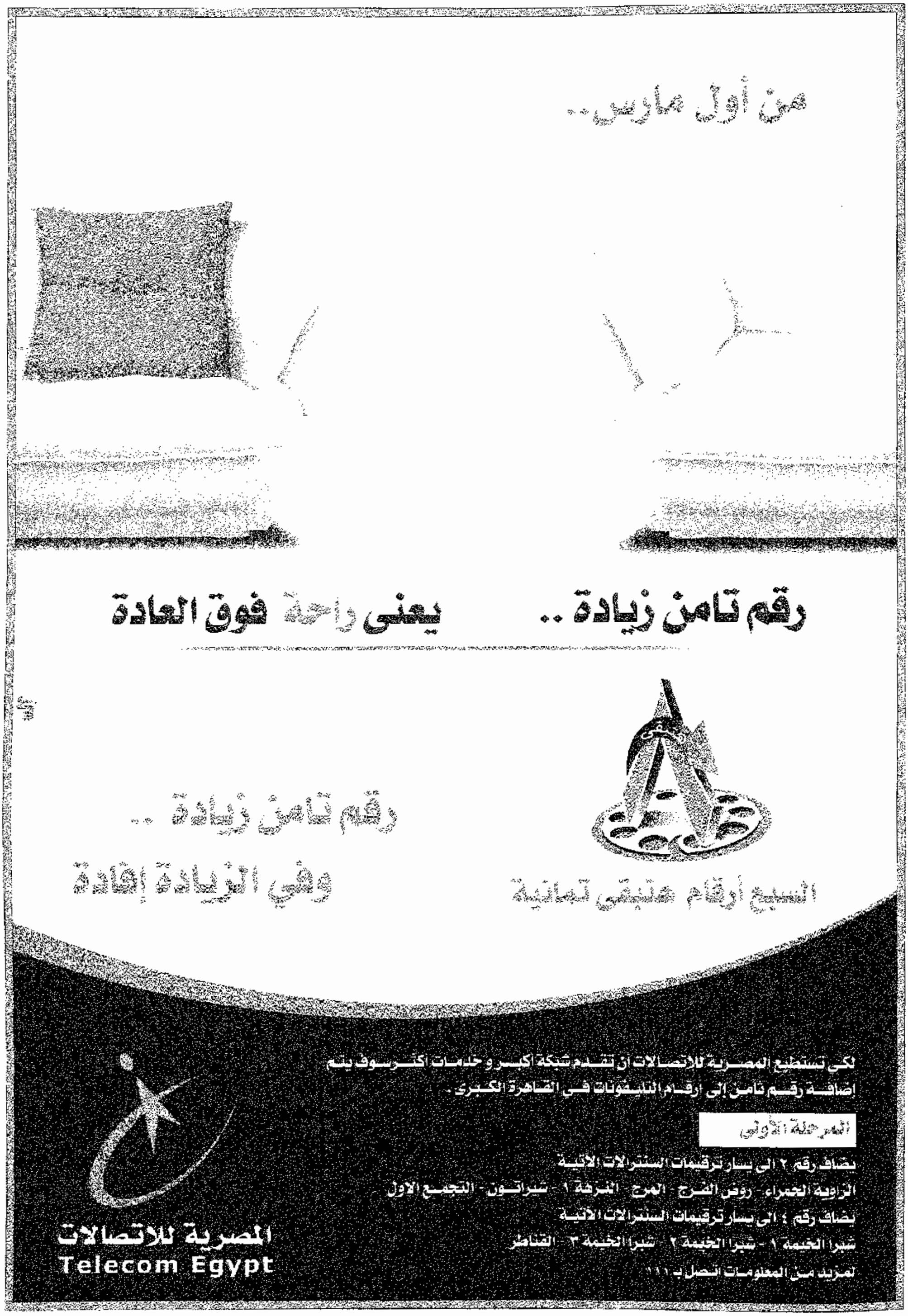
※

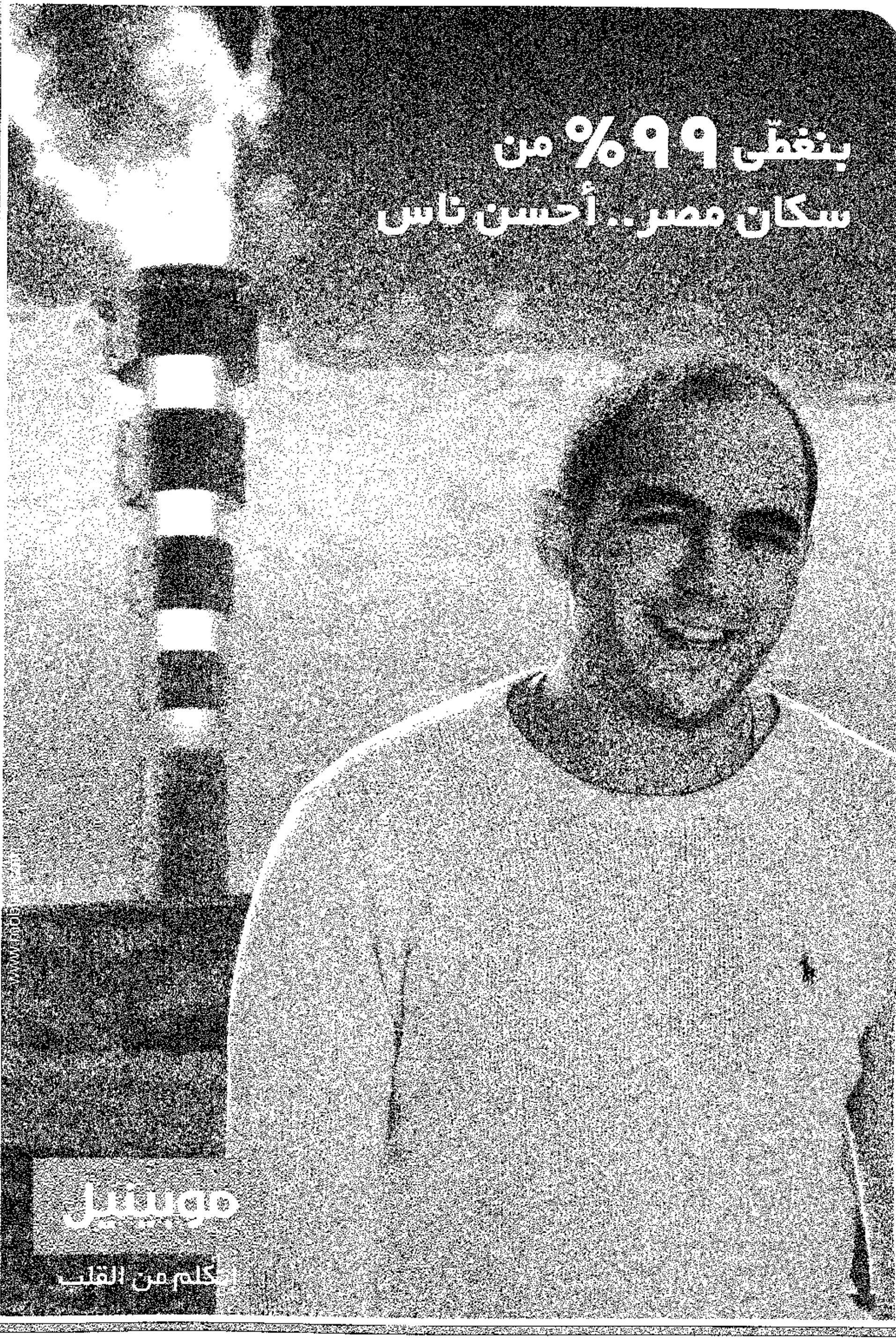
Born on a Blue Day: Inside the Extraordinary Mind of an Autistic Savant
(مولود فى يوم أزرق: داخل العقل الاستثنائى لعالم متوحد)
Daniel Savant
Free Press: 240pp, $24, 2007



التوحد من أصعب الاضطرابات العقلية خاصة بالنسبة للمحيطين بالمصاب بسبب أهم أعراضه وهو تعطل المقدرة على التواصل. يعانى المصاب بالتوحد من عدم القدرة على التفكير بشكل مبتكر، فهو لا يفهم الدعابات بالتالى، ولا يستطيع التعبير عن مشاعره أو الخروج عن الأنماط المتكررة فى الحركة والسلوك. ويكتسب المتوحد مهارات حسابية خارقة وغير مفهومة تماما فهو يستطيع أن يقوم بعمليات حسابية معقدة فى رأسه بنفس سرعة الكمبيوتر. وتتسم حالة التوحد بالغموض الشديد على كل المستويات. حتى إن الأطباء يعتمدون إلى حد كبير على التجريب فى محاولة التعامل معها. لهذا يعتبر ما انجزه دانييل تامييت بتأليفه كتابا عن حياته كمتوحد، فى حد ذاته عملا خارقا. ولكن دانييل حالة استثنائية من جوانب متعددة فهو يرتبط بعلاقة عاطفية منذ فترة طويلة وهو شىء شديد الندرة والتعقيد فى مثل حالته. كما أنه مستقل ماليا حيث يمتلك شركة على الإنترنت مختصة فى التعليم كما أنه قام بالتدريس فى ليتوانيا فى تحد كبير لحالته حيث يتطلب الأمر منه مواجهة عدد من الناس والتفاعل الخلاق معهم. ولكن دانييل فى نهاية الأمر متوحد فعلا ولم يتم شفاؤه بشكل كامل وهو بالتالى يقرأ كثيرا ولكنه لا يقرأ الأدب أبدا. كما أنه يميل إلى العزلة وينفر من الضجيج كما يفضل الروتين والكلام المباشر فى معناه. ويقول دانييل انه لم يتعلم معنى مراقبة الآخرين إلا بالتدريج وفى عمر متأخر بما فى ذلك إدراكه لأخواته الثمانية.

※


من أول مارس..
رقم تامن زيادة .. يعنى راحة فوق العادة
السبع أرقام هتبقى تمانية
رقم تامن زيادة ..
وفي الزيادة إفادة
لكي تستطيع المصرية للاتصالات أن تقدم شبكة أكبر و خدمات أكثر سوف يتم إضافة رقم ثامن إلى أرقام التليفونات في القاهرة الكبرى.
المرحلة الأولى
يضاف رقم ٢ الى يسار ترقيمات السنترالات الآتية
الزاوية الحمراء - روض الفرج - المرج - النزهة ١ - شيراتون - التجمع الاول
يضاف رقم ٤ الى يسار ترقيمات السنترالات الآتية
شبرا الخيمة ١ - شبرا الخيمة ٢ - شبرا الخيمة ٣ - القناطر
لمزيد من المعلومات اتصل ب ١١١
المصرية للاتصالات
Telecom Egypt


بنغطّي ٩٩٪ من
سكان مصر.. أحسن ناس
موبينيل
اتكلم من القلب